العدد السابع – السنة الثالثة عشرة – ربيع الثاني 1390 – يونيه 1970

دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر



في هـــذا العـــدد :

تصدرها
وزارة عموم الأوقاف
والشؤون الإسلامية
بالمملكة المغربية

ثمن العدد درهم واحد

العدد : السابع
السنة الثالثة عشرة
ربيع الثاني 1390
يونيه 1970
ثمن العدد : درهم واحد

دعوة الحق

مجلة تصدرها وزارة
عموم الأوقاف والشؤون
الإسلامية بالمملكة المغربية

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالي :
مجلة « **دعوة الحق** » ـ قسم التحرير ـ وزارة عموم الاوقاف
الرباط ـ المغرب . الهاتف 10 ـ 308

الاشتراك العادي عن سنة 10 دراهم ، والشرفي 30 درهما فاكثر .

السنة عشرة اعداد . لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك في حساب :
مجلة « **دعوة الحق** » رقم الحساب البريدي 55 ـ 485 ـ الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55 à Rabat

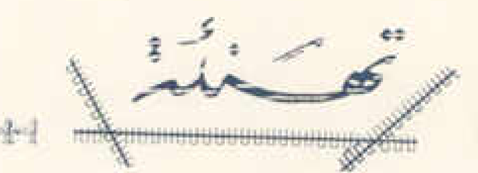
او تبعث رأسا في حوالة بالعنوان التالي :
مجلة « **دعوة الحق** » ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ الرباط ـ المغرب .

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادي والهيئات الوطنية والثقافية والاجتماعية ، وذلك بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

المجلة مستعدة لنشر الاعلانات الثقافية .
في كل ما يتعلق بالاعلان يكتب الى :
« **دعوة الحق** » ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ الرباط
تلفون 10-308 ـ 03-327 ـ الرباط





تهنئة

يحتفل الشعب المغربى النبيل فى يوم الخميس التاسع من شهر يوليوز بأعياد الشباب التى تخلد الذكرى الواحدة والاربعين لميلاد حضرة صاحب الجلالة والمهابة سيد البلاد أمير المومنين وحامى حمى الملة والدين مولانا الحسن الثانى نصره الله وأيده ..

وتغتنم وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية وأسرة « دعوة الحق » هذه المناسبة الكريمة فتتقدم الى مقام حضرة صاحب الجلالة بآيات الولاء والتبريك، والاخلاص والوفاء راجية من الله العلى القدير ان يطيل عمر مولانا الامام، ويديمه ذخرا لهذه البلاد، وملاذا حصينا للامة العربية والاسلامية، وملجأ أمينا اذا ادلهمت الخطوب والاحداث، وان يقر عينه بولى عهده سمو الامير الجليل سيدى محمد، وباقى الامراء والاميرات، ويحفظه فى شعبه الوفى الامين ..

انه سميع الدعوات .. آمين .

ازدياد مولود سعيد في القصر الملكي العامر

اشرق القصر الملكي العامر بطلعة امير جليل انعم الله به على صاحب الجلالة مولانا الحسن الثاني نصره الله وايده ...

وقد عمت الفرحة الكبرى ارجاء البلاد ، فخرج الشعب باجمعه في مواكب المسرات والابتهاج من مختلف طبقاته الى الشوارع ليعبر عن عميق محبته ، وصادق ولائه ، وعظيم تعلقه بملكه ، وقائده الهمام جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله ونصره ...

واظهارا للولاء والاخلاص ، وتعبير عن مكنون الحب والوفاء ، فقد انهمرت على القصر الملكي العامر ءالاف البرقيات من الجماعات والهيئات يعبر فيها اصحابها لجلالة العاهل المفدى عن تهانيهم بمناسبة اشراق رحاب البيت الكبير العامر بطلعة مولود جديد داعين له بطول العمر ... والحياة السعيدة الراضية .

وقد زف هذه البشرى المباركة الى عموم المواطنين، وجماهير الشعب معالي وزير الشؤون الادارية الكاتب العام للحكومة الاستاذ السيد الحاج امحمد ابا حنيني الذي تلا بهذه المناسبة السعيدة على امواج الاذاعة والتلفزيون البلاغ التالي :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وءاله وصحبه

حضرات السيدات والسادة

اشرقت رحاب القصر الملكي العامر في هذا اليوم المرموق 15 ربيع الثاني عام 1390 موافق 20 يونيو سنة 1970 بطلعة مولود ذكر ، ستضيف الى عقد الامراء الميامين ، أبناء صاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثاني، نفاسة الى نفاسة ، واشراقا الى اشراق ، وقد سبق لي أن نلت منذ شهور خلت حظوة تبشير اخواني المغاربة ، بأن حدثا سعيدا ستشهده رحاب القصر الملكي المحروس ، وها نحن اليوم ، وقد من الله على سيدنا المؤيد بالله ، وعلى الامة المغربية جمعاء ،

بالامير الذى كانت تشرئب الى طلعته الكريمة الافئدة المليئة بالاخلاص ، الجياشة بمشاعر الولاء والوفاء ، الطافحة بالحب والاكبار ، هانحن اليوم نبتهج اقوى ما يكون الابتهاج ، ونستشعر الوانا من المسرات ، وضروبا من الافراح ...

الحمد لله على ما والى لملكنا ولشعبه الوفي من نعم سابغة ، وما واصل لهما من منن وارفة ،نساله جل جلاله ان يقر عين ملكنا العظيم بالامير الوليد ، وباخيه صاحب السمو الملكي الامير المفدى سيدي محمد واخواته الاميرات المصونات ، وينبت الامراء الذين اجمعت القلوب على اخلاص الحب لهم ، وصرف التبجيل اليهم نباتا يفعم قلب والدهم العظيم ببالغ المسرات كما نساله ان يحفظ سيد البلاد ويكلأه ويرعاه ويبقيه لشعبه الدخر الثمين والركن الركين والملجا الحصين ، ويلهمه التاييد الذى يعزز الجانب ، ويضمن تحقيق المطالب والرغائب ، انه ولي الانعام ، وموئل الاعتصام .

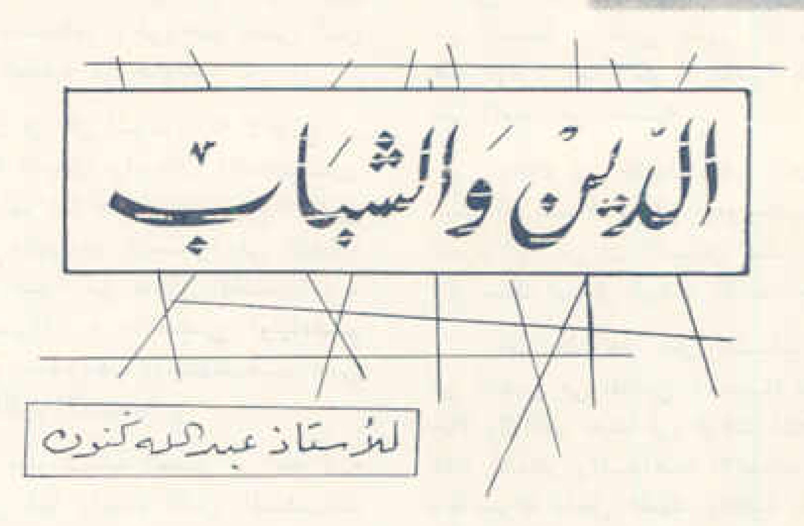
كما أصدرت مديرية التشريفات الملكية البلاغ الآتي :

بالاشارة الى البلاغ الصادر عن وزير الشؤون الادارية الامين العام للحكومة الذى أعلن فيه عن الحدث السعيد وزفت بواسطته الى الشعب المغربي الكريم بشرى ميلاد أمير اشرقت بطلعته جوانب البيت المالك وطرب لميلاده السعيد الشعب المغربي قاطبة فقد فتحت دفاتر ذهبية بمقر التشريفات الملكية والاوسمة بالقصر الملكي بالرباط وبمختلف عمالات المملكة واقاليمها لتسجيل التهاني المرفوعة الى صاحب الجلالة الملك المعظم بهذه المناسبة السعيدة .

وان وزارة عموم الاوقاف والشؤون الاسلامية لتغتنم هذه المناسبة السعيدة لتتقدم الى مقام حضرة صاحب الجلالة والمهابة مولانا الحسن الثاني نصره الله وايده بآيات الولاء والاخلاص وعبارات التهاني والتبريك راجية من الله العلي القدير ان يحفظه بعنايته ، ويكلأه برعايته ، وان يرزق الامير الجليل المولى الرشيد ، وأخاه صاحب السمو الملكي ولي العهد المحبوب سيدي محمد وسائر افراد الاسرة الكريمة عمرا مديدا وعزا وسلاما ورفاهية في ظل والدهم العظيم المجاهد المناضل مولانا الحسن الثاني حفظ الله زمانا اطلعه ..

وهنيئا لصاحب الجلالة مولانا الحسن الثاني بهذا الطالع الميمون الجديد، والامير الثاني السعيد .

دراسات اسلامية



يضع هذا العنوان بين ايدينا مشكلا شائكا وخطيرا ومتشعب النواحي ، بحيث لا يمكن ان يحيط به حديث يلقى في جلسة مهما تطل .

اما كونه شائكا فلان كثيرا من الشباب اصبح قليل المبالاة بالدين ، فاذا حدثته عنه اعتبر حديثك تعريضا به وتدخلا في شؤونه الخاصة ، فاستنكف واستكبر ، واعرض عنك وربما واجهك بما تكره ، هذا ان لم يكن ممن نبذ الدين بالكلية ، وصار يتباهى بالالحاد والا فانه يثور وتقوم قيامته ، ولا تسل حينئذ عن تهجماته العنيفة وتقولاته الشنيعة .

واما كونه خطيرا فلان الامر يتعلق بمستقبل الامة اساسا . ان اكثر من نصف عدد المسلمين يتكون من الشباب ومن النشء الطالع ، فاذا تمادى الحال على ما هو عليه من تقلص ظل الدين بين الشباب ، فاننا بعد جيل او جيلين ، لا نجد في بلاد الاسلام من يقول ربي الله .

واما كونه متشعب النواحي ، فلان استيفاء الكلام فيه يقتضينا ان نتعرض للمراد بالشباب لان هذا اللفظ اصبح مقولة تطلق على من بلغوا طور الشباب حقيقة ، ومن لم يبلغوه بعد من الايفاع ، ومن تجاوزوه من الكهول الذين شارفوا الشيخوخة ، فان الرجل ما دام غير ملتح حليقا انيقا فانه يحشر نفسه في الشباب ويعتبره الناس كذلك . ومعنى هذا ان نزق الشباب صار ملازما للشيوخ ايضا او من في حكمهم .

كذلك يقتضينا استيفاء الكلام في هذا المشكل، ان نتعرض للوضع الديني الذي يوجد عليه هؤلاء الاصناف كلهم ، وللمراد بالدين هنا : هل العقيدة ، او العمل، او هما معا وكل ذلك ممايتشعب فيه القول، ويفضي بنا الى المساس بشعور الجمهور من الناس الذين لا نريد لهم الا الخير ، ولا نفكر الا في صلاح حالهم .

اذن فلنقتصر على ما هو ضروري في الموضوع، وعلى ما هو ايجابي لا تشنيع فيه وهو عرض المشكل وطريقة معالجته . ولنفرض — وهو فرض محتمل جدا — ان مفهوم كل من كلمتي الدين والشباب معلوم لدينا ، ومقرر بالبديهة لا يحتاج الى شرح او بيان فتبقى معنا هذه (الواو) التي الفت بين الكلمتين وجمعتهما في نسق واحد ، لما قلنا الشباب (و) الدين ، فوضع المشكل ، وانطبع في اذهاننا بصوره وابعاده المعروفة فوجب حينئذ صرف الكلام اليها اي الى الموضوع الذي يتكون من المتعاطفين كليهما على الجمع لا على الافراد .

ولعل من اهم ما تجب الاشارة اليه اولا ان مشكل الشباب على العموم ، هو اليوم مشكل عالمي لا يختص بالشباب المسلم ولا يقتصر على موقفه من الدين ، فالثورة التي اضرمها الشباب الفرنسي ربيع سنة 1968 وكادت تطيح بنظام الحكم في فرنسا ، كان لها صدى في جميع انحاء العالم ، وتجاوب معها شباب اكثر من قطر غربي فضلا عن بعض الاقطار الشرقية . والملاحظ ان اتباعها كان

من الاوساط الجامعية والطلاب في المعاهد العليا ، ثم عمت المراهقين من الشباب الذين كانوا يعبرون بضراوة عن تمردهم وسخطهم وخروجهم على كل الاعراف والمواضعات الخلقية والاجتماعية .

ومن المألوف الآن في كل البلاد رؤية الافواج من الشباب الذين اتخذوا التبذل واسدال الشعور والهندام المثير شعارا لهم اما جماعة «الهيبيين» الذين تخطوا هذه المرحلة ، فانهم قد انغمسوا في القذارة الحسية والمعنوية ، واقبلوا على تعاطي المخدرات ، وممارسة انواع الانحراف ، متحدين اولياءهم ومجتمعهم ، ومعبرين بشذوذهم واستهتارهم عن احتقار كل المبادىء والقيم الانسانية .

فنقطة الانطلاق عند شباب العصر في تحركاته وسلوكه هي الرفض كما رأينا لكل المسلمات والتقاليد والآداب العامة التى وجدوا عليها ءاباءهم وبيئاتهم ، والتى هي أساس المدنية الحديثة ، لا للدين فقط كما هو حال غالب شبابنا .

ان الدين عند شباب العصر نزعة عدمية نشا على رفضها مسبقا ، لان اولياءه لم يكونوا يعتبرون الدين شيئا عمليا ، وقد نفضوا ايديهم منه لما كانوا شبابا فمهدوا بذلك لما يقوم به ابناؤهم اليوم من رفض تام لكل ما هو طيب وصالح .

وهذا ما نخشاه على مستقبل شباب الاسلام ، فان الالحاد الذى ينتشر اليوم بين شبابنا سيكون مدرجة لوقوع المجتمع الاسلامي في مآس وانتكاسات الله اعلم بعواقبها . وذلك حينما تنشا النابتة الجديدة في احضان هذا الشباب ولا يكون لها رادع من دين او خلق يحجزها عن التردي في حافرة الجاهلية الاولى .

على ان من الحق ان نعترف ان الشباب كان دائما موضع الملاحظة في كل المجتمعات وعبر العصور ، لاندفاعه مع شرة الفتوة وتحكم الغريزة حتى قال الشاعر :

فان يك عامر قد قال جهلا
فان مطية الجهل الشباب

وعرف الشباب من قديم برقة الدين ، واحتمل ذلك منه علما بانه سوف يراجع بصيرته ويصلح حاله حين يبلغ اشده ويستكمل رجولته . الا ترى الحديث الشريف كيف عد الشاب الذى نشأ في عبادة الله من السبعة ، الذين يظلهم الله بظله ، يوم لا ظل الا ظله (1) . وما ذلك الا لندرة هذا الشاب وخروجه على المعتاد من جنسه .

وجاء في حديث ءاخر : عجب ربك من شاب ليس له صبوة ، (2) وهو حديث يؤكد المعنى الذى اشرنا اليه من ان الشباب يغلب عليه اتباع الهوى ، ولا يسلك سبيل الرشد الا بعد حين .

نعم هذا هو حال الشباب من زمان ، وموقفه من التدين في الماضي ، فلسنا نطمع ان يكون احسن حالا ولا اكثر تدينا في الوقت الحاضر ، وقد هاجمته هذه الافكار والمذاهب الالحادية من كل جهة ، وحاصرته داخل المعهد والكلية باسم العلم والبحث الحر ، وجاءت التقنية الحديثة بعجائبها ومكتشفاتها ، فكانت ضغثا على اباله ، زعزعت عقيدته وغيرت مفاهيمه ، ولم تورثه غير قلق النفس وبلبلة الفكر وخواء الروح .

انها ظاهرة جديدة وغير طبيعية ، فاذا كان ما وصفناه من حاله في السابق ضربة لازب لجموح الهوى به في فورة النضج ، حتى ان الشرع ليعذره في بعض الاحيان فالامر بخلاف ذلك في هذه الظاهرة التى تعتبر مرضا نفسيا وداء اجتماعيا تفشى في اوساط الشباب بالاهمال وعدم العلاج .

نحن اذن امام مسؤولية عظيمة يتحمل كبرها رجال التربية والتعليم الذين يجب ان يخططوا لتكوين الشخصية الاسلامية في ظلال العلم والحضارة. ولا يصح مطلقا ان نلوم الشباب وحده ، ونتحامل عليه لمروقه من الدين قبل ان نقوم بواجبنا نحوه ، فعلينا ان نأخذ الكتاب بقوة قبل ان يفلت الزمام من يدنا .

ان الاسلام هو الذى كيف الحضارة بالجمع بين العلم والدين لاول مرة في التاريخ وبفضله بقي الاعتقاد بوجود الاله حتى في المجتمعات غير الاسلامية ، ولنذكر ما فعله ابن رشد في التوفيق بين الحكمة والشريعة ، واثر ذلك في موسى بن ميمون ثم في توماس الاكويني، فكيف يجوز ان يتعرض شباب الاسلام لهذه الهزات النفسية ، ويصيبه من ظمأ الروح ما يجعله ينغمر في الحياة المادية الصرف

(1) الحديث مروى في الصحيحين وغيرهما .
(2) اخرجه احمد وابو يعلى واسناده حسن قاله ابن الديبع .

وقد طب له فلاسفته ومفكروه قديما بما حفظ عليه ايمانه وبقيته مات السنين ..

فالتقصير منا لا محالة، والنتيجة ستكون اسوا كلما تباطأنا في درء الخطر واستئصال الداء قبل استفحاله .

لقد بقيت الفلسفة الاسلامية الى وقت قريب تدرس في معاهدنا بجنب الفلسفة القديمة ، منذ ان غزت هذه الاخيرة عالم الاسلام في حركة النقل والترجمة التي قامت في القرن الثاني الهجري . وكان ان تصدى لها علماؤنا بالرد على ما فيها من زيغ والحاد ، وابلوا في ذلك البلاء الحسن ، حتى ان منهم من سمى كتابا له في نقد بعض المذاهب الباطلة، بهذا الاسم المثير « اجتماع الجيوش الاسلامية على غزو المعطلة والجهمية » (3) فالقوم كانوا جادين في حماية عقيدتهم ، وقد عملوا على سد جميع منافذ الشك والحيرة التي احدثها تدارس الفلسفة القديمة في نفوس ابنائهم ، بوضع فلسفة اسلامية معادلة ، هي ما يسمى بعلم الكلام وعلم التوحيد ، مع علم الاخلاق المسمى بالتصوف .

ولئن حدث هذا والفلسفة ضيقة المذاهب محدودة المطالب فبالاحرى ان يحدث ما هو اعظم منه؛ وقد اتسعت المذاهب الفلسفية اتساعا عظيما ، ووجدت مذاهب فكرية جديدة اكثرها ذو نزعة مادية خالصة ، الا اننا ــ ويا للاسف ــ لم نفعل شيئا في هذا الصدد ، والمعاهد والكليات العلمية الحديثة التي انتشرت في بلادنا انتشارا كبيرا تلقن ابناءنا نظريات واراء في الوجود وطبيعة الكون وفلسفة الحياة ، جعلت فريقا منه يؤله العلم وفريقا اخر لا يؤمن بشيء .

واضعفت ايمانهم بالمثل والاخلاق الاسلامية فصاروا يسخرون منها ، وفي احسن الاحوال ينتقدونها ويسمونها رجعية وتخلفا وعدم تفتح على الحياة .

والانصاف يحملنا على القول ان الدعاة المصلحين لم يدخروا وسعا في مواجهة هذه التحديات ، ونقض جميع المطاعن التي توجه لعقيدة الاسلام وشريعته ومثله العليا ، بحيث يتألف مما كتبوه في ذلك رصيد حافل ، يثري الفكر الاسلامي الحديث، ويجعله في وضعية قوية ، قادرا على الاخذ والعطاء ، مستعصيا على الانتكاس والارتكاس . لكننا رسميا ما زلنا لم ندخل الاسلام ودراسته كفلسفة ودستور ومنهاج للحياة في برامجنا التعليمية ، وما زلنا ندفع بابنائنا الى المدارس الاجنبية ونجلسهم بين ايدي معلمين غير مسلمين ، لا يؤتمنون على عقيدة غير عقيدتهم ان كانوا من المعتقدين ، فكيف اذا كانوا وهو الغالب من الملحدين ، هذا من غير ان نسلحهم بسلاح التربية الدينية ، ونلقنهم اصول العقيدة الاسلامية ، وتاريخ العقيدة الاسلامية ، وتاريخ سلفهم العريق في العلم والحضارة ، فلا جرم اننا نجني عليهم جناية كبرى ونهيئهم للانحراف الذي نشكو منه الآن .

هذا في التعليم العمومي ، وهو الذي يستوعب الملايين من التلاميذ والطلاب وفي التعليم الديني على قلة رواده وتناقص عددهم يوما بعد يوم ، نجد السياسة المتبعة فيه ، هي حشد المسائل والمعلومات التي يضيق بها الذهن وتقصر عنها المدارك ، وذلك منذ المرحلة الاولى ، فالصبي الذي لا زال لم يبلغ الحلم يلقن احكام الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج بكل تفصيل، وكأنه سيصير من يومه اماما في المسجد او مفتيا في البلد ، فمن نواقض الوضوء التي تنيف على الستة عشر كالبول والريح والسلس والمذي واللمس والتقبيل وغير ذلك الى احكام السهو التي قل ان يضبطها المتفقهون الماهرون ، الى النصاب في الزكاة والاصناف المزكاة والتاجر المدير والتاجر المحتكر وزكاة الدين وما الى ذلك مما يسبب لكثير من صغارنا نفورا من هذا الذي نحسب انه هو الدين كله في الوقت الذي يجب ان نحبب اليهم الايمان ونزينه في قلوبهم ، وننمي شعورهم الديني باطلاعهم على محاسن الاسلام وخصاله الحميدة ، مكتفين في احكام العبادة بالضروري الذي تصح به الصلاة ، كما كان النبي (ص) يكتفي من الكافر حين يسلم بتعليمه كيفية الصلاة واعلامه ببقية قواعد الاسلام من غير تفصيل ، والحال ان هذا مكلف بالغ قريب العهد بالجاهلية ، وليس صغارنا كذلك .

واما الطلبة في هذا التعليم ، فان ما يفرض عليهم تحصيله من علوم وفنون واصول وفروع يكاد يفوق الحصر . **ناهيكم ان كتابا واحدا مما يدرسونه في الفقه يحوي بقولهم مائة الف مسالة منطوقا ، ومثلها مفهوما ، وهو مع ذلك يسمى مختصرا** (4) لكن

(3) الكتاب لشيخ الاسلام ابن تيمية

(4) هو مختصر الشيخ خليل بن اسحق الجندي المصري المشهور في المذهب المالكي .

الذى لا يدرسونه هو روح الاسلام ورسالته العامة للبشر وما اتى به من اصلاح سياسي واجتماعي . وما ننتظر ان يقوم به من دور فى انقاذ البشرية مما تتخبط فيه من ظلم وظلام . ولذلك فان خريجي هذا التعليم هم انفسهم لا يؤمنون به ؛ وقل بينهم من يقوم بعمل نافع الا اذا كان ممن كون نفسه واتم تحصيله بمحض ارادته واجتهاده .

هذا موقف يجب ان نتدبره ونفكر فيه جيدا ، متذكرين كلمة حكيمة للامام مالك يقول فيها « لن يصلح ءاخر هذه الامة الا بما صلح به اولها » وهى كلمة مر عليها اثنا عشر قرنا وما يزال معناها صحيحا. فاذا اردنا الخير لابنائنا واذا اردنا ان نطمئن على مستقبل الاسلام ، واذا اردنا ان ننقذ شبابنا من الحيرة والضلال . فلنجعل مادة الاسلام بالمعنى الذى ذكرناه ، مادة اساسية فى جميع برامجنا التعليمية من الابتدائي الى العالي ، ولنقلع عن تقليد الغرب فى اللائكية والعلمانية وعبادة المادة ، ولنجعل حدا لترضي الاقليات الدينية التى طالما سارعنا فى هواها حتى اصبح لها علينا شبه وصاية لا نعمل الا بمقتضاها.

ومع ذلك فالامر بالنسبة الى اغلبية الشباب الذين قطعوا مراحل التعليم الاولى فى المدارس العمومية التى ليس بها تعليم ديني ، سيكون عملية انقاذ ليس الا ، ونتيجتها لن تكون مرضية اطلاقا ، فالمثل يقول « شب عمرو عن الطوق » وكذلك الشاب الذى كون لنفسه رايا واصبح يعتد بشخصيته ولم يبق خاضعا للتوجيه حتى من اسرته ، يصعب اقناعه ، وقلما يجدي الحوار معه ، فاحرى الزامه والتاثير عليه .

ومن ثم فان الخطة العملية والتى ينتظر ان يكون لها نتيجة ايجابية فى توجيه شبابنا توجيها اسلاميا صحيحا ، هي التى تبدا من الفصول الاولى فى التعليم الابتدائي ، وتتدرج من البسيط الى المركب ، ومن التلقين والايحاء الى التثقيف وحل المشاكل ، فى المراحل التعليمية التالية ، حتى ينشا الشاب على هدى وبصيرة من امر دينه ، وفى مناعة من التيارات الفكرية المضادة التى تهب عليه من هنا وهناك .

واذكر للاعتبار فقط ، انني كنت فى اسبانيا ذات مرة ، وصادف وجودي فى غرناطة يوم الاثنين . وهو يوم تعطل فيه الصحافة الاسبانية ، ولا يصدر فيه الا جريدة واحدة تسمى صحيفة الاثنين ، فاخذت هذه الصحيفة لانظر فيها انباء اليوم ، فاذا بداخلها ملحق صغير للاطفال ، يكاد يستغرق كله مقال رئيسي بعنوان (محمد النبي المزيف) وقد كتب بلغة بسيطة جدا ، ولكنها مليئة بالهزء والسخرية ، وبني على فكرة اقتباس القرءان من التوراة والانجيل اقتباسا مشوها ، لان صاحبه كما يقول المقال ، كان اميا لا يعرف كتابة ولا قراءة ، وانما تلقف ما ضمنه فى كتابه من افواه اليهود الذين كانوا يسكنون جزيرة العرب ، وبعض الرهبان الذين لقيهم اثناء رحلته الى الشام .

وهكذا يعمل المسيحيون على تنشئة ابنائهم منذ الصغر على عقيدتهم ، وترابط اسبانيا الكاثوليكية فى حصن غرناطة مطاردة الاسلام حتى فى نشرات الاطفال ، بعد ان اجلت اتباعه عن هذا الحصن بعدة قرون .

وصدق رسول الله (ص) حين قال « كل مولود يولد على الفطرة ، فابواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه » (5) .

واذا كان ما ذكرته لحد الآن انما يتعلق برجال التربية والتعليم ، والمشرفين على وضع البرامج والمناهج فى وزاراتنا المختصة، فليس معنى ذلك انهم المسؤولون وحدهم عن جنوح الشباب وضعف شعوره الديني ، فان على رجال السلطة من المسؤولية فى ذلك قسطا واقرا اذا لم يقوموا به ، ذهبت جميع جهود المربين والمعلمين سدى وقديما قيل « لما يزع الله بالسلطان اكثر مما يزع بالقرءان »

وقد اشرت فيما مضى الى ما للاقليات الدينية فى بعض البلاد الاسلامية من التاثير فى هذا المجال ، واحب ان اوضح هذه النقطة التى اصاب العالم الاسلامي منها خطر كبير . ذلك ان هذه الاقليات وان كانت تتمتع بجميع الحقوق وبما ليس لاقلية اخرى فى اي بلد غير اسلامي من الاعتبار ، فانها لم تقتنع الا بالهيمنة على اجهزة الحكم والقوانين الدستورية ، وبذلك سيطرت سيطرة تامة على الدول التى تنتمي اليها ، ناهيكم بان بعض هذه الدول كان فى دستورها ان دين الدولة هو الاسلام، فحذفت هذا البند من

(5) الحديث رواه الترمذي وغيره .

الدستور ترضيا للاقلية المتحكمة ، وهو امر لا نظير له في انصياع الاكثرية لحكم الاقلية . ولا نذكر هنا الاقليات الاسلامية المهمة في الهند والصين والاتحاد السوفياتي ، وانما نذكر الاقلية الكاثوليكية في المملكة المتحدة البريطانية ، وهي اقلية تبلغ بضعة ملايين ، فهل دار بخلدها قط ان تتحكم في الاكثرية البروتستانية ، مثل هذا التحكم ، وتعارض مثلا الملك او الملكة في القسم الذي يؤديانه على حماية الكنيسة الانجيلية والاخلاص لها عند ارتقائها العرش. وليقل في الاقليات المماثلة بالمانيا وهولاندا وسويسرا وغيرها ما قيل في الاقلية البريطانية .

ان اسراف السياسيين عندنا في ترضي الاقليات الدينية جاوز الحدود حتى ادى الى التنازل عن حق الاكثرية في حماية دينها والتظاهر به ، بل ادى الى تعطيل احكامه بالمرة ، فان عدم النص على ان دين الدولة هو الاسلام ، استتبع طبقا لمبدا دستورية القوانين، عدم استمداد القوانين المدنية والجنائية من احكام الشريعة الاسلامية ، وبذلك اصبحت الاحكام الشرعية معطلة ، والمسلمون يحكمون بالقوانين الاجنبية وذلك منتهى الظلم ، فانك لو حكمت فرنسا مثلا بقانون ايطاليا أو العكس لكنت تظلمهما على ما بينهما من التقارب والتشابه ، فكيف ببلاد الاسلام التى تقع في الشرق وتدين بدين غير دين الغرب ، واحوالها الاجتماعية والاقتصادية غير احواله .

ولقد وجد هذا الوضع حكم التقليد حتى في البلاد الاسلامية التى ليس فيها اقلية دينية اخرى ، فانعدم فيها ايضا وازع الشرع ، وصار التظاهر بمخالفة الاحكام الشرعية يقع فيها كما يقع في البلاد ذات الاقليات الدينية غير الاسلامية التى يلتبس فيها المسلم بغيره .

ولا يخفى تاثير هذا الوضع السيىء على اخلاق الشباب والمجتمع بعامة ، فان البيئات التى يكون الحكم اجنبيا عنها تتفكك بسرعة، وقد لوحظ فعلا ان ما حل بكيان المجتمع الاسلامي ، من تضعضع وانهيار في مدة اربعين سنة فقط ، اي فيما بعد الحرب العالمية الاولى ، لم يسبق له نظير ولم يكن يتوقعه احد ، وذلك من جراء تمركز الحكم الاجنبي في البلاد الاسلامية ، في هذه المدة ، فقد تبدد نظام الاسرة الذى كان محاطا بهالة من التقديس ، وخرجت المراة المصونة الى الشارع كاشفة عن محاسنها ، متحدية تعاليم القرءان في عدم ابراز زينتها للاجانب، واصبح تعاطي الخمر والاتجار فيها شيئا عاديا ، وفتحت المواخير المتنوعة ، والمراقص العامة واندية القمار برخصة من الدولة ، وهكذا انقلب المجتمع الاسلامي الذى كان مثالا في التمسك بالفضيلة ومجافاة الرذيلة الى بؤرة من بؤر البغي والفساد ، وذلك بين عشية وضحاها والسر هو ان القوانين التى اصبحت سائدة فيه ، لا تعاقب على هذه الموبقات ، وليس فيها نص على استنكارها وان كانت من اكبر المنكرات في شريعة الاسلام .

اننا لا يمكن ان نصلح ما بنا ونعود بشبابنا الى سلوك الجادة الا بالرجوع الى شريعتنا الغراء ، نستفتيها ونستطب بها لمجتمعنا ، وليس ذلك بالامر العسير اذا صممنا عزمنا واجمعنا امرنا ، وانتزعنا قيادتنا من يد الثلة التى لا تالونا خبالا ، ولن ترضى عنا حتى نتبع ملتها .

هذه واحدة ، واخرى ليست اقل منها خطرا ، وان كنت لا احمل مسؤوليتها احدا ، فقد كنا جميعا زمن التحجير والضغط على الافكار، نطالب بها ونراها وسيلة الخلاص الا اننا على العادة اسرفنا فيها ، وفتحنا ابوابها على المصاريع ، ولاسيما فيما يتعلق بامر الدين والاخلاق ، وسائر مقوماتنا الروحية والمعنوية ، وتلك هي هذه الحريات العامة والقانون الذى يضبطها زعما ، والحقيقة انه يطلقها من كل الضوابط العرفية والاجتماعية التى كانت تقيدها فيما قبل .

فبمقتضى هذا القانون اصبحت حرية العقيدة وحرية التعبير عن الراي مكفولتين لكل الافراد ، وتعني الحرية الاولى حق الفرد في ان يعتنق ما شاء من المبادىء والعقائد ، دون تدخل من السلطة ، وهذا امر مخالف لحكم الاسلام فيمن بدل دينه من المسلمين . فالشرع الاسلامي ان كان قرر حرية الاعتقاد والتعبد للملل المنضوية تحت لواء الحكومة الاسلامية ، فانه منع ردة المسلم منعا باتا ووضع لها حكما يتضمن عقابا صارما لمرتكبها. فكيف نطلق نحن هذه الحرية ونشجع المتحرفين والمذبذبين والمدسوسين على التلاعب بالدين الذى يجب ان نحميه ولا نعرضه لما يجعله لا حرمة له ولا قيمة .

ثم ان هذه الحرية تفتح الباب للدعاة المسيحيين المسمين بالمبشرين ، الذين يستهوون العوام بالوسائل المختلفة من تمريض واحسان وغيرهما ، وقد يستدرجون الشباب بوسيلة التثقيف وتعليم اللغات

وتنظيم رحلات الى الخارج ، فيصبح الشخص مومنا ويمسى كافرا كما اخبــر بذلك الرســـول (ص) فى حديثه الشريف (6) ويغزى الاسلام فى عقر داره ، والمباشرون لهذا الغزو فى حل من المتابعــة ، لانهــم يعملون حسب قانون الدولة وهذا بغض النظـر عن النتائج السياسية التى تترتب على استفحال حركـة التبشير ، كما نشاهده الآن فـى بعـض الاقطـــار الافريقية بالخصوص .

واما الحرية الثانية فتعني حـق الافـراد فى التعبير عن ءارائهم وابداء مشاعرهـم دون تقييــد سابق ولا تدخل من السلطة . وهي تشتمل حريـة الكلام والكتابة والنشر وما يقوم مقامـها فى النقـل والاداء ، وقد دخـل على المجتمع الاسلامي من هــذه الحرية مفاسد كثيرة لانها خولت لكل من هب ودب ان يقول ويفعل ما شاء .

فالصحافة تنشر لطائفة من الكتاب مقالات فى نقد العوائد والاخلاق الاسلامية وتنتقد حتى العقائد والمقدسات بحجة حرية الراي ، والكتب تصدر فى الطعن على الاسلام وتاريخه وشخصياته الكبيرة ولا من رقيب عليها او حسيب ، بل ان بعض هذه الكتب تقرر فى المناهج الدراسية ، فقد اختيرت كتب بعض الكتاب المسيحيين المصريين فى احد البلدان الاسلامية ليقراها طلبة الاقسام الثانوية بدعـوى انه قطب مـن اقطاب الفكر الحر ، وكذلك يعتبرونه فى مصر ، مع انه كان كلما كتب مقالا ينال فيه من الدين والمقدسات، كتب مقالا ضده على خط مستقيم فى مجلة المنـارة المسيحية التى تصدرها الكنيسة القبطية فى مصر ، ولم يوجد من يفضحه ويعريه للناس حتـى يعرفـوا قيمته الحقيقية ونفاقه الذى يعتبره المغفلون حريـة فكــر .

وما قيل فى الصحافة والكتـاب ، يقـال فى السينما والاذاعة والتلفزة ، فقد صـارت مناظـر العرى والمغازلة والتخنث مما يعرض على الجمهـور دون خجل ولا حياء والانعكاسات التى تكـون لهـذه المناظر على نفوس الشباب والمراهقين، فتيانا وفتيات، وعلى عموم افراد الاسرة ، مما لا يجهـل مفعولهــا احـد .

كل ذلك واكثر منه يرتكب باسم حرية الراي التى يحميها القانون فكيف نطمع ان يكون للدين شان، وان ينشا شبابنا على شيء من التدين فى هذا الوسط الذى يطارد الدين وفضائله باسم القانون .

وكاني بمعترض يقـول : انك تطعـن فى قانـــون الحريات العامة ، فهل تريد ان تلغيه وترجع الى ما سميته بزمن الحجر والضغط على الافكار . وانا انما اريد المحافظة على دين الامة واخلاق الشباب ، وبناء المجتمع الاسلامي الذى تسود فيه الفضيلة ، ويخضع لقانون الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذى به كنا به خير امة اخرجت للناس ، وبذلك نؤدي رسالـة الاسلام التى طوقنا بها فى قوله عز وجل (وكذلـك جعلناكم امة وسطا ، لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) وهي الرقابة الخلقية علـى الضمير العالمي والقوامة الروحية على المجتمع الانساني لتبقى القيم والمثل بمنجاة من التزييف والابتذال .

فان كان قانون الحريات العامة او اي قانـون ءاخر مما يتوافق مع هذه الاغراض النبيلة ، فبـهـا ونعمت ، والا فليلغ ولا كرامة ، فقد الفته فى غيــر ما بلد اكثر من حكومـة تنعـت نفسهـا بالشعبيـة والتقدمية وما الى ذلك او عطلته ، وما كان الذي الفته من اجله او عطلته بافضل مما ذكرنا ، وانما هـو المـاس بسياستها او بمتسلط من ذوي الشان فيها (ولذكر الله اكبر والله يعلم ما تصنعون) .

طنجة ـ عبد الله كنون

---

(6) الحديث اخرجه مسلم والترمذي

وَاعتصموا بحبل الله جميعاً.. ولا تفرقوا

للعميد الرحالي الفاروقي

من الجلي الواضح ان امة الاسلام في حقيقة امرها امة واحدة في اولها وءاخرها ، قائمة على الحق باعتبار مجموعها ، وقوية بايمانها وطبيعة دينها، وان المسلمين شرع سواء لا يتميزون عن بعضهم بعضا الا بما اكتسبوه من علم وفضل ، وبما قدموه من خير ونفع « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » والتقوى هي العمل الصالح القائم على الايمان بالله ، والطاعة لرسول الله ، ولقد اسبغ الله نعمته على المسلمين بالاسلام ، واكمل دينه بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فعظم بمكانه جانب الحق ، ورفع بنظامه مستوى الخلق حتى بلغ بالانسان درجة التطور والاختيار ، وحركة التقدم والازدهار ، ولم يكن ذلك مفاجاة ولا مصادفة ، بل جاء نتيجة تنشئة الناس على الخلق الفاضل والادب الكامل ، وتربيتهم على دين الفطرة الواضح، وممارسة شؤون العمل الصالح، واعتبار الظروف والملابسات ، واكتشاف الاحوال والطاقات ، وانماء شجرة الايمان في القلوب ، واحياء الموات بكل قوة وبكل اسلوب ، حتى يكون العمل الاجتماعي ناشئا عن قصد واخلاص ، وناتجا عن معرفة واختصاص ، وتلك هي التربية التي يمكن بواسطتها ان شاء الله كسب الحمد والمجد، وحسم مادة الشرور والغرور ، التي تفشت في حياة المسلمين ، واصبحت حجة على الاسلام في نظر الملاحظين ، الذين ينكبون على دراسة احوالنا واعمالنا وفي قلوبهم مرض ، والذين يصدرون احكامهم علينا وفي نفوسهم غرض.

وغير خاف ان حياة الاسلام تقوم على الايمان بالله ايمانا صادقا ، والجهاد في سبيل الله جهادا ناطقا ، وتدور على قاعدة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ــ وغاية الايمان بالله شعور الانسان بعزته وكرامته ــ وبحريته واستقلال فكره ، فلا يخاف اي مخيف ، ولا يخضع لاي مخضع وانما يخاف سطوة الله ، ويخضع لامر الله ، والفرض من الجهاد دفع عداء غلو الطبيعة ، واقناعها بضرورة احترام الحق والحقيقة ، وهدف الامر بالمعروف والنهي عن المنكر سلامة المجتمع من كل ءافة تعرضه للخطر في حاله او في مآله، وتهدئة افكاره ، وتنمية انظاره لاستكشاف طرق النهضة في حياته .

ومن البداهة انه لا يقوم بناء تام الاركان صحيح الجوانب الا على اساس متين من الايمان والتقوى « افمن اسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير امن اسس بنيانه على شفا جرف هار » فالايمان والتوحيد ، والتقوى والاستقامة ، والعدل والمعرفة ، والوحدة والاجتماع ، والصدق والاخلاص، هي مكارم الاخلاق ، وهي فضائل الدين ومحامده ، وعليها تترتب ، وبها تتحرك كل حياة في مادة الاشياء ، فلا دين بغير هذه المعاني ، ولا نهوض بدون علم ، ولا حياة بدون عدل ، ولا قوة بدون اجتماع ، فاذا كنا ننشد الوحدة لانها قوة الانسان في الحياة ، فاننا لا ننشدها من طريقها ، ولا نطلبها من موضعها ، ولذلك ستظل املا ضائعا ، وحلما باطلا ، اللهم الا اذا استندت الى نظام الاسلام الصحيح

ونبتت جذورها من اصل التربية التى بثها الاسلام فى نفوس اصحابه ، وقررها بواقع حياته ، وكيف تتحقق وحدة المسلمين ونحن منحرفون عن جادة الاسلام ، ناكبون عن صراطه المستقيم ، وكل منا ينظر بمرءاة خاصة الى جهة من الجهات ، يستمد منها العزة والقوة ، ويستوحي برامج الحياة والنظام ، وكيف نترجاها ولا نستطيع ان نؤدي معناها فى نفوسنا ، ولا ان نرسم الخطوط لها فى حياتنا ، وكيف نراها قريبة منا ولغة القرءان تستغيث ، ومعالم الحق تختفي ، وصور المكارم تنمحي ، فاين هي مقومات الوحدة ؟ واين هو الوجود الصحيح لاصحاب هذه الدعوة ؟ فلقد قسونا على تراثنا ، ولبسنا جلدا غير جلدنا ، واستبدلنا الذى هو ادنى بالذى هو خير .

ونقول فى صراحة ونصاحة : ان العلماء والزعماء قد عجزوا ان يمهدوا السبيل فى هذا العصر الى غيرهم من عوام الناس ، وقد ضعفوا ان يمثلوا الاسلام على وجهه فى حياتهم فلم يستطيعوا مقاومة التيارات الخارجية ، والاعتبارات الاجنبية بالوسائل الايجابية المقنعة ، ولم يقدروا ان يقرروا للناس الاخلاق بقانون حياتهم ، وان يظهروا لهم المعاني باسلوب عملهم ، وقد غلب هذا الدين ايام كان رجاله قوامين على حياته ، وقد اثر هذا الدين حينما كان الناس يتمتعون بروحانيته ــ وبدون هذه القوة السارية فى الحياة ــ سريان الماء فى الطبيعة ــ لا تتاثر النفوس بالاقوال المجردة ، ولا تتحول عن قانون المادة .

فجهل المسلمين بحقائق دينهم ومقاصد شريعتهم اولا . وتاخر العلماء عن البيان والهداية وجمودهم ثانيا . وتبرم القادة والزعماء عن سياسة القصد والرشد ثالثا . وسيرة الاستعمار المنكرة فى بلدان الاسلام رابعا . كل ذلك سبب الوقوع فى هاوية الفرقة والوحشة ، وخيب امل الاسلام فى اهله وذويه .

ان هيبة المسلمين ووحدتهم منوطة بالعودة الى الاسلام الصحيح والتسلح باخلاقه ، والتمشي على صراطه ، ولا شك ان فيه من الامكانيات والمعطيات ما يرسم المقاييس الصحيحة ويحقق المعجزات . فاما الدين فهو اساس الخلق الاجتماعي فى الامة ، يخلق قانون الضمير ، ويشيد محكمة العدل فى كل انسان، ويحقق فضائل الحياة ، ووسائل السعادة ، ويضع القلوب موضعا واحدا على اختلاف مظاهر اصحابها ومنابت اشجارها، ويلعن قانون الالحاد والاستعباد ، ويطلب العمل من كل فرد بقوة ونشاط ، ويفرض استقامة النفوس على طاعة الحق والقانون ، وبدون هذه الطاعة لا يستقيم امر ، ولا يستقر نظام ، وكلما ضعفت هذه الصبغة فى الدولة اختل نظامها ، واضطرب حبلها ، وكفر بعضها ببعض .

واما اللغة فهي حياة الامة وصورتها الناطقة من قبل ومن بعد تتوحد بها صور تفكيرها واساليب حياتها . واذا ما ضاعت اللغة انقطعت الصلة بالماضي الجميل، وتعذرت الوسيلة الى استيحاء تاريخ الاباء والاجداد ، واذا كان الشعب لا يكبر شان لغته ، ولا يقيم وزنا للسانه فلا ينتظر منه ان يقوم بدور السيادة ، ولا ان يسهر على عناصر العزة والكرامة ، ومن السهل احتلال عقله ، واستغلال ارضه ، فيؤدي ذلك الى انقلاب فى الاخلاق ، وتغيير فى السلوك ، وتبدل فى الاتجاه ، وبذلك تصبح القومية صورية لا حقيقة لها ، والحياة وهمية لا اهمية لها .

فالصور الحقيقية للوحدة لا تاتي الا من قوم اخلصوا لعقيدتهم ، وءامنوا بوجودهم ، واعتمدوا على جهودهم ، وحكموا بعدل الاسلام فى محاكمهم ، وردوا اللغات ما امكن الى لغتهم واخذوا العلوم ما استطاعوا بلسانهم ، فان المعارف لا تمضغ ولا تهضم الا باللسان الطبيعي ، ولذلك قال الله تعالى : « وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » فالبيان لا يكون الا بلسان القوم ، ومن ثم قدم اسلافنا رحمهم الله على ترجمة علوم اليونان وغيرها الى لغتهم، فتمكنوا منها ، وتاتي لهم بذلك ان يكتشفوا، وان يخترعوا ، فهؤلاء هم الذين تظللهم راية الوحدة ، وتربطهم روابط النسب ، وتهيمن على مظاهر حياتهم ساطة الروح ، وقوة الايمان، ومما زاد فى بعد الشقة وطول المسافة بين المسلمين وجود المشاغبات والمنازعات بين الفرق الاسلامية والمذهبية ، مع انه لا داعي الى ذلك ما دام الكل يعتصم بكتاب الله عز وجل ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويجتهد فى اخذ جملة الاحكام منهما . والمجتهد ماجور اصاب او اخطا، ومن شان هذا التنازع ان يزيد فى اضعاف قوة المسلمين، وان يساعد عليهم اعداءهم واضدادهم ونحن فى امس الحاجة الى شد اواخي الاخاء ، والى الجمعة والوحدة بدلا من الفتنة والنفرة التى قد تفضي بنا الى مزيد من القلاقل وكثير من المشاكل ، وقد حذرنا الله سبحانه من ذلك بقوله : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا »

مراكش ــ الرحالي الفاروق

هذا بلاغ للناس :

لكيلا تضل المقاييس !!

للدكتورة بنت الشاطىء

« ما تزال الدكتورة عائشة عبد الرحمن ـ بنت الشاطىء ـ تخوض معركتها الباسلة دفاعا عن حرمة القران وكرامة العقل وشرف العلم ، ورفضا لبدعة «التفسير العصري» من غير ذوي الدراية بعلوم القران واسرار بيانه » .

« ليس كل من احب ان يجلس الحديث والفتيا جلس ، حتى يشاور فيه أهل الصلاح والفضل والجهة فان رأوه لذلك أهلا ، جلس .
« وما جلست حتى شهد لي سبعون شيخا من اهل العلم انى موضع لذلك . »

« مالك بن أنس »

كتبت مقالي عن « القرءان الكريم ، بين الفهم والتفسير » ، وانا اتوقع سلفا ما قد اتعرض له من اتهام بالرجعية والجمود ، وهي التهمة التى اتقاها من تجنبوا التصدي لاي تفسير عصري ، يجور على حرمة القرءان بتأويلات مقحمة عليه ، نصا وسياقا ، وفهمه باسرائيليات تضاف الى الرصيد المشؤوم لمدسوسات اليهود فى الفهم الاسلامي لكتاب دينه . .

وان لم يبلغ بي هذا التوقع ، ان يظن بي « الاحتراف والاحتكار » ، لمجرد انني ميزت الحدود الفاصلة بين الفهم المباح لكل الناس ، وبين حرمة للتفسير لا تبيحه لمن شاء من العصريين ، دون دراية بعلوم القرءان ، ومعرفة بقراءاته ، وفقه لدلالات الفاظه ، وتوجيه سياقه ، واسرار بيانه .

ولكني توقعت ، من ناحية اخرى ، ان تمس كلماتي ضمائر من يؤمنون بكرامة العلم وحرمة القرءان ، ويرفضون ان يأخذوا العلم ، اي علم ، ممن لا يعلم ، فضلا عن أن يأخذوا تفسير القرءان ممن يخوضون فى ءايات الله بغير علم ، قائلين ان القرءان يفسره كل الناس ، والله تعالى يقول :

« ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » .

واشهد ، لقد تلقيت من رسائل التأييد مما لا اذكر انني تلقيت مثله على طول عهدي بالكتابة .

ولولا انني ءاخذ بمبدأ «القضايا، لا الاشخاص» لسرني ان اذكر هنا اسماء الذين تفضلوا فكتبوا الي .

ومع اعتزازي بحسن رأيهم في ، وتقديري لموقفهم معي ، اقول بكل اليقين والاصرار :

انني لو بقيت وحدي فى مواجهة هذا التيار الجائح ، الذى يهدر ما للتخصص من قيمة وحرمة، ويستبيح الخوض فى كلمات الله بغير علم ولا هدى.

اقول : لو انني بقيت وحدي ، لما تخاذلت او تراجعت .

وقد اعلم ان العربية لغة الملايين منا ، ونعرف مع ذلك علماء يتخصصون فى مختلف علومها وادق نصوصها : البيانية والفقهية والقانونية والفلسفية . .

دون ان يجحد عصرنا هذا التخصص الدقيق باسم الحرية ، او يتحداهم بشعار « اللغة للجميع ، فليسقط الاحتكار » .

ودون ان تتبذهم حياتنا ، فلا ترى فيهم غير « عمامة محترف، مشغول بحماية مستقبله الشخصي، واختصاصاته الرسمية ، التى يأكل منها خبزه » !

— ◆ —

ولعل اخطر ما تتعرض له الحرية ، هو ان نحجر على حق متخصص فى ان يقول : لا ..

حين يفرض عليه ضميره وامانته ان يقول : لا!

كما ان اخطر ما يزيف العصرية ، ان تطارد وصمة الجمود ، من يرفض مطلق الاباحة لاقدس الحرمات ...

ويهون علي ، مع ذلك ، ان احتمل اي اذى بالقول او بالفعل ، الا ان اخون امانتي واكتم الشهادة بما أؤمن انه حق ، فابوء باللعنة الكبرى من اثم القلب .

وانا اتلو من كلمات ربي :

«ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه ءاثم قلبه»

— ◆ —

واستانف القول فى قضية التفسير واباحته، فاتناول منها فى مقال اليوم شبهة خطيرة ، ضلت فيها المقاييس ، واختلت الموازين .

فلقد تصدى استاذ جامعي للفلسفة — وتعنيني القضايا لا الاشخاص — للدفاع عن اباحة الاجتهاد فى تفسير القرءان لاي مفكر عصري ، دون دراسة او مؤهل . فقال ما نصه :

« فرايي ان القرءان لم ينزل للمتخصصين . وانما نزل للعالمين . وان ابن عباس ، وهو حجة التفسير فى زمانه ، لم يدرس الدين فى معهد ، ولم يكن يملك من المؤهلات ، الا الفطرة السليمة » .

وشعرت بأسى عميق :

القضية التى نحن بصددها ، تتعلق بتفسير القرءان ، فكيف ساغ الخلط بينه وبين نزول القرءان للعالمين ؟

و « ابن عباس » ، الذى يحتج به لاباحة التفسير للعصريين ، دون دراسة او مؤهل ، هو ابن عم المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وصاحبه ، واحد كتاب الوحي !

فهل صحيح انه لم يدرس الدين فى معهد ، ولم يكن يحمل من المؤهلات ، للتفسير ، الا الفطرة السليمة .

الذى اعلمه انه درس الدين الاسلامي فى «مدرسة النبوة» ، وكان نبي الاسلام نفسه ، هو معلمه فى هذه المدرسة !

وكان يملك مؤهل الصحبة للمصطفى المبعوث برسالة الاسلام !

ويملك معها اهلية كتابة الوحي ، ونقاء عربيته ، واصالة فصاحته !

فلم يكن بحيث يفوته العلم بالقرءان ، او تغيب عنه اسرار لغته وبيانه ، فيخلط بين الدلالات الاصلية والمجازية ، ويفهم كلمات الله مبتورة من سياقها ، ويلويها ليا ، لكي تطابق نصوصا محرفة من الاسرائيليات !

وكذلك كان السابقون الاولون من الصحابة رضي الله عنهم :

تلقوا القرءان مباشرة ، من المصطفى ، الذى تلقاه وحيا ، معجزة نبوته وكتاب رسالته .

ودرسوا الدين فى مدرسة النبوة ، والتحقوا باول معهد اسلامي عرفه التاريخ : المسجد النبوي فى دار الهجرة !

وبصحبتهم للمصطفى ، كانوا المرجع الاول بعده، عليه الصلاة والسلام ، فى قراءة القرءان وترتيبه وسائر علومه ، كما تلقوها مباشرة ، عن مبلغ هذا القرءان !

وبالدروس النبوية التى تعلموها من المصطفى ، وحضروها فى مسجد المدينة، كانوا المراجع الاصلية للسنة النبوية من قول وعمل وتقرير .

والسنة هي المصدر الثاني لشريعة الاسلام بعد القرءان .

وباصالتهم فى الفصحى ، وعراقتهم فى العربية كانوا معلمي جيل التابعين ، ومصدر توثيق لنصوص الفصحى من عصر صدر الاسلام واواخر الجاهلية ، حين احتاجت الامة الى جمع تراث العربية ، لغة الدين والدولة ، كي يستنبط منه علماؤها معجم

الفاظها وقواعد نحوهـا وتصريفهـا واشتقاقهـا ، واساليب تعبيرها وبيانها .

— ◆ —

ولم يكن الصحابة ، مع ذلك ، على مستـوى متماثل من الدراية والفقه والضبـط ، بل تفاوتت منازلهم وطبقاتهم .

في عملية الجمع ، كانت صفـوة من حفاظهم وكتاب الوحي منهم ، هي التي ندبت للعمل الجليل ، مع التفرغ والاختصاص !

وفي جمع احاديث المصطفى ، عليـه الصـلاة والسلام ، كان علماء الحديث يشترطون لصحته اتصال اسناده برواية العدل الضابط عن العدل الضابط ، الى ان يصل الاسناد الى التابعين فالصحابـة ، عن الرسول ، عليه الصلاة والسلام .

وكانوا مع ذلك يميزون اصح الاسانيد ، ولم نسمع قط انهم سووا بين رواة الحديث ، بل الذي نعرفه من مباديء علوم الحديث ، انهم انزلوهـم منازلهم من العدالة والضبـط ، واعطـوهم القابهـم بادق المقاييس لعلم الجرح والتعديل .

وبقدر ما تفاوت الصحابـة في وثاقة صلتهـم بنبي الاسلام ، ومكانهم من مدرسة النبوة ، وفقههم للعربية ، لغة القرءان ، تفاوتت طبقـات الصحـابة ومكانتهم في فقه القرءان والسنة .

فكيف تختل مقاييسنا العصرية ، فنحتج لاباحة التفسير ، بأن « ابن عباس » لم يدرس الدين في معهد ، ولم تكن لديه مؤهلات للتفسير غير الفطـرة السليمة ؟

كأن مدرسة النبوة ، ليست معهدا نعترف به لدرس الدين !

وكأن مسجد نبي الاسلام ، لم يعرفه التاريخ ، المعهد الاسلامي الاول !

وكأن صحبة المصطفى ، واصالـة العربيـة ، وكتابة الوحي ، لا تدخل في مؤهلات ابن عبـاس لتفسير القرءان !

— ◆ —

وماذا عن قراءة القرءان ؟

القـرءان نـزل حقـا للعالميـن ، ولم ينـزل للمتخصصين !

لكن طريقة قراءته لم تكن مباحة للعالمين ، يقرا كل منهم على هواه !

وانما اجمعت الامة على قراءات سبع ، لائمة من المتخصصين يفصلنا عنهم بضعة عشر قرنا !

وعلى تتابع الاجيال ، يلتزم المسلمـون قراءات الائمة السبعة ، لا يحيدون عنها باسم الحرية ، ولا يتحدونها بشعار رفض الجمود والاحتكار !

— ◆ —

والامر كذلك في الفقه الاسلامي المستمد مـن نصوص القرءان والسنة ، وما يقاس عليها :

الاسلام ديننا جميعا . لكن باب الفقه لم يكن مفتوحا لكل العالمين ، الذين نزل القرءان لهم .

ولم يترك الامر فيه مباحا يتصدى له من شـاء كيف شاء !

وانما انعقدت الامامة في الفقه لائمة اربعة من المسلمين : « مالك ، وابي حنيفة ، والشافعي ، واحمد ابن حنبل » .

سائغ ان يقول فيهم استاذ عصري ، مثل الذي قاله في «ابن عباس» :

« لم يدرسوا الديـن في معهـد ، ولم يكونـوا يملكون من المؤهلات الا الفطرة السليمة ! »

فاسمعوا أيها الناس مثلا :

« الامام مالك بن أنس » ، الذي اجمع المسلمون على امامته ، فما كان لاحد ان يفتي ومالك في المدينة

لم يصل الى هذه المنزلة العليـا من التخصص الفقهي — او الاحتكار بمفهومه العصري القريب — بغير درس او مؤهل

ولم يجلس للفتيا ، بما فهم من القرءان والسنة، من تلقاء نفسـه دون اجازة علمية من فقهاء زمانه !

بل تعلم في مدرسة ، وسار على منهج ، وتلقـى عن شيوخ انقطع لبعضهم سنين دابا ، ثم لم يجلس الفتيا والتدريس حتى نال الاجازة العلمية ، من سبعين عالما من فقهاء الاسلام في المدينة والحجاز !

اما مدرسته، فكانت «المسجد النبوي بالمدينة»، وفي مكان منه حدده المؤرخون : الروضة الشريفة ، ما بين القبر والمنبر .

وفي هذه المدرسة يقول « ابن شهاب الزهري » ، احد شيوخ مالك :

« جمعنا هذا العلم من رجال في الروضة » ، وعد منهم سبعة من فقهاء اهل المدينة .

على ان «مالكا» لم يدخل هذه المدرسة ، الا بعد ان تأهل لها في مكتب تحفيظ القرءان ، فاتم حفظه ، ثم اتقن تجويده قراءة على « نافع ابن عبد الرحمن » ، امام اهل المدينة في القراءة ، واحد القراء السبعة الائمة !

واما عن منهج دراسته ، فكان فيما حدده مؤرخوه ، يستوعب « كل ما يستعان به على فهم القرءان : من علوم العربية ، وسنن الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، واحكام القرءان ، وعلومه ، والسير والمغازي ، مع قدر من الحساب والرياضيات » .

واما شيوخه ، الذين اخذ العلم عنهم وروى الحديث ، فمنهم :

« ربيعة بن ابي عبد الرحمن » ، الذى اشتهر بلقب « ربيعة الراي » ، وقيل فيه : « ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة » .

ومنهم « ابن هرمز الاصم » ، الذى انقطع اليه «مالك» سبع سنين او ثماني سنين لم يخلطه بغيره .

وفيه يقول ربيعة الراي : « ما رايت عالما قط بعينك الا ذاك الاصم ابن هرمز »

واشتهرت في بيئتنا العلمية الاسلامية ، وصية ابن هرمز لتلميذه مالك :

« ينبغي ان يورث العالم جلساءه قول : لا ادري . فان العالم اذا اخطأ لا ادري ، اصيبت مقاتله » .

ومنهم : « ابن شهاب الزهري » ، اعلم الحفاظ للحديث .

و « نافع » مولى عبد الله بن عمر » الملقب بالامام المعلم ، واحد رجال الاسناد في السلسلة التي تعرف بسلسلة الذهب ، وفيه قال تلميذه مالك :

« كنت اذا سمعت حديث نافع عن ابن عمر ، لا ابالي الا اسمعه من احد غيره » .

والامام « جعفر الصادق » ، الذى تخصه الشيعة باسرار التفسير ، وتنسب اليه كتابا فيه كل ما يحتاجون اليه من علم القرءان .

وغيرهم كثير ، لا احصيهم هنا عدا .

ونال « مالك بن انس » اجازته العلمية من اصحاب الاختصاص ، فكانت شهادتهم له مؤهلا لان يجلس في «مسجد المدينة» للحديث والفتيا .

قال :

« ليس كل من احب ان يجلس في المسجد للحديث والفتيا جلس ، حتى يشاور فيه اهل الصلاح والفضل والجهة ... فان راوه لذلك اهلا ، جلس .

« وما جلست حتى شهد لي سبعون شيخا من اهل العلم اني موضع لذلك » .

هل يكفي هذا المثل ، اقناعا بحرمة التخصص وكرامة العلم ؟

عفا الله عمن قالوا في ائمة الفقه والتفسير : انهم لم يتعلموا درس الدين في معهد ، ولم يكن لهم مؤهل الا الفطرة السليمة !

واستغفر الله لي ، وللزميل الفاضل الذى كتب يرجو ان اغير رايي اذا انا استلهمت في هذه القضية ضمير المفكر « لا عمامة المحترف المشغول بحماية مستقبله الشخصي ، واختصاصاته الرسمية ، التي ياكل منها خبزه ! » .

القاهرة : بنت الشاطىء

المصلحة العامة في مذهب مالك بن أنس

للأستاذ محمد بن تاويت

لعل ناقدا ينقدني بتناولي لموضوعات شتى . وعذري ان العلم عندي كالفاكهة ، ثم اني كنت مديرا للمعهد الديني العالي في تطوان واستاذا به، يوم تناولت هذا الموضوع، منذ ثمان عشرة سنة . فثقافتي المتنوعة ونظري الى العلم كالفاكهة ـ يهاب من انواعها الكثيرة ـ وتقلباتي في التدريس والبحث ، كل هذا جعلني « اتقلب » في تناولي لموضوعات « شتى » ، خصوصا وان« التخصيص » عندنا اصبح يجنح الى ما تنبعه النتائج المنطقية من مقدماتها . والعبرة على كل حال بالجوهر الفذ لا بالعرض الزائل ، وبالانتاج وقيمته لا بالمنتج ونشطاته.

من المعلوم ان اصحاب المذاهب في تشريعهم لا يتحدون جميعا على الاسس التي بنوا عليها تشريعاتهم ؛ فبينما نرى صاحب مذهب يعتمد كل الاعتماد على ما ورد في الكتاب والسنة ولا يعير لغيرهما كثيرا من الاصغاء نرى ءاخر يعتمد عليهما ولكنه يحتكم الى الاستنتاج العقلي بجانبهما وربما حكم عقله حتى فيما ورد في المشكله الفقهية من مأثور السنة او نص الكتاب .

وبين النوع الاول والثاني تتفاوت الانظار في الاخذ بأحد الاساسين : النصوص ـ الراي .

واذا اردنا ان نضع خطا بيانيا يمثل لنا طوائف اصحاب المذاهب المشهورة وموضعهم العمومي من احد الطرفين فاننا نستطيع ، مبتدئين بالنصوص ومنتهين بالراي ، ان نضع في اول الخط :

1 ـ المذهب الظاهري

2 ـ المذهب الحنبلي

3 ـ المذهب المالكي

4 ـ المذهب الشافعي

5 ـ المذهب الحنفي .

وبناء على هذا الخط البياني فاننا نجد مالكا وسطا بين اصحاب المذاهب المشهورة في الاخذ بوجهتي نظرين مختلفين . وهذا الموضع الذي وضعناه فيه انما هو باعتبار العموم وليس هو بهذا الموضع في كل نظراته التشريعية كما سنرى فيما بعد في هذه المسالة بالذات : مسالة المصلحة العامة، او مسالة « المصالح المرسلة » او « الاصطلاح » كما يسميها اصحاب المذهب .

ولنقف الآن عند مذهب مالك والخطوط التي ارتسمها فيه حتى نكون على بينة في دراستنا لموضوع المسالة التي عنونا بها البحث .

امامنا مالك بن انس في منحاه الاجتهادي لا يشترط في الحديث الذي يأخذ به ما اشترطه ابو حنيفة من الشهرة وغيرها بل يعمل بهحتىولوكان خبر الواحد اذا ما صح عنده او حسن مع التزام التحري الشديد في الحديث الذي يعتمده فهو مثلا لا يأخذ الحديث من سفيه او من داع الى بدعته او من كاذب في حديثه العادي مع الناس بل هو لا يأخذ الحديث حتى من شيخ قد اتصف بالفضل والصلاح والعبادة ولكنه لا يعرف ما يحمل وما يحدث به معرفة تامة .

فمالك كما نرى لا يتساهل في رواية الحديث والعمل على مقتضاه ، حتى يخلو من تلك الشبهات التي يتعرض اليها من جراء الرواة السالف ذكرهم ، فاذا توفرت تلك الشروط فانه في داخل نطاقها يتوسع توسعا لا ينتهي اليه ابو حنيفة والى جانب الاخذ بهذه الاحاديث فان مالكا يعتمد كذلك على عمل اهل المدينة ملاحظا فيهم انهم سكان دار الهجرة

النبوية ومهبط جل القرءان المتعلق بالاحكام فهم لهذا الاعتبار افقه الناس بالسنة واعلمهم باحوالها وما تعرضت اليه من النسخ فى بعضها ببعضها الآخر فأهل المدينة اذا اتفقوا على مسالة وعمل بها علماؤهم على اتفاق فيما بينهم فعملهم هذا حجة يقدم على القياس بل انه يقدم حتى على الحديث الصحيح لانهم بصفتهم التى كانت لهم ادرى الناس بالاحاديث واعمال النبي عليه السلام من غيرهم .

هذا اذا كان العلماء قد اجمعوا على قضية ما — كما سبق — وعملوا على وفقها . اما اذا لم يقع منهم اجماع ولو بخروج الاقلية منهم عن الاكثرية فان عملهم حجة ولكنها لا تقدم الا على خبر الواحد فى رواية الحديث ويتقدم عليها الحديث الذى روى من عدة رواة ذلك انه ينزل عمل اهل المدينة منزلة الرواية فعمل الاكثرية بمنزلة رواية الاكثر فاذا جاء خبر واحد يخالفهم وهم كثرة فلا مناص ان هذا الخبر على صحته منسوخ كما هو واضح بين .

على اننا اذا قلنا بعمل اهل المدينة واجماعهم فعلينا ان نفرق فى هذا الاجماع بين الاعمال النقلية التى رووها من اقوال النبى عليه السلام او افعاله والاعمال الاجتهادية التى ليست فيها رواية ولا نقل وانما هي اجتهاد من علماء المدينة اتحدوا فيه وحصل منهم اجماع عليه فالاجماع الذى حصل منهم على النقل حكمه ما سلف اما الاجماع الذى حدث منهم فى الاجتهاد فهذا اختلف اهل المذهب فيه فمنهم من يتخذه حجة ويعمل به عمله بالنوع الآخر حيث انه يرى أن هذا الاجماع منهم على هذا الاجتهاد لم يكن الا لان مؤهلات الاجتهاد واسسه كانت قائمة على ما توفرت فيه الشروط فى النقليات ومنهم من يرى غير هذا وان للقوم عقولا اجتهدوا بها ولنا عقول كذلك يمكن ان نجتهد بها ولا يلزمنا اجتهادهم .

ومن مسالك التشريع عند مالك العمل بقول الصحابي اذا كان ذا مكانة ممتازة ولو لم يكن من اهل المدينة وذلك كالخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم ولكن مالكا لا يلجا الى عمل هؤلاء الاعلام من الصحابة الا اذا لم يرد فى المسالة نص .

هكذا نجد مالكا مقيدا بالنصوص سواء الواردة منها عن النبي عليه السلام او عن اكابر الصحابة ثم هو الى جانب ذلك مقيد كذلك بعمل اهل المدينة على الاعتبارات والدرجات التى تقدمت ولم نذكر من بين النصوص نصوص القرءان لان هذه لا يختلف فيها مذهب عن مذهب الا باعتبار الاخذ بالظاهر او التأويل في فهم النص او الاطلاع على النسخ فيه .

اذن فمالك من هؤلاء الذين يقفون عند « حرفية القانون » ولكنها وقفة طويلة متزنة يؤيدها المنطق الحصيف والراي السديد وليست وقفة داود الظاهري ولا وقفة احمد بن حنبل فهو فى الحقيقة لم ير تقليد هؤلاء فيما رووه او راوه لمجرد كونهم رووه وراوه ولكنه يرى طبيعة الاشياء تفرض عليه هذه الوقفة : مثلا اذا اعتمد على عمل اهل المدينة فانما ذلك الاعتماد قائم على تحفظه الشديد وتحريه ان يصيب الهدف فى احكامه الشرعية . وكل منصف يؤيده فى هذا الاتجاه اذا ما راعى مكانة اهل المدينة ومقدار اتصالهم بصاحب الشريعة ومداخلتهم اياه مداخلة المكان والزمان .

ولهذا فمالك ليس تماما — كما يفهم من وصفه بانه يتبع حرفية القانون وانما هو يعمل فى القالب بروح القانون لا بحرفيته اذا امعنا النظر فهو فى وقفته عند النصوص يتصرف بعقله تصرف القانوني المخلص لروح القانون والمتزن فى احكامه وعلى أساس هذا التصرف وعلى ادراك هذا الروح فى القانون يخرج لنا مالك مصدرا هاما من مصادر التشريع المالكي او الاسلامي عموما هذا المصدر الهام هو « المصالح المرسلة » او المصالح العامة كما نسميها فهذه المصالح التى كانت النظرة عميقة فيها تؤهل الفقيه المالكي ان يكون له ادراك متسع الافق ولباقة قانونية بل تفضي به الى ان يقف فى مصاف المجتهدين ولكن نصوص القوانين ليست كافية ان تخرج لنا رجال القوانين ان فقه مالك اخرج لنا الشافعي نعم ! اخرج الشافعي لان شخصية الشافعي القوية ومؤهلاته العديدة استطاعت ان تتبلور بتلك الثقافة وان تبدو للناس بمظهر الخلق والابداع . .

لو استمر العمل حسب ما تمليه — المصالح المرسلة — بين اصحاب مالك لكان فقه مالك اغنى الفقهيات فى الاسلام ولكن العمل لم يستمر وبقيت مسالة الاستصلاح او المصالح مسالة تاريخية عرفت عند مالك ولم يجز بها العمل الا لماما وفى بيئة دون بيئة وفى مسالة دون اخرى ثم هي مع هذا كله تتعثر فى سيرها وتتجاذبها الايدي حتى من اصحاب المذهب انفسهم . . .

ولعل القاريء يصيح فى : ما هى هذه « المصالح المرسلة » حتى تكون بهذه المثابة ؟!

« المصالح المرسلة » مسألة لها اتصال وثيق بما عرف عند الحنفية بمسألة « الاستحسان » لهذا نرى لزاما علينا ان نتعرض لهذه المسألة اولا بشرح وجيز ثم ننتقل منها الى مسألتنا هذه .

مسألة الاستحسان قائمة على الاعتبار الاعتزالي القائم على التحسين والتقبيح العقليين عند التشريع والمعتزلة عرفوا بين الناس بأنهم يحتكمون الى العقل كما قال فيهم ابن السبكي فى جمع الجوامع « وحكمت المعتزلة العقل » ونظريتهم هذه تدور على ان فى الافعال نفسها التى تتعلق بها الاحكام صفات من حسن يحبذه العقل او قبح يتجافى عنه . فعلى هذين الاساسين قام التحليل والتحريم فكل حكم معقول المعنى ولا مقابل وكل مسألة محللة لابد أن يلتمس لها وجه من الحسن وكل مسألة محرمة لا مناص لنا أن نلتمس لها صفة من القبح فالتحسين والتقبيح كما نرى لا يقومان على النقل اول ما يقومان وانما النقل نفسه يقوم عليهما والا لما كان هناك وجه لذلك التحليل وهذا التحريم فلو لم يوجد الشارع لكان العقل السليم وحده كافيا فى ان يستحسن ما حلله الشارع وان يستقبح ما حرمه بالاحكام الشرعية خاضعة الى سلطان العقل مهتدية بالنور الذي وضعه الله فيه بالحسن والقبح كلاهما محور يدور عليه التشريع الاسلامي فالاحكام تدور على العلة وجودا وعدما كما يقول الفقهاء خذ مثلا الصدق والكذب فما من عقل سليم ينكر ما فى الصدق من منجاة وفلاح وما من عقل سليم ينكر ما فى الكذب من مضرة وهلاك فالقيمة الخلقية فيهما ذاتية عقلية والا لما كان الشارع حلل الاول وحرم الثاني ..

واذا فالمعتزلة يخالفون الواقفين عند الاوامر والنواهي لا لشي الا لانها اوامر ونواه وردت عن الشارع ولكنهم يتعقلون ما فى الاوامر من مصلحة يفرضها العقل وما فى النواهي من مضرة يحذر منها العقل فالنظرة العقلية والاستجابة الى ما يفرضه العقل هي التى جعلت فى القرءان والسنة ناسخا ومنسوخا لان النظرة العقلية الى طبيعة الاشياء وتطور الحيثيات هي التى رفعت ذلك الحكم واقامت هذا، فالعلة مثلا فى تحريم زيارة القبور ارتفعت لرجحان علة اخرى ذكرها الشارع فقال : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فانها تذكركم الدار الآخرة »

والعلة فى القصاص ذكرها القرءان فقال «ولكم فى القصاص حياة» والعلة فى تحريم الخمر والميسر ذكرها الله فقال : « انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر » وهكذا نجد الكتاب والسنة فى كثير من المحللات والمحرمات يبينان لنا وجه التحليل فى ذلك على اساس عقلي كما يبينان لنا وجه التحريم فى هذا على اساس العقل كذلك فالمعتزلة اذن لم يحكموا العقل من غير ما يكون لهم مستند فى هذا التحكيم بل المعتزلة فى الحقيقة يصح ان نعدهم فى طبقة التجريبيين من الفلاسفة ولا نعدهم فى طبقات العقليين بكل دقة المعتزلة يحتكمون الى العقل بعد الاستقراء وما تاريخ قدمائهم وفطاحلهم وما الامعان فى صنيعهم الا مؤيد لهذه القولة ويكفي دليلا على هذا « النظام » وتلميذه «الجاحظ» ...

هم فى مسألة التحسين والتقبيح لم يبتدعوا فيها ولم يقتحموا خطوطا كانت محظورة او مبهمة من الشارع وانما اخذوا بمبدئه فى تبيين العلل وزادوا او استمروا فى هذا الخط فى التماس العلل للاحكام وتوسعوا فى ذلك توسعا لا يحده الا حدود العقل الطليق المتصرف تصرفا حكيما رشيدا وفي القرءان الكريم فى حق الدين : « فطرة الله التي فطر الناس عليها » وفى حق المهملين لعقولهم تنديد عليهم فى مثل قوله : « اولو كان ءاباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » وفيه حض على الاستقراء وبناء الحكم العقلي عليه فى قوله تعالى : « اولم ينظروا فى ملكوت السماوات والارض وما خلق الله من شيء » وفى السنة النبوية ما يؤيد قدرة العقل على الاهتداء بنوره فى نحو قوله عليه السلام فى حق الصحابي خبيب « نعم العبد خبيب لو لم يخف الله لم يعصه » وقد جعل القرءان اكراه العاقلين على اتباع الحق غير اكراه فى قوله تعالى « لا اكراه فى الدين، قد تبين الرشد من الغي » فحيث تبين الرشد من الغي بطريق التفكير العقلي فلا اكراه على الحقيقة .

المهم ان الحنفية وعلى راسهم امامهم اخذوا بمبدا التحسين والتقبيح وارتكنوا على الراي والعقل بفطرته السليمة التى تستطيع ان تدرك ما فى الشيء من صفات حسن فتتبعها ومن صفات قبح فتتنكب عنها وان الانسان لو لم تبلغه دعوة من رسول مرسل فلا عذر له فى الجهل وفى اهمال هذه القوة التى اودعها الله فيه ليدرك بها الصالح والسيء وهو من اجل هذا ملزم بفعل الحسنات وترك السيئات ولامر ما كان الصبي ومن لا عقل له غير مكلف لانه فاقد لتلك الاداة التى يدرك بها القبيح من الحسن .

وفي الحقيقة ليس الاعتماد على العقل مخلوقا للمعتزلة في المسلمين وانما نجده مبكرا في بعض المسائل عند الصحابة كعمر مثلا ثم نجده قد التزمه بعض فقهاء المدينة فيما بعد مثل « ربيعة الراي » الذي لكثرة الاعتماد على الراي اضيف اليه فقيل « ربيعة الراي » وهو احد المؤسسين للمدرسة التي تخرج منها مالك بن انس وقد تردد الى العراق موطن الراي وتوفي سنة 136 .

على اننا لا نجعل الحدود فاصلة بين العقليين والنقليين وانما نقول ان العقليين لا يهملون النقل وانما هم يعللونه بالعقل بينما النقليون لا يهملون العقل وانما يؤيدونه بالنقل ففرق بين اولئك وهؤلاء ان اولئك ينظرون الى السر العقلي في المسالة المنصوص عليها ويقيسون على ذلك السر وتلك العلة وهؤلاء ينظرون الى المسالة التي نص الشارع على تحليلها وتحريمها ويقيسون عليها الاولون يبنون على الكلي المبني على القضية العقلية في جزئية من الجزئيات والآخرون ينظرون الى الجزئية الوارد فيها الحكم ويبنون عليها ويجعلونها المبدا فيقيسون عليها ما كان شبيها بها . فالكل متصرف بعقله فيما بعد ولكن تصرف الاول كان في حدود اوسع وفي نطاق اشمل لانه خرج من الجزئي الى الكلي بينما الآخرون يتصرفون بعقولهم ولكن تصرفهم لا يتعدى حدودا ضيقة تحوم حول المسالة التي نص عليها الشارع .

ولا نريد ان نتوسع في ما راج بين هؤلاء وخصومهم وكل ما نريد ان ننبه عليه فهو ان اصحاب الراي فيما بعد وجدنا من بينهم من توسط في المسالة حيث انهم قسموا الاحكام الى قسمين : احكام تتعلق بأمور العبادات فلسنا ملزمين لان نلتمس لها تحسينا او تقبيحا عقليين . واحكام تتعلق بشؤون الدنيا فلابد للعقل ان يقول كلمته فيها وهي نظرة قيمة تجعلنا ننظر الى سير الحياة في خطوطها الطويلة سيرا سريعا متبصرا ونشرف فيها على ءافاق بعيدة المدى .

هذه هي مسالة الاستحسان. اما مسالة المصالح المرسلة فما هي ؟

المصالح المرسلة :

المصالح المرسلة هي ما تسمى الان بالمصالح العامة وهي مسالة ــ كما تقدم ــ قال بها مالك وظلت في مذهبه يعمل بها في حدود ضيقة الى العصر الذي خبا فيه ضوء العقل الحر وتحجرت المدارك ولم نعد نجد لها ظلا شاخصا الا في بعض الجزئيات التي حتمتها الضروريات القاسية وقلما تظفر بها وهي في الحقيقة ليست ــ كما يدعى ــ مصدرا زائدا على مصادر التشريع الاول : « الكتاب السنة والاجماع والقياس » وانما هي مستخرجة من نفس المصادر الاربعة فلابد ان ننظر فيها بعيون حديدة النظر غير زائغة البصر . هذه المصالح تقوم على تقديم الصالح العام على الصالح الخاص اذا تعارضا وعلى ارتكاب اخف الضررين لو اجتمعا ولو كان بجانب كل واحد نص يؤيده او ينهى عنه. ذلك ان اصحاب المصالح المرسلة نظروا الى لب الشريعة والغرض الاساسي منها فانتهوا الى هذه الكليات الخمسة التي بنى الشارع عليها احكامه وهي كليات استقرءوها فوجدوها خمسة امور : « حفظ الدين ، حفظ النفس ، حفظ العقل ، حفظ النسل ، حفظ المال ».

فلو استعرضنا امور الشرع ونواهيه لما وجدناها تتعدى هذه الاسس الخمسة، وعلى هذا فاذا نظرنا الى اية مسالة واردنا ان نصدر فيها حكما لم ينص عليه فاننا يلزمنا ان ننظر الى نتائجها والى ما سيترتب عليها من مصالح او مضار فندقق في هذه النظرة ونقدر كل النتائج ونوازن فيما بينها ان تواردت او تعارضت مستعينين في ذلك بمسبار العقل وبالمقاصد الشرعية التي هدفت اليها الشريعة فاذا ما انتهينا من ذلك كله فلا يبقى علينا الا ان نصدر الحكم اعتمادا على المصالح والمفاسد او الصالح والاصلح والفاسد والافسد عند التعارض .

خذ مثلا مسالة اتى بها صاحب المصلحة المرسلة: لو تترس العدو بجماعة من اسرى المسلمين وقعوا في يده هل نقاتل العدو ويكون في قتالنا له قتل الاسرى المسلمين الذين تترس بهم العدو ام نترك العدو خوفا من ان نصيب مسلما ونزهق روحا بريئة ؟

هنا تعارضت المصلحتان كما تعارض النصان : العدو يامرنا الدين بقتاله : « قاتلوا الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا » والمسلم ينهانا الدين عن قتله ضمن قوله « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق »

فماذا نصنع ؟

لننظر الى المصلحة ولنقدر المضرة . المصلحة العامة تقضي بقتال العدو والمصلحة الخاصة تقضي بعدم قتاله ابقاء على الاسرى المسلمين : المضرة في عدم قتال العدو عامة فهي مضرة ثقيلة والمضرة في قتاله تنال جماعة الاسرى ولكنها مضرة خفيفة اذن

فليرتكب اخف الضررين لاننا لو لم نرتكب اخف الضررين لمكنا العدو من الفرصة ولغلب علينا فلا نستطيع بذلك ان نحفظ مقاصد الشرع او بعضها من نحو الدين والنفس والمال مما وجدنا الشرع حريصا على حفظه .

وهناك مثال ءاخر اتى به مالك فى مسالة الضرب . فالتهمة عند الاستنطاق بالسرقة مثلا : المصلحة العامة تقضي بهذا الضرب او الحبس . والمصلحة الخاصة لا تقضي به : المصلحة العامة هو اننا بهذه الوسيلة نستطيع ان نتوصل الى حسم هذا الفساد الذي حل بالمجتمع من ضياع امواله وتعريضها للهلاك فعلينا ان نستعمل الوسائل التى نستطيع بها ان نطمئن الناس على اموالهم وان نجعلها فى الحفظ الذي هو مقصد من مقاصد الشريعة والمصلحة الخاصة ان لا نوقع اذى بذلك المتهم لانه لربما كان بريئا فنظلمه « والله لا يحب الظالمين » والمضرة العامة فى ترك المتهم وهي مضرة ثقيلة والمضرة الخاصة فى ضربه او سجنه وهي مضرة خفيفة اذن فلنرتكب اخف الضررين وهو الضرب او الحبس او ما الى ذلك من العقوبات والشرع انما يقدر الكلي ويهمل الجزئي وهكذا اتى مالك واصحابه بامثلة للمصلحة العامة . ثم عرضت لاتباعه فيما بعد مسائل من هذا القبيل فوجدنا منهم من يجيب فيها بناء على قانون المصلحة المرسلة ومنهم من يتوقف فيها او يعارضها لا من ناحية المبدا ولكن من ناحية الاتجاه حتى مات العمل بالمصالح العامة او كاد ولم يلتفت اليه الا تحت ضغط السلطان فيما تحدث من مشاكل تجابه الدولة مثل فرضه الخراج على الرعية والضرائب وما الى ذلك . والمواقف فيها كانت عنيفة سواء فى الاندلس ام فى المغرب الى زمن يسير ..

وبهذه المصلحة المرسلة لا تجدها وليدة لمالك كما لا نجد مذهب الراي وليدا لابى حنيفة وانما نجد لها بذورا فى عهد الصحابة كما فى مسالة حد الشارب اربعة او ثمانية وقد كانت على عهد النبوة ضربا باطراف الثياب او النعال كما حدث فى ايام عمر من مسائل مثل نزع الملكية ممن امتنع عن بيع داره لهدمها فى سبيل المصلحة العامة بل اننا نجدها حتى فى بعض الاحكام التى نص عليها القرءان الكريم ووجد فيها كثير من القساوة ولكن المصلحة العامة كانت تقتضيها من مثل حد الزاني لان فيه حفظا النسل وصونا من الفوضى الاجتماعية ووعيا لكيان التربية العامة .

واذا كنا نفاجا بشيء فى العمل بالمصلحة المرسلة فاننا نفاجا بمعارضة الشافعي فيها كما نفاجا بمعارضته فى التحسين والتقبيح .

فهذا الشافعي المتحرر من كثير من القيود والمرن فى تشريعه والمتمعن فى احكامه حتى انه كان المتفرد من اصحاب المذاهب بتغيير مذهبه وجعله مذهبين فى الحقيقة لامذهبا واحدا استجابة للظروف ومرونة مع ما تقتضيه الاحوال وتستدعيه البيء المختلفة حيث كان له مذهب فى العراق وءاخر فى مصر ولو ان الزمان كان قد امتد به ولو ان المكان كان قد اتسع به فاتي مثلا الى المغرب او الاندلس او قدر لعمره ان يطول لما كان يتردد فى ان يخلق له مذهبا او مذاهب اخرى تمشيا مع ما يجد فى مكانه او زمانه وتنفسا بما يتارج فى هذه البيء المختلفة بل اننا وجدناه قد خرج عن مذهبه الاصلي المالكي لما تجدد على عقليته بحكم تردده على العراق واتصاله باجواء مختلفة وممارسته لقضايا لم يكن قد سبق له ان مارسها لما كان بالمدينة بجانب استاذه مالك رحمهما الله فكان من اختلاف هذه المناهج المتعددة والمتلونة بالوان متباينة ان استقل بمذهبه ودعا اليه فى سنة 195 ؛ والشافعي اديب فيه مرونة الاديب ورياضي فيه دقة الرياضي فلا غرو ان يكون لهذين العاملين اثر قوي في توجيهه نحو ذلك الاستقلال فى التشريع بعد ان ادرك غور الاشياء وانحدر الى اعماق اسرارها وبذلك استطاع وحده ان يخلق لنا علما هاما فى اصول التشريع « اصول الفقه » التى تشرف بالفقيه على ان يدرك الكليات ويقيس عليها الجزئيات وهو مطمئن كل الاطمئنان الى ان بيده اداة فعالة واقنوما دقيقا يسجل به الاشياء ويقدرها حق قدرها . هذا الشافعي الذى استطاع وحده في زمن وجيز وفى وقت مبكر ان يهيء اصحابه بمصر لان يصبحوا مجتهدين فى تشريعهم ومحاولين هم انفسهم ان يخلقوا مذاهب خاصة لهم سواء فى ذلك الرجال من اتباعه او النساء (كما سنتعرض الى هذا البحث بحول الله) هذا الشافعي بهذه الصحيفة الاشراقية نجده يرفض مسالة المصالح المرسلة كما يرفض مسالة « الاستحسان » ويضرب بكلتيهما عرض الحائط ويقول فى الاستحسان مثلا « من حسن فقد شرع » وهي وقفة نستغربها منه كما نستغربها من ابن المقفع قبله فى الراي وهو من هو يرفع صوته بنداءاته العديدة ان ينظم الفقه الاسلامي نظاما دقيقا وقد ضاق بالفوضى التى كانت على عهده ابن المقفع هذا نجده يقول فى الراي : فصل بين الدين والراي؛

ان الدين يسلم بالايمان وان الراي يثبت بالخصومة فمن جعل الدين خصومة فقد جعل الدين رايا ومن جعل الدين رايا فقد صار شارعا ومن كان هو يشرع لنفسه فلا دين له .

وهكذا ينفر ابن المقفع من الراي كما تفر الشافعي بعده من الاستصلاح والاستحسان ولم يلتفت الى اصحاب الاستحسان حتى فى ادلتهم التى اتوا بها من القرءان لتشفع لهم فى هذا مثل قوله تعالى : « اتبعوا احسن ما انزل اليكم » وقوله : « الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه اولئك الذين هداهم الله » فالشافعي فى هذه المسالة بالذات لم يكن من اصحاب الذوق القانوني ولم يلزم موضعه الذى وضعناه فيه من الخط البياني السابق وانما رجع فيه الى ناحية ابن حنبل كما قفز مالك الى ناحية ابي حنيفة متعديا مكان الشافعي منه .

ولعل القاريء الكريم يسال : اذ كنت قد قلت فى حق الفقه المالكي انه قد اخرج الشافعي وانه بالاضافة الى مؤهلاته استطاع ان يستقل بمذهبه الخاص وتوهت فى ذلك بمسالة «المصالح المرسلة» فجعلتها تقريبا روح المذهب او هي اهم شيء يمتاز به هذا المذهب فما بال الشافعي قد استطاع ان يخلق له مذهبا مع انه لم يقل بهذه المسالة التى امتاز بها المذهب المالكي ؟

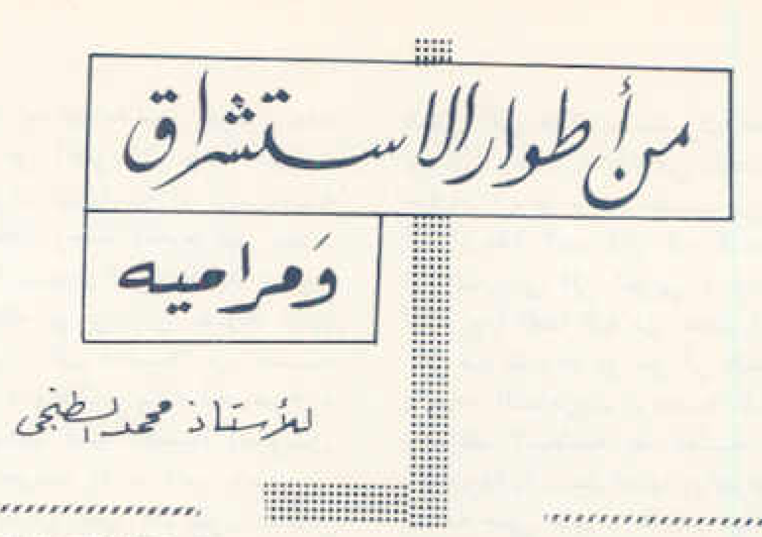
والجواب على هذا فى منتهى البساطة : فالشافعي لم يقل بهذه المسالة بالذات ولكنها بلا شك قد اثرت فى عقليته ونشاطه التشريعي ومثله فى ذلك مثل ابي حنيفة الذي تشبع بالمذهب الاعتزالي تشبعا كبيرا او بطريقة الكلاميين فى جدالهم حتى قد حدث عن نفسه بقوله : كنت رجلا اعطيت جدلا فى الكلام فمضى دهر فيه اتردد وبه اخاصم وعنه اناضل وكنت اعد الكلام افضل العلوم .

ثم بعد ذلك رفض ـ كما يقول ـ رفضا تاما مذهب الكلاميين واصحاب الجدل ، فهل هذا يكون كافيا فى ان ابا حنيفة لرفضه ذلك لم يتاثر به فى توجيه تشريعه ؟ كلا ، فان ابا حنيفة بفضل الكلاميين وجدلهم ولتاثره بذلك استطاع ان يبني مذهبه على الراي وان ياخذ من المعتزلة مسالة الاستحسان وان يتبناها بكل عطف ويدافع عنها بكل حرارة ثم هو بكل ذلك استطاع كما استطاع الشافعي ان يكون من اتباعه من كان على ابواب استقلال فى مذهبه . ومن المعلوم فى كتب الاصول ان اقوال اتباع ابي حنيفة لا تعتبر كلها اقوال ابي حنيفة ، فالحنفيون كثيرا ما يخالفون امامهم فى فقههم .

هذا عرض سريع لمسالة المصلحة العامة فى المذهب المالكي وموقف غيره منها وعمل اصحابه بها وعسى الايام ان تتيح لنا فرصا اخرى نرجع فيها الى هذا الموضوع باكثر دراسة فيه توسعا واعمقها بحثا ان شاء الله .

تطوان : محمد بن تاويت





في نطاق المهرجانات الثقافية التي تنظمها كل اسبوع ، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الاصلي ، القى فضيلة الاستاذ السيد محمد الطنجي رئيس قسم الوعظ والارشاد بوزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية محاضرة قيمة تحت عنوان : « من اطوار الاستشراق ومراميه » وقد لقيت هذه المحاضرة استحسانا كبيرا من الحاضرين الذين غصت بهم قاعة المحاضرات بنفس الوزارة.

ويسرنا ان نقدم لقرائنا المحترمين القسم الاول من هذه المحاضرة القيمة شاكرين للاستاذ محمد الطانجي فضله وتلبيته ...

ايها السادة الافاضل والسيدات الفضليات ، السلام عليكم جميعا ورحمة الله تعالى وبركاته ، وبعد : فقد شرفتني وزارة الدولة المكلفة بالثقافة والتعليم الاصلي بانتدابي لاتحدث اليكم في موضوع اختاره ، فاشكرها على دعوتها الكريمة واقدر جهودها المباركة في نشر الوعي الثقافي ، راجيا من المولى سبحانه التوفيق في القول ، والاصابة في الراي والنقل .

وجهة اختياري لموضوع هذا الحديث :

بما ان العالم الثالث المتخلف صناعيا كما يقولون اخذ ينهض من كبوة هذا التخلف العلمي والصناعي وياخذ باساليب التطور الذي تفوقت فيه اوربا ، ونظرا الى ان العرب وقت ازدهار مدنيتهم وحضارتهم كانوا تبنوا علوم الاوائل من الاغريق والروم والفرس والهند ونموا تلك العلوم وزادوا فيها وجعلوا القسم الذي يقبل التطبيق منها تطبيقيا لا نظريا فحسب ، فاخذت اوربا جميع ما كان عند العرب كما سيتضح وذلك بواسطة علماء تخصصوا في اللغة العربية واطلعوا على جميع ما نقله العرب او استحدثوه ، نظرا لهذا كله جعلت موضوع هذا الحديث : **(من اطوار الاستشراق ومراميه)** حتى تتصل حلقات النهضة العلمية بين الماضي والحاضر تاريخيا، وحتى نتعرف في الجملة على بعض الاطوار التي مر فيها الاستشراق وبعض مراميه ، لان استيعاب الكلام عليه يحتاج الى طول وقت وبحث مستفيض ذلك ان العلماء الذين تخصصوا في هذه الميادين هم من دول متعددة مختلفة الجنس واللغة فحسبي ان آخذ صورة واضحة عنهم وعن مقاصدهم من نفس تصريحات بعضهم ، وما كتبه الباحثون المسلمون عن انتاجهم .

لفظ الاستشراق :

والاستشراق بزيادة السين والتاء على لفظ الشرق ، وهما للطلب كقولنا استفهم اي طلب الفهم، يشتق منه وصف المستشرق الذي يطلق على الشخص الذي اطلع على لغة واحوال العرب وعلومهم وحضارتهم بوجه خاص او على المطلع على لغة واحوال الشرق وعلوم اهل الشرق بوجه عام والاستشراق مثل الاستعراب استعمال قديم فقد استعمله ابن القرية ، وهو من خطباء العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة ، فانه قال لما سأله الحجاج عن اهل البحرين نبط استعربوا قال فاهل عمان ؛ قال عرب استنبطوا وذلك يكون اما لغة او انتسابا او لعلاقة اخرى .

الاشارة الى مبدا نقل العلوم الفلسفية :

ولا باس ان نشير هنا اشارة خفيفة الى مبدا عناية الدولة الاسلامية وقت ازدهارها بعلوم الاوائل ونقلها بكل امانة والتوسع في دراستها حتى كانت نهضتها شاملة عامة دينا ودنيا . فقد التفتت الامة العربية الناهضة الى ما عند الامم القديمة من علوم

وفلسفة وفنون فانتدبت لها جماعة ممن يعرفون هذه اللغات ذكر ابن النديم فى الفهرست جملة منهم ، ومن هؤلاء من كان يعرف اليونانية أو السريانية أو الرومانية، وقد ابتدات ترجمة العلوم قبل عهد المامون العباسي ، وكانوا يسمون الترجمة نقلا ، يقول ابن النديم حكاية عن خالد بن يزيد بن معاوية الذى يسمى حكيم ءال مروان ، كان فاضلا فى نفسه وله همة ومحبة للعلوم ، وخطر بباله الصنعة ، – لعل المراد هنا خصوصا كتب الكيمياء وتحويل المعادن الذى كان خالد مغرما به – فامر باحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مصر وقد تصفح بالعربية وامرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي الى العربي ، قال وهذا اول نقل كان فى الاسلام من لغة الى لغة ، ثم نقل الديوان وكان بالفارسية الى العربية فى ايام الحجاج وذكر من نقله ثم قال : فاما الديوان بالشام فكان بالرومية ثم قال ونقل الديوان فى زمن هشام بن عبد الملك ثم ذكر قولا ءاخر انه نقل فى زمن عبد الملك نفسه ، ويذكر ابن النديم عنوان المترجمين هكذا « اسماء النقلة من اللغات الى اللسان العربي » ، ويقول فى ترجمة ابن زرعة احد المتقدمين فى علوم المنطق والفلسفة والنقلة الموجودين ، كما كانوا يسمون احيانا الترجمة تفسيرا فى بعض الاحيان يقول ابن النديم فى ترجمة متى بن يونس « له تفسير من السرياني الى العربي» واليه انتهت رياسة المنطقيين فى عصره .

وكان هذا النقل من لغة الاغريق والفرس والسريان والهند والقبط الى اللغة السائدة فى ذلك العهد وهي العربية ، وقد يشتبه فى صحة اطلاق القول بالنقل من كل هذه اللغات بما ذكر الفيلسوف الاجتماعي ابن خلدون حيث قال : ان العلوم التى وصلت الينا هي اقل من العلوم التى لم تصل الينا فاين علوم الفرس والكلدانيين والبابليين والاشوريين والاقباط القدماء فانها كلها ذهبت ولم يبق من العلوم التى وصلت الينا سوى علوم اليونانيين التى انتهت الينا بسبب اجتهاد الخليفة المامون فى ترجمتها وانفاق الاموال الطائلة عليها .

فيرد هذا الاشتباه بما ذكره المستشرق البارون كرادوفو حيث قال ان فيه شيئا من المبالغة لانه وصل الى المسلمين اشياء لا تنكر اهميتها من معارف الفرس والهنود واليهود ، ولكنه على كل حال كلام يدل على سعة علم ابن خلدون من جهة العلم بالمدنية البشرية

انتهى كلام هذا المستشرق نقله الامير شكيب ارسلان رحمه الله فى ملحقه على تاريخه ابن خلدون ، وقد رايت بنفسي فى فهرست ابن النديم اسماء عدة كتب ذكر انه نقلت من اللسان الفارسي او السرياني الى العربي ، وبناء على هذا يكون الواقع عما المعنا اليه من تعميم النقل من معارف الامم التى ذكرت وقد مر عن ابن النديم ما يؤيد ذلك فاتحف الساهرون ترجمة تلك العلوم المكاتب والمعاهد الاسلامية بها فعكف المسلمون وفهموها وفحصوها واستنبطوا منها وزادوافي تنميتها ما زادها قيمة ورفعة حتى صارت بلادهم قبلة للطلاب الراغبين فى المعرفة من كل انحاء العالم سواء فى الشرق ايام العباسيين او فى الاندلس ايام ازدهارها فى عهد الامويين والمرابطين والموحدين وحتى فى شمال افريقيا الا ان الزمان دار دورته بسكان المعمور عن التبادل الثقافي فى هذه الحقبة من التاريخ امم اعتراها الهرم او الكسل ، ونهضت امم اخرى من غفلتها بالجد والمثابرة والعمل ففاقت غيرها فى مختلف العلوم والفنون ، فكما وجدت جماعة من العارفين باللغات القديمة فى صدر الدولة الاسلامية جهود المستشرقين فى الاطلاع على علوم العرب حتى ترجموا علوم غير العرب الى اللسان العربي تعلم جماعة من الاوربيين وغيرهم اللسان العربي وغيره فبحثوا فى علوم العرب وحضارتهم وتاريخهم وترجموا ما راوا فيه فائدة ، وما عادت به عليهم خير عائدة فى نهضة اوربا الحاضرة ، وهؤلاء هم الذين يسمون فى هذا العهد بالمستشرقين او المستعربين ، وقد ادوا خدمات جلى للسان العربي والعلوم العملية وحتى للعلوم الدينية الاسلامية من قرءان وحديث ، يقول الدكتور منصور فهمي استاذ الفلسفة فى الجامعة المصرية رحمه الله فى تقديمه لكتاب المعجم المفهرس لالفاظ القرءان لواضعه محمد فؤاد عبد الباقي : ولقد اتجه نفر من مفكري الغرب الى التنزيل الحكيم حين استبانوا منزلته وتاثيره العظيم فى طبقة كبيرة من البشر، وحين توثق الاتصال بين الشرقيين من المسلمين وبين الغربيين لمختلف الدواعي والاغراض ، فعمل هؤلاء الغربيون على تيسير الرجوع اليه واستخراج ما يحتويه ، فانشاوا فهارس مختلفة الضروب كان من اكبرها نفعا كتاب نجوم الفرقان فى اطراف القرءان لمؤلفه فلوجر المستشرق الالماني المطبوع فى ليبسك عام 1842 . ويقول فؤاد واضع المعجم المفهرس لالفاظ القرءان فى مقدمة كتابه فى حق كتاب (فلوجر) المذكور فقد اعتمدت

به وجعلته اساسا لمعجمي ؛ وهذا المستعرب هانري لاهوست الفرنسي يضع بحثا عن الحركة السلفية بالفرنسية فيعربه الاستاذ الكبير السيد محمد بن الحسن الوزاني ونشرته مجلة المغرب الجديد التي كانت تصدر بتطوان تباعا .

ومن المستشرقين من وضع فهارس لمجموعة كبيرة من احاديث الرسول مع بيان من اخرجها من ائمة المحدثين ووضع فينسنك مفتاح كنوز السنة كما وضع تفصيل ءايات القرءان حسب الموضوعات، وقد اشار المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل مؤلف (حياة محمد) في محاضرة القاها بدار الايتام ببيروت تحت عنوان (حضارة اوربا وحضارة الاسلام) الى كتاب « وجهة الاسلام » الذى الفه خمسة من المستشرقين واعترفوا فيه بمسايرة الحضارة الاسلامية لكل العصور ؛ ويوجد عدد غير قليل من المنصفين المستشرقين الذين اعترفوا في ابحاثهم بفضل الحضارة الاسلامية وانها الاساس الواضح لنهضة اوربا الحاضرة.

ويقول جوزيف ماكيب في كتابه (مدنية المور) بالاندلس وكانوا اي مسلموا الاندلس يعرفون جميع شروب الفلسفة هندية كانت ام يونانية الا ان ارسطو كان هو المعلم الاكبر في نظرهم ؛ لما تكلم الشاعر الكاثوليكي دانتي في القرن الثالث عشر على الفلسفة لم يذكر ولا رجلا واحدا نصرانيا وانما ذكر بعده ابن سينا وابن رشد وساوى بينهما وبين المعلم الاكبر في الشرق حيث سمى الجميع ءال بيت الحكمة ؛ قال جوزيف ماكيب : وهذا يدلنا على ان الفضل في النهضة الفكرية في اوربا يرجع الى المور الذين احيوا فلسفة اليونان بعد دروسها قبل النهضة الاخيرة الاوربية باربعة قرون ؛ كما ذكر ان ابن رشد هو الذى الف الشرح الشهير لكتاب ارسطو ؛ وقال جوزيف ماكيب في حق كتابه (مدنية المور) وتاليف صغير كهذا لا يسع شرح ما عمله المور في خدمة العلم ولو بغاية الاختصار ولاسيما خدمتهم للرياضيات والفلك والكيمياء والطب .

وعليه فخدمة المستشرقين للحضارة العربية والمدنية الاسلامية وحتى لعلوم الدين الاسلامي لا تنكر ، وقد فتحوا بأبحاثهم وترتيبهم لموضوعات هذه الحضارة والمدنية مجالات شتى امام اهل هذه المدنية العريقة في العظمة والمجد ؛ والتي خلفت للعرب ذكرا خالدا شاهدا بما كان لهم من خدمة للعلم والفلسفة والمعرفة .

بعض المستشرقين جاوزوا حدود البحث العلمي

الا ان الكثير من هؤلاء المستشرقين جاوزوا حدود البحث العلمي كما يدعون الى ميادين اخرى مشوبة باغراض ومطامع لا يرتضيها علم ضمير ولا خلق قويم ؛ ومن الملاحظ ان كثيرا من مفكري المسلمين اخذوا يكتبون عن الغزو الفكري الذى مهد للغزو المادي الاوربي وصاحبه وقت سيطرته واستغلاله للعالم الثالث المتخلف صناعيا ؛ ثم بقي الغزو الفكري بهذا العالم الثالث بعد استقلال اغلب اقطاره بأثاره السيئة ورواسبه المقيتة وربما كان من ءاثاره انه فكك وحدة بعض الشعوب واضعف قوتها فاضطربت سياستها وضعفت عقيدتها الدينية فاصبحت في فوضى اخلاقية لا يبقى معها الضمير الحي والوازع الداخلي فشاع الانحراف في السلوك واضطرب الاستقرار الاجتماعي وقامت في بعض الشعوب ثورات لا مبرر لها غير حب السيطرة وحب الرئاسات فاقتضى الحال مراجعة المواقف ودراسة العوامل والاسباب التي نتج عنها الاضطراب والفوضى الفكرية.

مراجعة العواقب التى خلفها الاستعمار :

وقديما قال الحافظ بن الجوزي في كتابه صيد الخاطر : « انه لاحظ ان من عثر في مشيه بشيء التفت اليه لينظر ما اصابه منه» فلذلك ينبغي ان نلم بالبواعث التي بعثت هؤلاء المستشرقين على دراسة اللغات الشرقية بوجه عام والعربية بوجه خاص حتى نتعرف على قصدهم لنتخذ الحيطة فيما نقبله او نعيد النظر فيه من الابحاث التى قدموها للعالم الاسلامي كابحاث علمية بعيدة عن الشهوات والاغراض ؛ فانه يجب على كل عاقل ان يميز بين ما يقدم اليه لياخذ النافع ويمتنع عن الضار في جميع المجالات .

كلمة توجيهية لطاغور شاعر الهند :

وفي العهد الاخير وجه شاعر الهند ومربيها الكبير طاغور كلمة قيمة في مؤتمر عام لطلبة المدارس عقد تحت رئاسته في حاضرة البنجات في الهند ؛ ينبغي لفت نظر طلبتنا اليها حيث قال : كانت الهند في زمن من الازمان تسيطر على شؤون حياتها سيطرة تامة كان ذلك عندما كان وجدانها حيا ، وعقلها نيرا ، فكان يتحرك ويشتغل بنفسه ، ويخترع افكارا نافعة ، ويضع مبادىء صالحة ولا يدع النور يختفي بل يحافظ عليه ويزيده رونقا وبهاء .

لقد خلق الانسان ليبني عصره في كل زمن بقواه العقلية ، وبتضحياته التي يفرضها عليه الحب العام الطاهر ، وان الانسان الهمجي المنحط هو الذي يعيش على كل ما يقدمه اليه الغير .

ثم قال نحن معشر الهنود قد وقعنا في العهد الحاضر فرائس باردة لما ينتجه العقل الغربي وسبب ذلك انا فقدنا الثقة بقوانا العقلية ، وليس هذا فحسب بل يوجد بيننا اناس يرون الفخر كله في تقليد الغربيين دون ان يشعروا بانه ليس كل شيء اجنبي يصلح لنا بل هناك امور تضر بنا ضررا بليغا ، ولا يجوز لنا ان نفتخر الا بعد ان نستطيع ان نجود على الآخرين بما انتجناه بانفسنا . انتهى كلامه» وفي هذا التوجيه ما يحفز همة الشباب الحي الى الاعتماد على النفس وتقدير مسؤولياته حتى يؤدي مهمته في نهضة امته وتاريخها على احسن وجه ويبني لها من المكرمات ما تعتز وتفخر به بين الامم من العلوم والفنون والآثار التاريخية العمرانية التي تلفت اليها الانظار ، وتبهر الابصار كما بنى اسلافنا من قبل مما لا يزال خالدا عظيما في الوجود .

وقد سمعتم في اثناء محاضرة الاسبوع الماضي ذلك العرض التاريخي القيم من اخينا ورفيقنا في الكفاح الوطني الاستاذ الجليل السيد محمد الخطيب ان بعض الاسبانيين اندمجوا في المجتمع المغربي وفي الوسط العلمي بالخصوص واتقنوا اللغة العربية والعلوم الدينية وانتحلوا دين الاسلام ظاهرا ليتوصلوا لاغراض دولتهم وليبسط نفوذها على اطراف هامة من المملكة المغربية كما سمعتم بان القصد الحقيقي هو نشر العقيدة المسيحية ، وبالطبع لا يتأتى ذلك في وسط اسلامي الا بمحاربة عقيدة التوحيد التي هي عماد دين الاسلام وبالطعن في شريعة الاسلام بما يتأتى من الوسائل ، وذلك جزء من المخطط الاستعماري الذي جعله السياسيون الغربيون من اهم وسائلهم لامتلاك البلاد الاسلامية والسيطرة على اهلها ، حتى اذا انتهت السيطرة المادية خلفتها السيطرة الفكرية ، ولذلك لا زالت المؤسسات الكنيسية تمون البعثات التبشيرية في صور مختلفة في العالم الثالث اما في شكل اسعافات طبية او ملاجيء خيرية او مدارس تعليمية او غير ذلك من الوسائل ، ومن المهم جدا ان نستمع الى نفس احاديث المستشرقين انفسهم عن اطوار الاستشراق وغاياته وما سجلوه على انفسهم في مؤلفاتهم الخاصة في هذا الموضوع .

مستشرق كبير يتكلم على نشاة الاستشراق وسببه في اول الامر ديني وفي آخر الامر ديني واستعماري

انتدبت الجامعة المصرية المستشرق الكبير نلينو الاستاذ في جامعة روما بايطاليا لالقاء محاضرات على طلاب الجامعة المصرية ، فاجرى معه مندوب مجلة الهلال حديثا فيما نشر في مجلة الهلال عدد 5 من مجلد 36 بتاريخ مارس 1928 نقتطف منه فقرات توضح لنا السبب الذي بعث المسيحيين على دراسة اللغة العربية ، ففي حديث المستشرق الايطالي نلينو ان رجال الدين في اوربا كانوا اذا درسوا التوراة او الانجيل وكلاهما شرقي عثروا فيهما على مجازات واستعارات غريبة عن العقلية الاوربية ، فشرعوا لهذا السبب يدرسون اللغات الشرقية التي تتصل بثقافة الساميين مثل العبرانية والعربية ووجدوا من درس العربية مثلا كثيرة من العبارات التي كان يشق عليهم فهمها في التوراة ، وليس هذا غريبا فان التوراة كتبت على الانماط والتعابير التي كتب بها كثير من الشعر الجاهلي .

ولهذا السبب شرع البابوات منذ القرنين الثالث عشر والرابع عشر اي قبل اختراع المطبعة يامرون بدرس اللغة العربية في جامعتي روما وبولونيا ، والارجح ان بعض الباباوات كانوا يعرفون العربية .

يقول المستشرق نلينو ولكن ايطاليا سبقت اوربا في درس العربية لجملة اسباب اخرى غير السبب الديني الذي ذكرناه منها انها كانت السابقة في النهضة الاوربية ومنها انها بطبيعة مركزها قريبة من تونس والجزائر ، ومنها ان العرب احتلوا صقلية مدة طويلة حتى ان الادريسي الف كتابه المشهور عن الجغرافية للملك روجر صاحب صقلية وحتى ان فيبوناتشي رحل الى بجاية في الجزائر وعاد الى ايطاليا في القرن الحادي عشر فادخل الجبر والمقابلة الى اوربا .

واذكر بهذه المناسبة ما صرح به الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله حفظه الله في بحث نشر في كتاب ذكرى القرويين مما يقال بان جلبير وهو البابا سلفستري درس بالقرويين وادخل الارقام الى اوربا فتنظر في تتمته في ص 119 من كتاب ذكرى القرويين .

الرباط ــ محمد الطنجي

الإسلام والشورى

للأستاذ عبد الله الجراري

لقد رفع الاسلام مكانة الشورى باعتبارها عنصرا اساسيا من العناصر التي تقوم عليها الدولة الاسلامية ، وانزل الكريم سورة من سور القرآن باسمها « الشورى »

ذلك ان الاسلام اتى لبناء عالم حر يقوم على الآراء الناضجة المبنية على تبين وجه الحق بعد البحث الاستقلالي ، واعمال الفكر ، وتبادل الآراء ، وقيام شركة فكرية بين الافراد الذين يعنيهم الامر ، اذ كل فرد ينظر الى الموضوع من زاوية قد لا ينظر منها غيره ، ويستخرج وجها من وجوه الحق قد لا يبدو لغيره ، وهنا تتعارك الآراء ، وتوضع تحت محك التمحيص والموازنة والقبول والرفض ، والتقديم والتاخير ، والترتيب ، فاذا جوهرة الحقيقة تبدو لامعة ناصعة وقد تخالفت العقول المختلفة على تنقيتها من الشوائب لحد تصبح معه ملكا للجميع يرضى عنها الجميع ، حيث لا يدعى فرد معين نسبتها اليه ولا يستطيع ان يخرج عليها فرد معين لانها بنت الجماعة ، وثمرة الاجماع .

فالشورى اصل اساسي جوهري في ادارة الشؤون الجماعية ، ولا بد لها من كفالة الحرية التامة في ابداء الآراء ما لم تمس اصلا من اصول الدين . وبتقرير الاسلام لمبدئها اصبح قاضيا على الاستبداد بالحكم او الراى ، مجهزا على احتكار السلطة الفردية ، محققا للفرد كرامته ، وللجماعة حقها الطبيعي في تقرير شؤونها .

وقد قرر الاسلام مبدا الشورى ولكنه ترك نظامها دون تحديد لكي يتيح للناس ان يختاروا في كل عصر وكل بيئة ما تدركه عقولهم ، وتتطلبه مصالحهم من طرق الشورى اذ ان شؤون الناس متعددة بتعدد عناصر الحياة ، ومتطورة بتطورها . وليس من الشورى ان يكون الانسان مقلدا آراء غيره تابعا لها تبعية انقياد بل يكون باحثا لها موافقا عليها عن بصيرة وفهم واعتناق يوازن بينها وبين ما تتركه من الآراء الاخرى ، ولكن هل نستطيع ان نعد كل فرد صالحا لان يكون من اهل الشورى ايا كان ذلك الفرد ؟ وما موقف عامة الناس اذا من الشورى في الامور العليا التي لا ترتقي اليها مداركهم ؟

الجواب : ان للشورى اهلها ورجالها وهم وحدهم اولوا الامر فيها وهم مصادرها الذين تصدر عنهم ، وعلى سائر الامة ان تطيعهم وتاخذ بمشورتهم .

يقول الله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله والرسول واولي الامر منكم » وطبعا ان اهل الشورى هم اولو الامر من الامة الذين عرفوا بكمال الاختصاص في بحث الشؤون المختلفة وادراك المصالح فيها والغيرة عليها ؛ وكانت اطاعتهم هي الاخذ بما يتفقون عليه في المسائل ذات النظر والاجتهاد او بما ترجح فيها عن طريق الاغلبية او قوة البرهان ، واولو الامر في الشورى كثير ، منهم الرؤساء والحكام والعلماء والفقهاء ونواب الامة ومجالس الغرف الاتحادية والنقابات وكل المؤسسات التي تتكون مجالسها عن طريق الانتخاب الذي يتمكن فيه كل فرد من اختيار الممثلين للجماعة عن جدارة واهلية واطمئنان اليهم .

يقول الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه :
« لم يكن احد اكثر مشورة لاصحابه من رسول الله » وقد خاطبه الله جلت قدرته بقوله : « وشاورهم فى الامـــر » .

وصفهم سبحانه فى آية اخرى بقوله : « وامرهم شورى بينهم » .

وورد عنه عليه السلام : « ما تشاور قـــوم قط الا هدوا لارشد امرهم » .

وقد كان صلوات الله عليه النموذج الاعلـى فى ذلك اذ كان ينزل على راى الكثرة فى كل الامور الدنيوية التي لم ينزل فيها وحي — ففي غزوة « بدر الكبرى » نزل الرسول الاعظم باصحابه ادنى ماء فقال له الحباب ابن المنذر :

اهذا منزل انزله الله ليس لنا ان نتقدمه او نتاخر عنه ام هو الراى والحرب والمكيدة ، فقال الرسول : بل هو الراى والحرب والمكيدة . فقال الحباب : ليس هذا بمنزل ، فانهض بالناس حتى تاتي ادنى مـــاء من القوم فتنزله ، فقال النبي : لقد اشرت بالراى . وعمل بما راى الحباب .

وهذه غزوة احد نرى الرسول الاكرم صلوات الله عليه يجمع صحابته حينما ترامى النبأ بان قريشا جمعت قواتها لغزو المدينة وملاقاة العدو فى احـــد ، وكـان الرسول يرى غير هذا الراى ، ولكنه نزل عنـــد راى الاكثرية . ولما لبس لامة الحرب وتهيأ للخروج قال الناس : بعضهم لبعض لقد اكرهتم رســـول الله على الخروج وهو كاره له ويتحدث رجال فى النـــزول على رايه هو دون راى الجماعة فيرفض ذلك ويقول : « ما كان لنبي اذا لبس عدة الحرب ان يخلعها حتى يقاتل »

واخرج ابن مردوية عن علي انه قال : سئـــل رسول الله عن العزم فى قوله تعالى : « وشاورهم فى الامر ، فاذا عزمت فتوكل على الله » .

فقال : « مشاورة اهل الراى ثم اتباعهـــم » ، ويقول الحسن البصري فى تفسير هذه الآية :

قد علم الله ان رسوله ما هو بحاجة اليهم ، ولكن اراد ان يقتدي به من بعده ، وقد نهج الرسول فى تربية اصحابه على هذا المبدا فكان رائدهم فى الحكـــم من بعده وبخاصة فى اعلى مسائل الحكم وهي الخلافة .

لقد فتح الاسلام امام المسلمين اوسع ابـــواب التطور بتقديس مبدا الشورى ، ولم يحـــدد طريقـــة معينة ، ولا نظاما مفروضا ، ولكن الاســـلام اهـــاب بالفرد ان يكون حر الراي فى مشورته ، والا يكون امعة تابعا لغيره تبعية عمياء ، « ولست بامعة فى الرجـــال يـــسائل هذا وذا ما الخبر » ويوضح هذا المعنى حديث الترمذي عن الرسول الاكرم عليه السلام : « لا يكـــن احدكم امعة يقول : انا مع الناس ، ان احسن الناس احسنت ، وان اساءوا اسات . ولكن وطنوا انفسكـــم ان احسن الناس ان تحسنوا ، وان اساءوا ان تتجنبوا اساءتهـــم » .

ثم فى آية « وشاورهم فى الامر » ايماء الى وجوب العزيمة متى استكملت شروطها التي اهمها المشورة ـ وسر هذا ان نقض العزائم خور فى النفس ، وضعف فى الاخلاق يجعل صاحبه غير موثوق به فى قول ولا فعل ولا سيما اذا كان رئيس حكومة ، او قائد جيش ، ومن ثم لم يصغ النبي صلى الله عليه وسلم الى مشورة من رجع عن رايه الاول وهو الخروج الى احد حين لبس لامته وخرج ، اذ راى ان هذا شروع فى العمل بعد ان اخذت الشورى حقها وبذلك علمهم ان لكل عمل ميقاتا محدودا . وان وقت المشورة متى انتهى جـــاء دور العمل ، وان الرئيس اذا شرع فى العمل تنفيذ للشورى لا يجوز ان ينقض عزيمته ، ويبطل عمله ولو كان يرى ان اهل الشورى اخطأوا الراى والتدبير كما فى حديث قضية احد الملمح اليها آنفا .

ولا يزال اهل السياسة والحرب فى البـــلاد ذات الحضارة والمدنية يجرون على هذه القاعدة ويجعلونهم دستورا لاعمال اممهم ولا ينقضونها على اى حـــال ، حتى قال احد كبار ساسة الانجليز : ان السياسة متى قررت شيئا وشرعت فيه ، وجب امضاؤه وامتنـــع نقضه والرجوع عنه وان كان خطأ .

واذا كانت ظاهرة المشورة بهذا الاعتبار ادركنـــا عن ايمان واقتناع ما تحتويه من منافع لها قيمتهـــا الجامعة فى تقدم الشعوب واحرازها على الانتصارات والانتصارات المطردة .

فمن يمنها تخليص الحق من احتمالات الخواطر ومنها الاقدام الدال فى جلاء على القوة والرجوليـــة ، ومنها ظهور مقادير العقول والافهام ومقدار الحـــب والاخلاص لصالح العام ، اذ فى ذلك اجتماع القلـــوب على انجاح المسعى الواحد ، واتفاقها على ما يساعـــد

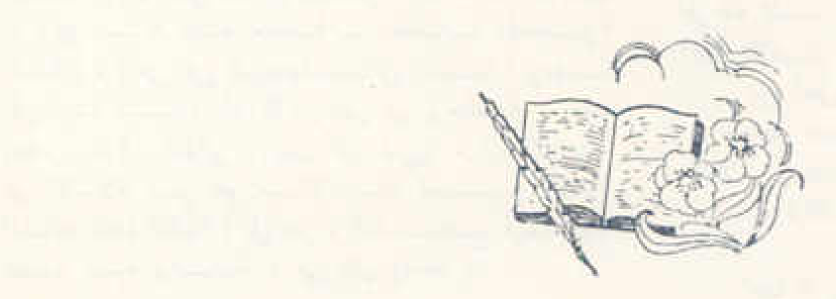
على حصول المطلوب ، ومن هذا المعنـــى شرعــت الاجتماعات في الصلوات وكانت صلاة الجماعة افضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة .

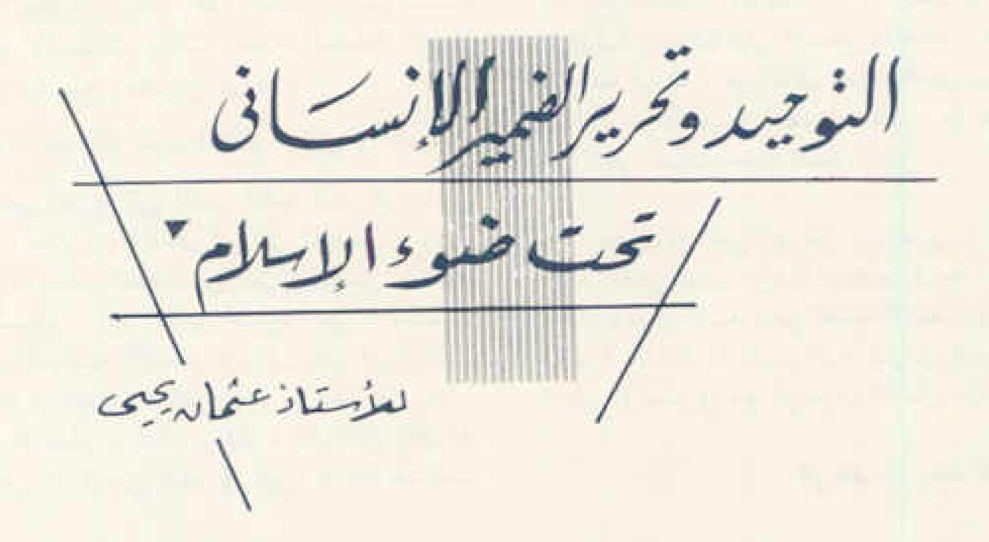
وهذا ما سلكه الرسول الاعظم مرتين في بدر .

1) حين خرج الى العير فبلغه انهم قريــش فقال للناس : ما ترون ؟ فقال ابو بكر فاحسن ، وقال عمر فاحسن ، وتكلم المقداد بن عمرو فاحسن . فقال النبي عليه السلام : ايها الناس اشيروا علي ، وانمــا يريد صلوات الله عليه الانصار ، وكان يظن ان الانصار لا ينصرونه الا في الدار ، فتكلم سعد بن معاذ قائــلا : انا اجيب عن الانصار . كانك تريدنا ، قال اجل انك قد خرجت في امر قد اوحى اليك في غيره ، فانا قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا ان ما جئت به حق ، واعطينا مواثيقنا وعهودنا على السمع والطاعة ، فامض يانبــي الله لما اردت ، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضــت هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما بقي منا رجــل الى آخر كلمات سعد البطل الحر .

يقول القاضي ابو بكر بن العربي : ولقد انصــف سعد فقضى نحب ربه ، ونحب قومه ، ونحب نفسه ، وجاء بالقول الاسد ، من القلب الاشد ، والراى الاسعد، والمرة الثانية ما اشير اليه قبل في قصة الحباب بن المنذر الانصاري مع الرسول الاكمل عليه السلام .

الرباط : عبد الله الجراري





في نطاق الموضوع العام ، المخصص لندوة هذا المساء ، يطيب لي ان اعرض عليكم نظرية التوحيد في العقيدة الاسلامية ، وصلاتها القريبة او البعيدة بتحرير الضمير البشري وتكامل الشخصية الانسانية .

وقد يبدو ، لاول وهلة ، عنوان هذه المحاضرة شذوذا او نشازا في سلسلة احاديث هذه الندوة المسائية . اذ يحق لنا ان نتساءل : ما علاقة التوحيد – وهو مسالة دينية محضة – بالقضايا المعاصرة للاسلام ، وهي في طبيعتها مشاكل زمنية ؟ ومهما يكن لهذا التساؤل او الاعتراض من وجاهة ، فانه يجدر بنا ان نتذكر ، قبل كل شيء ، ان التوحيد في الاسلام ليس هو مسالة دينية فحسب (بالمعنى الشائع لهذه الكلمة) بل هو ، كما سيتضح فيما بعد، قضية دينية وانسانية ، في ءان واحد .

ومن جهة اخرى ، يحسن ان نتذكر في هذا المقام خاصة ، ان مشاكل العالم الاسلامي وغيره ، في العصر الحديث ، هي في صميمها مشاكل فلسفية ومذهبية : كيف نحدد موقفنا تجاه التيارات الفكرية المتعددة المتضاربة في العصر الحاضر ؟ ما هي وسائلنا في اختيار الطريقة الملائمة لنا في الحياة؟ كيف نعمل من اجل الاحتفاظ على شخصيتنا المعنوية والحفاظ على مقوماتنا الذاتية ، امام القوى الاجنبية المتغلبة المتسلحة ؟ .. هذه الاسئلة الخطيرة وغيرها لا تجد جوابها الشافي ، وبالتالي لا تظفر بحلها النهائي ، الا على ضوء الفكر ونور العقيدة . ان المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية هي ، في اساسها ، مشاكل العقل البشري الذي يبحث دوما ، او يجب عليه ان يبحث دوما عن الافضل والاكمل ، انها مشاكل الروح الانساني المتطلع ابدا الى الامام . وهذا البحث الدائب عن الافضل والاكمل من جانب العقل ، وذلك التطلع الابدي الى الامام من قبل الروح ، كل ذلك مرتبط تماما بنظرتنا في الانسان والاشياء ، وفلسفتنا بالكون ورب الكائنات . وفكرة التوحيد ، ايها السادة ، هي ، بكل دقة ، طريقة المسلم في الحياة ، وفلسفته الخاصة لفهم الله والانسان والوجود !

من اجل هذا كله ، بدا لنا انه جدير بالاعتبار ان تستهل ندوة احاديث هذه الامسية الجميلة ، بالكلام عن عقيدة التوحيد وتحرير الضمير الانساني تحت ضوء الاسلام .

— ◆ —

مما لا ريب فيه ان التوحيد اساس الاديان جميعا، والقاسم المشترك بينها كلها . وفي نظر القرءان الكريم ، هذه العقيدة الكبرى هي الغرض الاصيل لوحي السماء، والهدف المباشر لبعثة الانبياء. ومع ذلك ، يستطيع الباحث ان يلاحظ من وجهة علم الاديان المقارنة ان مبدا التوحيد قد اتخذ في ظلاله الدعوة المحمدية ، مفهوما جديدا ، واختط له طريقا واضحا محددا ، وظهر على مسرح التاريخ الديني بصورة متميزة مبتكرة . ان نظرة الاسلام التوحيدية ، في الواقع ، كانت المصدر الذاتي الخصيب لسائر عقائده اللاهوتية وشعائره الدينية ، والنبع الصافي الفياض لنظمه السياسية والتشريعية . فعن وحدة الخالق الاعظم ، انبثقت نظريات الاسلام الخاصة

بوحدة الاديان السماوية، والعوالم الكونية، والاجناس البشرية .

حين يستعرض مؤرخ الحضارة الاسلامية نظرية التوحيد ومظاهرها وتطورها عند الاسلاميين ، وبصورة خاصة عند اهل السنة والجماعة ، يجد انها شغلت دورا كبيرا وهاما عند ثلاث فرق منهم : عند المعتزلة والسلفية والصوفية . فكل من تلك الجماعات ، كان التوحيد ميدانا فسيحا لنشاطها العقلي ، وحقلا ثريا لانتاجها العلمي . وقد ترك كبار رجال الاعتزال والسلفية والصوفية ، للاجيال بعدهم ، تراثا فكريا حول مبدا التوحيد ، يتصف حقا بالاصالة والعمق والشمول . ويستطيع الباحث ان يرصد بغير عناء ، من خلال اراء المعتزلة والسلفية والصوفية فى مباحث التوحيد ومسائله ، نماذج حقيقية وصورا واقعية لتفكير ايجابي سليم ، اثيرت مشاكله من قضايا ذاتية مباشرة ، والفت مواده من مواضيع اسلامية صرف ، ثم صيغ منها جميعا نظرية عامة امكن تطبيقها ببراعة ودقة ، على مظاهر متعددة من الحياة الدينية والاخلاقية والاجتماعية .

التوحيد عند المعتزلة

كان رجال الاعتزال، على ما يبدو، اول من اثار مشكلة التوحيد فى اجواء العالم السني ، كما كانوا فى طليعة المفكرين المسلمين الذين ارسوا دعائم هذه المسالة الهامة الخطيرة ، على اسس نظرية محكمة ، وقد جاهدوا مستميتين فى سبيل تحقيق مبدئهم التوحيدي ، فى ميادين الفكر وفى ميادين السياسة على حد سواء .

فنحن نعلم ان مقالة المعتزلة فى التوحيد ، كانت اولى مقالاتهم الخمس الشهيرة ، التى لا يتم وصف « الاعتزال » الا بها والدفاع عنها. وهذه المقالات ، مع التوحيد على راسها ، هي القول : بالعدل ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ومما هو جدير بالذكر فى هذا الموطن ، كما سيتضح جليا فيما يلي، ان مقالة التوحيد كانت الاساس الوطيد لاراء المعتزلة فى الالهيات (فى مسالة نفي الصفات الالهية ، وحدوث القرءان ، وانكار رؤية الله) ، ـ كما ان هذه المقالة نفسها ، هي على صلة وثيقة بنظرياتهم **«الثورية» فى السببية** العامة ، وحرية الانسان ، والعدالة الاجتماعية . وهذا مصداق ما اشرنا اليه منذ لحظات ، من ان مبدا التوحيد ـ وهو قضية دينية صرفة ـ كان بمثابة المرشد الهادي ، لدى بعض المفكرين المسلمين، لمجابهة كثير من الشؤون العلمية والاخلاقية والسياسية ، ومحاولة لايجاد حل صحيح لها .

وفى الحقيقة ، ان مقالات الاعتزال الخمس تنحصر كلها فى مقالة التوحيد ، او تدور حوله ، او تتفرع وتنبثق عنه . فالقول بالعدل ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ـ جميع هذا ، فى نظر مفكري الاعتزال، هو عين القول بالتوحيد ، من حيث هو مظهر من مظاهره ، او تطبيق له فى جانب من جوانبه ، فى الميادين اللاهوتية والاخلاقية والاجتماعية .

وبيان ذلك ، هو ان الذات الالهية ، فى راي المعتزلة ، لا سبيل للعقل البشري الى ادراكها او معرفتها ، من حيث هي فى نفسها ، وبالتالي لا سبيل الى توحيدها حقا . اذ مثل هذه المعرفة الخاصة للذات الالهية ، لا يجسر الفكر بخواطره ان يشراب اليها ، او ان يتطلع نحوها ، انها تسمو على ماخذ الفكر ، بل هي فوق مستواه بالكلية . ان هذه المعرفة الخاصة هي سر الذات المقدسة ، ونعت غيبها المطلق .

واذن ، كل ما يعرفه العقل الانساني عن الله ، او ما فى استطاعته ان يعرفه : هو : ان الله «عدل» اي : هو الحق الثابت والقانون السرمدي . فالقول بالتوحيد (وهو المقالة الاولى) ليس فى نهاية الامر سوى القول بالعدل (وهو المقالة الثانية) . والعدل بالقياس الى الذات الالهية خاصة ، لا يقصد به المعتزلة معنى اخلاقيا فحسب ، بل امرا اعمق من ذلك بكثير . العدل ـ وهو معقد الطرافة فى تفكير المعتزلة ـ هو ، كما نوهنا به قبل اسطر ، الحق الازلي والناموس الابدي ، وهي الموضوعان الوحيدان للفكر فى معرفته لله ، اي فى ادراكه لوجوده المطلق وكماله اللا نهائي.

ثم عن مقالة العدل ـ وهي لب التوحيد وجوهره ـ نجم القول بالوعد والوعيد ، وهو المقالة الثالثة . والوعد والوعيد هي الثواب والعقاب فى الحياة الآخرة ، كنتيجة طبيعية لسلوك الانسان واعماله فى الحياة الآجلة . انهما ، بهذا الاعتبار ، مظهران دالان على العدالة الالهية ، ومعبران عنها تماما .

وكذلك عن مقالة العدل نفسها ، ظهر رأي المعتزلة الشهير : المنزلة بين المنزلتين ، وهو المقالة الرابعة لهم . وهذا التعبير الفني يقصد به الوضع الخاص ، او الطبيعة الخاصة للمعصية، بالنسبة الى الايمان والكفر ، كما يراد بهذا التعبير ايضا الوضع الخاص، او الطبيعة الخاصة للشخص العاصي ، بالنسبة الى المؤمن والكافر . وهذه المقالة الهامة ، التي اختص بها المعتزلة من بين سائر الاسلاميين ، تصور لنا بوضوح موقف هؤلاء المفكرين تجاه « الخطيئة » ، وكيف انها ذات ءاثار سلبية في الطبيعة الانسانية . فالشخص العاصي ، حال تلبسه بالمعصية ، اصبح في «منزلة بين المنزلتين » : اي لم يعد مؤمنا كما كان من قبل ، لانه سقط عن رتبة الكمال التي هو عليها ، بوساطة المعصية ، — كما انه ، في نفس الوقت ، ليس بكافر، اي لم يصل بعد الى الدرك الاسفل من الانحطاط الروحي .

واخيرا ، نشأ عن مقالة « العدل » ، عند المعتزلة ، القول بوجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر،وهو المقالة الخامسة لهم.وهذه الفكرة الجريئة(هي السمة البارزة لرجال الاعتزال) ، والطابع المميز لهم في نشاطهم الاجتماعي ، ومساهمتهم الفعالة في الشؤون المدنية . انها انتصار رائع لتفكيرهم العميق في مباحث التوحيد والعدل ، وتطبيق مباشر لها في حقول الحياة الاجتماعية .

والخلاصة ، نستطيع ، على ضوء ما تقدم ، ان نجمل راي المعتزلة في فكرة التوحيد على النحو الآتي: مقالة العدل، بصورة خاصة، هي تحديد دقيق لمفهوم التوحيد الاسلامي ، وتطبيق له في ميدان الالهيات . — والمقالات الاخرى، التي هي الوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، هي ايضا ، وفي نفس الوقت ، تحديد دقيق لمفهوم ذلك التوحيد ، وتطبيق له في ميدان الاخرويات والاخلاقيات والاجتماعيات . — وعلى هذا ، تكون فكرة التوحيد ، عند رجال المعتزلة ، بمثابة الاساس الغيبي الذي مكنهم من مجابهة المشاكل الكبرى التي تعرضت لها البشرية منذ فجر التاريخ (ولا تزال معرضة لها) وهي : الله — والانسان — والكون .

— ◆ —

والواقع ان المعتزلة لم يبتدعوا القول بالتوحيد، ولم ينفردوا به : اذ هو شعار المسلمين جميعا . ولكنهم امتازوا عن سائر الفرق الاسلامية بهذا المفهوم الخاص للوحدة الالهية ، وبتلك الآفاق الواسعة التي اكتشفوها من معاني التوحيد ومقتضياته . وهم ، من اجل ذلك ، قد عرفوا في تاريخ العقائد : « بأهل التوحيد واهل العدل » ؛وكان هذا كله مبعث افتخارهم الزائد ، ومثار اعتزازهم الشديد .

ان المحافظة على «الوحدة» في صفائها وسموها، كانت محور ابحاث رجال الاعتزال في الالهيات ، واساس تفكيرهم العميق في الطبيعيات والكونيات، كما ان الحرص على انتصار مبدا «التوحيد» في حياة الفرد وفي حياة المجتمع ، كان مدار اهتمامهم البالغ في الاخلاقيات والاجتماعيات . وقد ترك لنا الامام الاشعري في « مقالات الاسلاميين » نصوصا عديدة تصور ءاراء المعتزلة في التوحيد ، وتلخصها احسن تلخيص ، نختار منها النص التالي :

« ان الله واحد ليس كمثله شيء ، وليس بجسم (...) ولا شخص ولا جوهر ولا عرض (...) ولا يجري عليه زمان (...) ولا يجوز عليه الحلول في الاماكن ، ولا يوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على حدوثهم (...) وليس بمحدود ، ولا والد ولا مولود (...) ولا تدركه الحواس (...) ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه (...) ولا تراه العيون (...) ولا تدركه الابصار ، ولا تحيط به الأوهام . شيء ، لا كالاشياء . عالم ، قادر ، حي : لا كالعلماء ، القادرين ، الاحياء . وانه القديم وحده ، لا قديم غيره ، ولا اله سواه (...) ولا معين على انشاء ما انشا . ولم يخلق الخلق على مثال سبق » (مقالات الاسلاميين : فصل في «شرح قول المعتزلة في التوحيد وغيره ») .

— ◆ —

يجب أن نعترف بكل بساطة، ان نظرة الذات الالهية ، في ميدان الانتولوجيا ، كانت قاصرة جدا ، كما ان نظريتهم في « الوحدة » ، على صعيد الانتولوجيا ، هي جزئية غير شاملة ، وهذا ، مع اقرارنا العميق بمجهودهم العظيم الخصب في حقول الآداب والعلوم والمعارف . لقد عرض علينا رجال الاعتزال صورة للالوهية هي — للاسف الشديد — حبيسة (في) اغلال اطلاقها (المقيد) ، وكان الاحرى بهم وهم دعاة الحرية والتحرير — تنزيه الالوهية عن كل قيد او شرط ، حتى عن قيد « **الاطلاق بشرط لا** » ... وقد نجم عن فكرة المعتزلة في التوحيد

والوحدة مشاكل لاهوتية معقدة، كان لها أصداء عميقة فى ارجاء العالم الاسلامي كله ، وهي مشاكل الصفات والقرءان والرؤية الالهية .

فالصفات الالهية ، فى نظر اهل الاعتزال ، لا حقيقة لها موضوعيا ، فيما وراء العقل البشري. انها، بطبيعتها ، معان مجردة ينتزعها الفكر من تلقاء نفسه، ويطلقها على الذات المقدسة ، كنعوت لكمالها المطلق ، وشؤون لماهيتها المتعالية . اما وصف الله بها حقيقة ، او اتصافه فيها ، فهذا وذاك امران يفضيان الى ضرب شنيع من الكثرة ، التى يجب ان تتنزه الذات العزيزة الجناب عنها .

وكذلك يعتبر المعتزلة الكتب السماوية جميعا ــ بما فيها القرءان الكريم ــ من قبيل الظواهر الكونية تماما : انها مخلوقة وحادثة مثلها . والقول بازلية القرءان وسواه من الوحي الالهي ، يؤدي الى تعدد القدماء، وهو يتنافى مع الوحدة السامية .

وينكر المعتزلة ايضا « الرؤية الالهية » ، ان فى الحياة الدنيا او فى الحياة الآخرة ، وذلك باسم « الوحدة المقدسة » ، وباسم تنزيهها المطلق . وهم يتاولون النصوص الدينية الواردة فى هذا الموضوع ، او يردونها بتاتا . لان حصول «الرؤية» عندهم ، يلزم عنه محالات عقلية لا مناص منها : وهو تحديد الذات الالهية فى نطاق الزمان والمكان والمادة !

اذن ، القول باثبات الصفات وتعددها ، هو ، على راي مفكري الاعتزال ، مناقض لوحدة الذات الالهية وتنزهها . غير ان الصفات ، من حيث ثبوتها وتعددها ، هي بالضبط مجلى كمالات الله ومظهر وجوده الخارجي ، فاذا «عطل» عنها الاله ، فكيف يتيسر للعقل ادراكه ، وبالتالي كيف يمكن توحيده ؟ وبتعبير ءاخر اشد وضوحا : اذا انتفت الصفات الثبوتية عن ذات الالوهية ، فكيف فى هذه الحالة ، تفهم صلات المرء بخالقه ، فى رهبته ورغبته ، فى نسكه وعبادته ، فى نجواه وتأملاته ؟ بل كيف تفسر ، على نحو معقول ، ظواهر الخلق فى مسرح الكون والوجود ؟ ان تصورنا ذاتا الهية « معطلة » ، هو بعينه كتصورنا « بئرا معطلة » ، اعني بئرا لا ماء يترقرق فيها ، ولا ظلال تنداح لديها ، ولا ازهار ترف حولها : فكيف يجد عندها ذو الغلة الصادي اطفاء لهيب عطشه فى صحراء الحياة ؟

تلك هي بعض النتائج الخطيرة لمقالة المعتزلة فى « الصفات » ، وموقفهم السلبي تجاهها .

وكذلك الامر بخصوص مشكلة خلق القرءان الكريم . اذا كان الوحي الالهي ــ وهو رمز الصلة الحية بين الخالق والمخلوق ، ومظهر العناية السماوية بالانسان ــ اقول : اذا كان هذا الوحي الالهي فى مستوى الظواهر الكونية الحادثة ، فما هي ثمراته الفعالة بالقياس الى مصيرنا النهائي وكمالتنا فى الابد ؟ فالمسلم الذى لا يجد فى القرءان مثلا ، سوى « الحكمة المخلوقة » ، لن يتعد فى تطوره المعنوي والروحي ءافاق «العالم المخلوق»، وبالتالي سيتوقف حتما دون العروج او التطلع الى سماء « الحكمة اللا مخلوقة » ، ثم هو فى مقدوره ان يجد امثال هذه « الحكمة المخلوقة » من خلال تجاربه الشخصية فى معترك الحياة .

اجل ! ان عقيدة « ازلية القرءان » . هي التى تتيح لنا ان نتأمل فى صفحات الكتاب الالهي ارادة الله العليا فى الانسان والكون والوجود ، وهي التى تكشف لنا الحجاب عن ناموسه الابدي فنتخذه دستورا مقدسا فى الحياة ، وهي التى تحدثنا بالوسائل الموصلة للعثور على «الكنز المخفي» فيحقق لنا الغنى المطلق ، وللحصول على « الحكمة اللا مخلوقة » ، فتقودنا صعدا الى سماء الخلود . ت وكذلك تحيا الجماعة المؤمنة المسلمة ، بفضل الله ونعمته ، حياة الملائكة الاطهار ، على هذه الارض : ارض الدموع والآلام وعرق الجبين !

واخيرا ، اذا استحالت رؤية الله فى السماء ، وامتنع تجليه عبر « الصور الخالدة » فى نعيم الجنان ، كما يقرر المعتزلة ، قلنا ان نتساءل بحسرة واسى : ما هي حقيقة ذلك النعيم السماوي ؟ وما هي قيمة تلك الجنان الخالدة ؟ اليس النظر الى وجه الله الحبيب هو وحده الجنة ، وهو وحده النعيم ؟ اليس الحجاب عن رؤية وجه الله الحبيب هو وحده العذاب، وهو وحده الجحيم ؟ ــ وصدقت شهيدة العشق الالهي ، رابعة العدوية ، حيث قالت كلمتها الخالدة : « اللهم! الجار ثم الدار » .

— ◆ —

ومهما يكن من الامر فى شيء ، فان النظريات الاعتزالية اذا اخفقت نسبيا او جزئيا فى دائرة الالهيات ، فقد كتب لها النجاح التام فى ميادين الكونيات والاخلاقيات والاجتماعيات ، ومن ثم يمكن القول، دون اي شطط ، بأن المعتزلة كانوا فى طليعة المهدين للفلسفة الطبيعية والاخلاقية والاجتماعية

فى الاسلام . فابحاثهم الواسعة فى «العدل» ، وهو المظهر الوحيد للذات الالهية الذى ينكشف امام الفكر البشري ، كانت مصدر ءارائهم الجريئة فى المعرفة العقلية ، والحرية الانسانية ، والعدالة الاجتماعية .

فعن مفهوم « العدل الالهي » ، الذى هو الحق الثابت والناموس الازلي ، انبثقت فلسفتهم الكونية، التى تعتبر ظواهر الوجود بمثابة تمثيل خارجي للقانون الابدي (= نظرية السببية العامة) ، وءاثار واقعية للطبيعة السرمدية الفاعلة . وفى نظر المعتزلة — وهم مصيبون بذلك كل الاصابة — ان من انكر القانون الالهي ، او القول بالطبيعة الفاعلة ، فقد ابطل عمل العقل ، وبالتالي يكون قد ابطل الوسيلة الوحيدة التى توصل الى معرفة الله وتوحيده ، لان عمل العقل — وهو حقيقة المعرفة — ليس شيئا ءاخر سوى ادراكه لظواهر الوجود باسبابها الواقعية المباشرة .

وباسم العدل الالهي ايضا ؛ اثبت المعتزلة حرية الانسان ومسؤوليته التامة عن اعماله وتصرفاته . فانه اذا كان المرء بالضرورة ذا تبعات مختلفة متعددة، من الوجهة الدينية والانسانية معا، فهذا يقتضي حتما كونه مختارا فى شؤونه ، حرا فى اعماله . ومن نفى الحرية والاختيار فى الانسان ، نفى العدالة عن الله ! .

ثم ان وجود الفرد مرتبط الى حد بعيد بوجود الجماعة التى يعيش معها . فالانسان كما يقول المعلم الاول : « حيوان مدني » ، اي ذو حاجات متشعبة ، مختلفة ، معقدة . فلابد للمرء فى هذه الحالة ، من توفر قسط كاف من العدالة الاجتماعية يحيا بانتظام خلالها ، وينمو بسلام فى ظلالها ، ليحقق رسالته واهدافه فى الحياة . وكل هذا لا يتم ، عند اهل الاعتزال ، الا عن طريق الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

على ضوء ما تقدم ، يستطيع الباحث ان يقرر ان الوجود الالهي ، فى نظر مفكري المعتزلة ، ممتد حقيقة فى الكون، وادراك هذا اللون من الوجود الالهي لا يكون الا بواسطة المعرفة العقلية . ثم ان الوجود الالهي ممتد ايضا فى الانسان ، وهذا يلزم القول بحرية الفرد الشخصية ومسؤوليته التامة عن اعماله. واخيرا ، ان الوجود الالهي ممتد حقيقة فى قلب الجماعات البشرية . وذلك يوجب حتما مشروعية الامر بالمعروف والنهي عن المنكر. فالعدالة الاجتماعية، والحرية الانسانية ، والمعرفة العقلية : تلك هي مظاهر العدل الالهي ، وبالتالي هي عناصر التوحيد الحقيقي ومقوماته الاساسية ، لدى التفكير الاعتزالي .

ويحسن بنا ان نشير ، فى خاتمة هذا البحث، الى ان المعتزلة بقدر ما كانوا « مهائيين » (ان صح مثل هذا التعبير ، اي من انصار نظرية الماهية المجردة (Essentialistes فى ميادين الالهيات ، كانوا ، فى الوقت نفسه ، وجوديين (بادق معاني الكلمة واتمها) امام مشاكل المعرفة والحرية . بيد ان نظرية المعرفة التى شيدوا اسسها ، وفكرة الحرية التى دافعوا عنها ، ونظام العدالة الاجتماعية الذى فرضوه وطالبوا بتحقيقه ؛ — جميع هذا كان منبعثا عن تصورهم العميق لمبدا العدالة ذاته . ان عدل الله فى السماء — مظهر وجوده المطلق ووحدته السامية — هو ، فى نفس الوقت ، عند رجال الاعتزال ، مصدر معرفة الانسان على الارض، وسناد حريته فى الحياة، ومحور نشاطه الاجتماعي .

باريس — عثمان يحيى



القرآن العظيم كتاب عربي مبين ، ما في ذلك من شك ، ووجود الفاظ أجنبية عن لغة الضاد لا تغير من عربيته الا بقدر ما تغير من ذوق البحر قطـــرات من عسل مصفى ترمى في اليم .

وجائز ان يرد علينا راد فيقول : « رايناك تبحث في اللهجات العربية ، غير القرشية ، زاعما انها شركت بالفاظها في القرءان (1) ; فقلنا انه لم يخرجه عن كونه عربيا وان كان لم يبقه مبينا . اما وقد ابعده الان عن عروبته بعد ان بدا يذكر الفاظا منه يدعي انها غير عربية، فامر لا يمكن السكوت عنه بحال من الاحوال » .

فقي اذن هؤلاء احب ان اهمس : « لا ضير علينا ان نقول ان الفاظا غير عربية وزعت في القرءان الكريم ، ان توفر لدينا البرهان الصحيح على وجودها فيـــه ، وما اعتقد اننا بذلك نخالف نصا صريحا في القـــرءان الكريم ؛ فليس معنى الآيات : « وكذلك انزلناه حكمـا عربيا ، ولئن اتبعت اهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق » (2) و « ولقد نعلم انهـم يقولون انما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون اليـــه اعجمي وهذا لسان عربي مبين (3) » و « انا انزلنـــاه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون (4) » و « نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسـان عربي مبين (5) » و «وكذلك انزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون او يحدث لهم ذكرا (6) » و « قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون (7) » و « كذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر ام القرى ومن حولها وتنذر يـــوم الجمع لا ريب فيه ، فريق في الجنـــة وفريـــق في السعير (8) » و « انا جعلناه قرآنـا عربيـــا لعلكـم تعقلون (9) » و « ولو جعلناه قرآنا اعجميا لقالوا لولا فصلت آياته ، اعجمي وعربي ؛ قل هو للذين آمنوا هدى

---

1) وهو بحث ينشر تباعا في مجلة دعوة الحق : ظهرت اول حلقة منه بصدور العدد الثاني من السنة التاسعة ولا زال اخراجه مستمرا حتى اليوم .
2) سورة الرعد الآية 38 .
3) سورة النحل الآية 103 .
4) سورة يوسف الآية 2 .
5) سورة الشعراء الآيات 193 – 194 – 195 .
6) سورة طه الآية 113 .
7) سورة الزمـــر الآية 28 .
8) سورة الشورى الآية 7 .
9) ســـورة الزخـــرف الآيـــة 3 .

وشفاء والذين لا يومنون في اذانهم وقر وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد (10) » و « ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة ، وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لتنذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين (11) » ليست معنى هذه الآيات ان الـ 934 77 كلمة المشتمل عليه هذا الكتاب العظيم كلها ، بدون استثناء ، عربية او كلها قرشية ، وانما يوجد من بينها كلمات ، من اصل غير عربي ، قليلة العدد اذا قيست بهذا القدر الضخم من الكلمات . و « بان الكلمات اليسيرة بغير العربية لا تخرجه عن كونه غير عربي (12) » .

وليس في هذا الإعتقاد الذي ذهبنا اليه غرابة او بدعة ، ما دام علماء اجلاء ، قائتون اعتقدوا ذلك وجهروا به واعلنوه .

اخرج ابن جرير بسند صحيح ، عن أبي ميسرة ، التابعي الجليل قال : « في القرءان من كل لسان » ولقد نقل السيوطي كلاما مقنعا في هذا الباب رواه عن ابن النقيب قال (13) : « من خصائص القرءان على سائر كتب الله تعالى المنزلة انها نزلت بلغة القوم الذين انزلت عليهم لم ينزل فيها شيء بلغة غيرهم ، والقرءان احتوى على جميع لغات العرب ، وانزل فيه بلغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شيء كثير » .

ومن منا او من غيرنا يستطيع ان يقول معتمدا على حجج سليمة ان العربية التي يقصدها القرءان في الآيات الشريفة السالفة الذكر ، هي اللغة القرشية الفصيحة لا لغة جرهم او لغة كنانة او غيرهما ؟ فالاختلاف في هذا الموضوع على اشده ، ولا يمكن ان يكون الا كذلك .

اخرج الحاكم في المستدرك ، وصححه ، والبيهقي في شعب الايمان عن بريدة رضي الله عنه في قوله تعالى: « بلسان عربي مبين » قال : بلسان جرهم . فاللغة العربية حسب هذا الحديث الذي وصل الى درجة من الصحة لا يستهان بها هي اللغة الجرهمية .

واخرج الحاكم ايضا في المستدرك وصححه ، والبيهقي في شعب الايمان من طريق سفيان الثوري عن جعفر بن محمد عن ابيه عن جابر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا « قرآنا عربيا لقوم يعلمون » ثم قال: « اللهم اسماعيل هذا اللسان العربي الهاما » اتدرون متى كان اسماعيل ؟ وكم من اجيال مرت قبل ان ينزل القرءان الكريم ؟ وما هي التاثيرات التي يمكن ان تؤثر في لغة اسماعيل طيلة هذا الامد الطويل ؟ وهل تدرون كم من الفاظ اجنبية دخلت لغة اسماعيل منذ الهمها الى يوم بعث الله نبيه محمدا ؟ .

فاذا كان الحديث الذي رواه بريدة يقول ان اللسان العربي المبين هو لسان جرهم ، واذا كان اسماعيل هو الجد الاكبر لجرهم ولغيرها من قبائل العرب فما بال محمد ابن سلام يقول (14) : « اخبرني يونس عن ابي عمرو بن العلاء ، قال : العرب كلها ولد اسماعيل الا حمير وبقايا جرهم » .

فلهذا كله ولغيره لم يبق البحث مجديا الآن في هل القرءان كله بالفاظ عربية لا تشاركها فيه ولو لفظة اعجمية واحدة ام لا ؟ ما دامت الحجة العلمية والبرهان الصحيح يتوفران الآن على وجود مفردات كثيرة غير عربية فيه .

وما من شك ايضا ان الالفاظ الآرامية (15) في القرءان والتي سابينها في هذا الحديث تشارك العربية الفصيحة في الاصل الاصيل الموحد وهي اللغة السامية الام .

---

10) سورة فصلت الآية 44 .
11) سورة الاحقاف الآية 12 .
12) الاتقان في علوم القرءان ، الجزء الاول صفحة 137 .
13) المصدر اعلاه نفس الصفحة .
14) المزهر في علوم اللغة وانواعها ، الجزء الاول صفحة 33 الطبعة الثالثة .
15) نحيل من اراد ان يعرف تاريخ تطور هذه اللغة وعلاقاتها باللغات السامية القديمة على كتاب : Introduction à l'étude des langues sémitiques لمؤلفه Henri Fleisch حيث سيجد القارىء الكريم جميع المراجع القديمة والحديثة التي تناولت بالدرس هذه اللغة في الصفحات : 19 ، 49 ، 50 ، 55 ، 67 ، 71 ، 72 ، 73 ، 79 ، 86 ، 131 .

ومن المحتمل ان يكون تاثير اللغة الارامية فى اللغة العربية آت من اختلاط العرب بالسريان (16) منذ العصر الجاهلي . ومعلوم ان السريان شعب فى مقدمة الشعوب الارامية ؛ ويظهر أن هذا التاثير بدا مفعوله فى وقت مبكر من العصر الجاهلي (17) ، وتكاد تكون على يقين انه انقطع فى القرن الرابع الهجري ؛ وهو الوقت الذي وقفت فيه حركة الترجمة من اللغة اليونانية الى اللغة العربية عن طريق علماء سرانيين وكلدانيين كانوا يتكلمون باللغة الارامية .

❊ ❊ ❊

حوى القرءان الكريم عددا لا يستهان به من الفاظ هذه اللغة ؛ سنحاول ذكرها ، مبينين مكانها فيه ، مشيرين الى معناها فى الاصل الارامي ، مثبتينها بالخط السرياني ومرتبيها حسب النظام الابجدي .

1 ـ « ا ب » « وفاكهة وابا » (18) التي معناها ثمرة فى هذه اللغة. أحا مطة

ان النظام الابجدي الذي اخترته لدراسة المفردات الآرامية فى القرءان الكريم ، حتم علي ان ابدا بحثي بهذه الكلمة ؛ ولا ادري هل من حسن حظ هذه الدراسة او من سوء حظها ، ان تكون هذه الكلمة فى اولها ، هذه الكلمة التي يمكن ان يكون ما قيل حول تفسيرها رادعا قويا لكل من تسول له نفسه تتبع معاني القرءان والبحث عن مشكلاته ، ذلك ان ابا بكر الصديق رضي الله عنه ، مثله مثل عمر الفاروق ، قد ابتعد عن ذلك ، يروى عن الاول انه سئل عن الاب ، فقال : « اى سماء تظلني ، واى ارض تقلني اذا قلت فى كتاب الله ما لا علم لي به » ويروى عن الثاني رضي الله عنه قرا هذه الآية فقال : « كل هذا قد عرفناه ، فما الاب ؟ » ثم رفع عصا كانت بيده وقال : « هذا لعمر الله التكلف ، وما عليك ، يا ابن ام عمر ان لا تدري ما الاب » ثم قال : « اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب ، وما لا ، فدعوه » .

ها انا ذا ارشدتك للسلاح الذي يمكنك ان تقاتلني به ، اما انا فساجعل من رد الزمخشري على الروايتين المذكورتين درعا تقيني ضرباتك القاتلة ، وما امتنها من درع !! ولا خاب من اتقى بها ! قال جار الله (19) : « فان قلت فهذا يشبه النهي عن تتبع معاني القرءان والبحث عن مشكلاته ، قلت : « لم يذهب الى ذلك ، ولكن القوم كانت اكبر همتهم عاكفة على العمل ، وكان التشاغل بشيء من العلم لا يعمل به تكلفا عندهم ؛ فاراد ان الاية مسوقة فى الامتنان على الانسان بمطعمه واستدعاء شكره ، وقد علم من فحوى الاية ان الاب بعض ما انبته الله للانسان متاعا له او لانعامه ، فعليك بما هو اهم من النهوض بالشكر لله على ما تبين لك ، ولم يشكل مما عدد من نعمه ، ولا تتشاغل عنه بطلب معنى الاب ومعرفة النبات الخاص الذي هو اسم له ، واكتف بالمعرفة الجميلة الى ان يتبين لك فى غير هذا الوقت ، ثم وصى الناس بان يجروا على هذه السنن فيما اشبه ذلك من مشكلات القرءان » .

غير ان ما وجب استنتاجه من كل ما تقدم ان هذه المفردة لم تكن معروفة ، متداولة بين الناس ، تداول الكلمات التي نزلت معها : فاكهة ، متاعا ، انعام ، والا لما وقع هذا الاستفسار الطويل حولها ؛ ولم يكن منتظرا غير ذلك ما دامت المفردة غريبة عن هذه اللغة ، الامر الذي يصحح ما نقول . وشيء آخر يثير الانتباه ، ويعزز غرابتها فى نفس الوقت ، هو ان المفسرين والشراح يعطونها معنى المرعى . فيقول الجوهري : « الاب : المرعى (20) » ويقول الراغب الاصفهاني « الاب المرعى المتهيء للرعي والجز (21) » . ويقول الزمخشري : « والاب المرعى لانه يؤب اي يؤم وينتجع . والاب والام اخوان (22) » .

---

16) لقد تعرض جرجي زيدان الى مدارس السريان التي من المحتمل انها كانت قنطرة مرت عليها علوم اللغة الارامية الى اللغة العربية فى كتابه تاريخ التمدن الاسلامي : الجزء الثالث صفحة 150 طبعة دار الهلال .

17) اما تطور وتاريخ هذه التاثيرات وما آلت اليه من ازدهار او انحطاط فقد طرقه بكثير من التفصيل الاستاذ محمد عطية الابراشي فى كتابه الآداب السامية ابتداء من الفصل الرابع صفحة 42 الى 55 كما اوضح حلول اللغة الآرامية محل اللغة العربية في صفحة 29 .

18) الآية 31 من سورة عبس .

19) الكشاف ، الجزء الرابع ، صفحة 187 .

20) الصحاح الجزء الاول صفحة 86 .

21) المفردات فى غريب القرءان صفحة 8 .

22) الكشاف الجزء الرابع صفحة 186 .

اما الامام جلال الدين السيوطي فيقــول (23) : « اب : قال بعضهم هو الحشيش بلغة اهل الغـرب ، حكاه شيذلة » .

واحسن شرح يمكن ان يرتاح له انسان هو مــا قاله المرحوم جرجي زيدان في كتابه « اللغة كائن حي ، صفحة 52 » قال يبحث عن تطور هــذه الكلمــة : و « انبو » كانت تدل في اللغة السامية الاصليــة على « الثمر » عموما ، وما زالت تدل على ذلك في اللغــة الاشورية ، والارامية . اما في العبرية فقد ادغمت النون في الباء وعوض عنها بالتشديد فصارت (آبة) بتشديد الباء ، عملا بقاعدة جارية في نحو ذلك باللغــة العبرية . ثم شقوا من هذه اللفظة فعلا فقالوا : (ابب) بمعنى اثمر . واما في السريانية فقد اصاب هذه اللفظة نفس ما اصابها في العبرانية ، وصارت (ابا) وهــي تدل عندهم على الفاكهة ، كالتين والبطيخ ، والزبيب واللوز ، والرمان ، واما في العربية ، فقد حدث نحــو ذلك ، ولكن « الاب » صار عندهم للدلالة على الكــلا والمرعى او ما انبتت الارض . وقالوا : « الاب للبهائم كالفاكهة للناس » .

2 ـ « افــك » ينطقــون بهــا في الاراميــة [illegible] ومعناها بهذه اللغة الكذب ، ثم وسعوا معناها فشملت معنى تغيير الراي وافســاده وردت في القرءان الكريم ، بصيغة افك دالة على الكذب سبع مرات ؛ في قوله تعالى : « انما تعبــدون من دون الله اوثانا وتخلقون افكا ، ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا ، فابتغوا عند الله الــرزق ، واعبدوه واشكروا له ، اليه ترجعــون (24) » . وفي قوله : « ائفكا آلهة دون الله تريدون (25) » . وفي قوله تعالى : « ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم ، لكل امريء منهم ما اكتسب من الاثم ، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم (26) » . ثم قال في الاية بعدهــا : « لــولا اذ سمعتموه ظن المومنون والمومنات بانفسهم خيرا وقالوا هذا افك مبين » . وفي الاية : « وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه واعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاءوا ظلما (27) وزورا » . وفي قوله عز شانه : « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا الا رجــل يريــد ان يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ، وقالوا ما هذا الا افــك مفترى ، وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين (28) » . وقوله : « وقال الذين كفــروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه واذ لم يهتدوا به ، فسيقولون هذا افك قديم (29) » . وتاتي كمــا سبق ان قلت بمعنى تغيير الراي وافســاده (30) ، وبه وردت في قوله تعالى : « قالوا أجئتنا لتافكنا عن آلهتنا فاتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين (31) » وهــي مستعملة بكثرة في القرءان بصيغ غير ما ذكرت .

3 ـ « آمن » ومعناها صدق حقيقة اوحاها الله تعالى (32) » والعثور عليها في القرءان الكريم لا يشكل اية صعوبة لكثرة ورودها فيه على صيغ مختلفة ؛ وهي تكتب وتقرا في الارامية : [illegible] وردت على صيغــــة :

— آمــن : 33 مــرة
— آمنــت : مسندة للمؤنثة الغائبة خمس مرات
— آمنــت : مسندة للمتكلم ثلاث مرات .
— آمنتــم : 10 مــرات .
— آمنــا : 33 مــرة .
— آمنــوا : 248 مــرة .
— يؤمــن : 3 مــرات .
— تؤمنون : وتؤمنوا : 20 مــرة .
— تؤمــن : 13 مــرة .
— لتؤمنن : مــرة واحــدة (33) .
— يؤمنون : 105 مــرة .

---

23) الاتقان في علوم القرءان الجزء الاول صفحة 136
24) 17 العنكبــوت .
25) الصــافــات 86 .
26) النــور 11 .
27) الفرقــان 4 .
28) سورة سبا 43 .
29) الاحقــاف 11 .
30) الاب رفائل نخلة اليسوعي في كتابه غرائب اللغة العربية صفحة 173 .
31) الاحقــاف 22 .
32) غرائب اللغة صفحة 173 .

4 ــ « بارك » التي بمعنى سبح ܫܒܚ ܒܪܟ وقد وردت بكثرة في القرءان الكريم ، في أماكن مختلفة كقوله : « ان ربكم الله الذي خلق السماوات والارض في ستة ايام ثم استوى على العرش ، يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره، الا له الخلق والامر، تبارك الله رب العالمين(34)»

5 ــ كلمة « بعير » وقد وردت في القرءان الكريم مرتين ؛ الاولى في قوله تعالى : « ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت اليهم قالوا يا ابانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت الينا ونمير اهلنا ونحفظ اخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير(35)»والثانية في قوله عز من قائل : « قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وانا به زعيم (36) » .

معنى هذه المفردة في اللغة الارامية : « كل دابة تحمل احمالا او تجر مركبة (37) » . ولقد تنبه كثير من الباحثين لقرابتها عن لغة الضاد كالفريابي ومجاهد ومقاتل ، وعنهم روى الامام جلال الدين السيوطي حين قال متحدثا عن كلمة بعير (38) « اخرج الفريابي عن مجاهد في قوله تعالى : « كيل بعير » اي كيل حمار . وعن مقاتل « ان البعير كل ما يحمل عليه بالعبرانية ». والرجاء الا يظن ظان ان بين ما يعتقده مجاهد ، وما ذهبنا اليه فرقا كبيرا يذكر ؛ اذ العبرية ــ الفينيقية اخت شقيقة للارامية . يقول Henri Fleisch ان الارامية قريبة الصلة بالعبرية ــ الفينيقية ، وتشترك الارامية مع العبرية ، من الناحية الصوتية ، في سلسلة من الصفات ، نذكر من بينها على الاخص ، سقوط حركات الاعراب ، واضعاف حركات وسط الكلمات (39) .. »

ويعتقد « G. Bergträsser » أن النطق التقليدي للغة العبرية لم يحتفظ به ولم يدون الا بفضل اناس كانوا يتكلمون بالارامية » .

كما يحسن الا يعزب عن اذهاننا ان الارامية والعبرية كانتا في حقبة من تاريخهما لغتين تمتزجان الواحدة بالاخرى امتزاجا يصعب التمييز بينهما ثم تفترقان لتعود للمزج مرة اخرى . قال محمد عطية الابراشي : « وبالمثل نجد في سفر الاخبار وفي عزرا انتقالا من الارامية الى العبرية ومن هذه الى تلك . وفي الجزء الاخير من نحميا استعير مقدار كبير من اللغة الارامية (41) » .

وتكتب كلمة بعير وتقرا في هذه اللغة على هذا الشكل ܒܥܝܪܐ وتطلق في اللغة العربية على الجمل وعلى الناقة بلا تمييز . والملاحظ ان كثيرا من المفسرين سكتوا عن تفسير هذه المفردة ومن بينهم الائمة جلال الدين محمد بن احمد المحلي وأبو بكر السيوطي والزمخشري .

واحب ان الير الانتباه الى ان هذه المفردة لم ترد في القرءان الكريم الا في سورة يوسف ، وهي موافقة ، تمام الموافقة للغة التي كانت سائدة زمن حدوث هذه القصة . وهذا جانب آخر من اعجاز القرءان العظيم جليل ، نامل ان يتفرغ له اختصاصيون فيبرزونه حجة اخرى ــ ان كان الشاكون في حاجة اليها ــ قاطعة على صدق نبوة النبي الامي الامين ، صلاة الله وسلامه عليه .

6 ــ كلمة : « بقعة » في قوله تعالى : « فلما اتاها نودي من شاطيء الواد الايمن في البقعة المباركة من الشجرة ان ياموسى اني انا الله رب العالمين (42)» ومعناها في اللغة الارامية حقل أو سهل ، وتكتب وتقرا ܒܩܥܬܐ وتدل في اللغة العربية على قطعة ارض ، ولم ترد في القرءان الكريم الا مرة واحدة،

---

33) آل عمران 81 .
34) الاعراف 54 .
35) يوسف 65 .
36) يوسف 72 .
37) غرائب اللغة العربية صفحة 174 .
38) الاتقان في علوم اللغة صفحة 139 .
39) Introduction à l'étude des langues sémitiques صفحة 67
40) Einfrihrung in die Semitichen Sprachen صفحة 60 طبعة منيخ سنة 1928 .
41) الآداب السامية صفحة 29 .
42) القصص 30 .

وتقرا فيه بالفتح والضم (43) . ويروي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي فيها لغتين فيقول (44): « بالضم والفتح : القطعة من الارض على غير هيئة التي الى جانبها » ويجعل الجوهري البقعة من الارض : « واحدة البقاع (45) » وهو كلام لا يجدي فتيلا .

7 — لفظة : « بيت » الموجودة في عدد كبير من الآيات البينات . ولقد وردت هذه المفردة 69 مرة على صيغ مختلفة في القرءان الكريم . ولا شك ان اصلها آت من الفعل الارامي بمعنى اقام

في المكان والذي اعطانا

ويظهر ان مادة « بيت » مادة من اللغة السامية الام ولهذا فهي موجودة ، بتغييرات طفيفة ، في سائر اللغات المتفرعة عن لغة الام .

يقول « J. Lecerf » ان الاسماء الجغرافية المركبة من بيت (وكلمات اخرى) كثيرة الاستعمال ؛ وان الجزء الاول (وهو بيت (46)) يتقلص ، في كثير من الاحيان داخل اسماء الاماكن الشامية — الفلسطينية الى « ب » آخذا اصله من الارامية (السريانية) « Be » ولكنه معروف في اللغة الكنعانية اذا نحن اعتبرنا بعض الامثلة الموجودة في عبرية — الانجيل (47) » .

8 — كلمة : « بيع » الموجودة في الآية : « الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره . ان الله لقوي عزيز (48) ».

ومعناها باللغة العربية المكان الذي يتعبد فيه النصارى اما في الارامية فتدل « على » بضة « قبة كانت في كثير من الكنائس القديمة (49) » .

واعتقد الجواليقي ، نقلا عن بعض العلماء ان البيعة والكنيسة فارسيان معربان وعنه نقل الامام جلال الدين السيوطي الشافعي (50) ، وهو وهم ليس الا .

9 — لفظة : « التبار » وقد وردت في عدة آيات من القرءان الكريم ، جاءت في قوله تعالى : « وكلا ضربنا له الامثال ، وكلا تبرنا تتبيرا (51) » وفي قوله تعالى : « ان احسنتم احسنتم لانفسكم ، وان اسأتم فلها ؛ فاذا جاءوعد الآخرةليسوؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا (52) » وفي قوله تعالى : « ان هؤلاء متبر ما هم فيه ، وباطل ما كانوا يعملون (53) » وفي قوله تعالى : « رب اغفرلي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين الا تبارا (54) » .

يفسر الزمخشري هذه اللفظة بقوله : « والتتبير : التفتيت والتكسير ، ومنه التبر وهو كسار الذهب والفضة والزجاج (55) » .

ولقد صادف جار الله الصواب فيما ذهب اليه ، لان المادتين في الارامية ، كما سترى ، متقاربتان جدا . ويقول اسماعيل بن حماد الجوهري : « التبار الهلاك ، وتبره تتبيرا اى كسره واهلكه (56) » وتبر ماخوذة من الارامية التي بمعنى كسر ، ومنها كما قال الزمخشري ، التبر وهو كسار الذهب والزجاج

---

43) الزمخشري في الكشاف صفحة 165 من الجزء الثالث .
44) القاموس المحيط الجزء الثالث الطبعة الاولى لسنة 1330 هـ صفحة 7 .
45) الصحاح الجزء الثالث صفحة 1187 .
46) الزيادة من كاتب السطور .
47) Encyclopédie de l'Islam صفحة 1174 الجزء الاول الطبعة الاخيرة (1959) .
48) الحج الآية 40 .
49) غرائب اللغة العربية صفحة 175 .
50) الاتقان في علوم القرءان ، الجزء الاول صفحة 139 .
51) الفرقان 39 .
52) الاسراء 8 .
53) الاعراف 139 .
54) نوح 28 .
55) الكشاف الجزء الثالث صفحة 98 .
56) الصحاح الجزء الثاني صفحة 600 .

الذي اتى من اللفظــــة الارامیـــــة [illegible] وجعله جلال الدين السيوطي من اللغة النبطية نقلا عن ابن ابي حاتم عن سعيد بن جبير .

10 ــ لفظة : « تجارة » الكائنة فى تسع آيات بينات من القرءان الكريم . ثمانية ، على صيغة تجارة غير مضافة وهى اولا ، فى اطول آية فى البقرة ، التــي يقول فيها سبحانه : « يا ايها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتــب بالعدل ، ولا يأب كاتب ان يكتب ، كما علمه الله فليكتب ، وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا ، فان كان الذي عليه الحق سفيها او ضعيفا او لا يستطيع ان يمل هو فليملل وليه بالعدل ، واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فان لم يكونا رجليـــن فرجـــل وامراتان ممن ترضون من الشهداء ان تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى ، ولا يأب الشهداء اذا مــا دعوا ، ولا تساموا ان تكتبوه صغيرا او كبيــرا الى اجله ، ذلكم اقسط عند الله واقوم للشهادة وادنى الا ترتابوا ، الا ان تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكـــم فليس عليكم جناح الا تكتبوها ، واشهدوا اذا تبايعتم ، ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وان تفعلوا فانه فســـوق بكم ، واتقوا الله ، ويعلمكـــم الله ، والله بكل شـــيء عليم (57) » . وثانيا فى قوله تعالى : « يا ايها الذيـــن آمنوا لا تاكلوا اموالكم بينكم بالباطل ، الا ان تكـــون تجارة عن تراض منكم ، ولا تقتلوا انفسكـــم ، ان الله كان بكم رحيما (58) » . ثالثا ، فى قوله تعالى : « قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى ياتي الله بامره ، والله لا يهدي القـــوم الفاسقين (59) » . رابعا ، فى قوله تعالى : « فى بيوت اذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيهـــا بالغدو والآصال ، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، يخافون يومـــا تتقلب فيه القلوب والابصار (60) » . خامســا ، فى قوله عز وجل : « ان الذين يتلون كتاب الله واقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجـــارة لن تبور (61) » . سادسا ، فى قوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم (62) » سابعا ، وثامنا فى قوله تعالى : « واذا راوا تجـــارة او لهوا انفضوا اليها وتركوك قائما ، قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة ، والله خير الرازقين (63) » ولم ترد الا مرة واحدة مضافة الى الجمع الغائب فى قوله تعالى : « اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين (64) » . واذا كان معناها فى اللغة العربية معروف وبه وردت فى القرءان الكريم ، فانها كانت تدل فى الآرامية ، فى اول عهدهـــا على بائع خمر [illegible] وهو معنى اغفلنا عنه فى هذا العصر ، وان كانت العرب قد استعملته ؛ اثرا من آثار اصل الكلمة . قال الجرهـــري (65) : « والعرب تسمي بائع الخمر تاجرا قال الاسود بن يعفر :

ولقد اروح على التجار مرجـــلا
بذلا بما لـــي لينـــا اجيـــادي

وتبعه فى ذلك الفيروزابـــادي فقـــال (66) : « التاجر الذي يبيع ويشتري وبائع الخمر » .

11 ــ كلمة : « تنور » الكائنة فى قـــول الله تعالى : « حتى اذا جاء امرنا وفار التنور قلنا احمـــل فيها من كل زوجين اثنين واهلك الا من سبق عليـــه القول ومن ءامن ؛ وما ءامن معه الا قليل (67) » . وفى قوله تعالى : « فاوحينا اليه ان اصنع الفلك باعيننـــا

---

57) البقـــــرة 282 .
58) النســـــاء 29 .
59) التـــوبـــة 24 .
60) النـــــور 37 .
61) فـــاطـــــر 29 .
62) الصـــــف 10 .
63) الجمعـــــة 11 .
64) البقـــــرة 16 .
65) الصحاح الجزء الثاني صفحة 600 .
66) القاموس الجزء الاول صفحة 379 .
67) هـــــود 40 .

وحينا ، فاذا جاء امرنا وفار التنور ، فاسلك فيها من كل زوجين اثنين واهلك الا من سبق عليه القول منهم ، ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون (68) » .

ولقد تعرض لشرح هذه الكلمة كبار اللغويين عندنا ، كابن جني الذي قال في الخصائص : « ان التنور لفظة اشترك فيها جميع اللغات من العرب وغيرهم ، وان كان كذلك فهو ظريف ، وعلى كل حال فهو فعول (بتشديد الواو) (69) او فعول » .

كما نقل لنا عبد الرحمن جلال الدين السيوطي (70) جل اقوال الذين درسوا هذه الكلمة كاحمد بن يحيى الذي يرى ان التنور وزنه تفعول من النار ، وكابن سيدة الذي يقول : « وهذا من الفساد بحيث تراه ، وانما اصل ، لا يستعمل الا في هذا الحرف وبالزيادة ، وصاحبه تنار » .

ولكن السيوطي هذا ، ينقل في الاتقان عن الجواليقي والثعالبي انه فارسي معرب (71) » .

واحب ان الاحظ ان هذه الكلمة « تنور » لم ترد الا مرتين في القرءان الكريم ، ودائما في سياق قصة نوح عليه الصلاة والسلام ، وحين الحديث عن الطوفان الذي وقع آنذاك ، وهي ملاحظة اكاد اقول انها شبيهة بالملاحظة التي ابديتها آن تحدثي عن لفظة البعير ، واملي هنا كما كان هناك ، ان ييسر الله الامر لمن يريد ان يستوفي هذا الموضوع الجليل حقه من الدرس .

واعتقد ان ليس هناك شيء يمنعني — في انتظار ذلك — ان ابدا في القاء الاضواء على هذه المفردة ، عساها ان تكون حافزا متواضعا لمن يريد من علمائنا ان يغوص الى اعماقها ، فيخدم بذلك هذا الكتاب الجليل ، المحفوظ بحفظ الله ، دستور المسلمين الازلي ، الذي لم تعرف ، ولن تعرف البشرية اسمى واعظم منه .

تتركب هذه اللفظة في اللغة الارامية من كلمتين اثنتين ؛ من كلمة « بيت » [illegible] [illegible] التي سبق الاشارة اليها في رقم 6 ، وكلمة « نار » [illegible] [illegible] الدالة على مكان النار ، ركبتها تركيبا مزجيا لا يختلف في شيء عن التركيب المزجي في اللغة العربية ؟ وهكذا تكون عندنا « تنور » [illegible] [illegible]

12 — كلمة : « تين » في قوله تعالى : « والتين والزيتون (72) » ولم ترد الا مرة واحدة في القرءان الكريم . وهي في الارامية [illegible] tino

13 — مفردة « مثقال » في قوله تعالى : « ان الله لا يظلم مثقال ذرة ، وان تك حسنة يضاعفها ويوت من لدنه اجرا عظيما (73) » وقد وردت سبع مرات اخرى في القرءان الكريم (74) . معنى مثقال الشيء : « ميزانه من مثقله (75) » او « ما يزن به وهو من الثقل ، وذلك اسم لكل سنج (76) » ويقال له في الارامية [illegible] matqala

تطوان : الراجي التهامي الهاشمي

---

(68) المؤمنون 27 .
(69) الزيادة من كاتب السطور .
(70) المزهر في علوم اللغة وانواعها الجزء الاول صفحة 167 .
(71) الاتقان في علوم القرءان الجزء الاول صفحة 139 .
(72) التين 1 .
(73) النساء 40 .
(74) 61 يونس ، 47 الانبياء ، 16 لقمان ، 3 و 22 سبا ، 7 و 8 الزلزلة .
(75) الصحاح الجزء الرابع صفحة 1647 .
(76) المفردات في غريب القرءان صفحة 80 .



« ولو ان محمدا بعث فى هذا القرن ، وكان له الامر المطاع لوفق، كل التوفيق ، فى حل جميع المشاكل العالمية ، ولاستطاع ان يقود الناس الى السعادة والسلام »

« جورج برنارد شو »

* * *

« كان محمد متخلقا بتلك الاخلاق التى اذا اجتمعت برجل واحد اهلته لان يكون ذلك الشخص الذي تتوقف عليه مقدرات العالم. لقد كان فى وقت واحد نبيا وجندياوكان بليغا على المنبر ، كما كان باسلا فى ميدان القتال » .

« درابـر »

1) الانسان له بداية هي الايجاد على احسن تقويم من اجل المعرفة فى طريق الحق للحق وله نهاية نحو نفس الحق اذ منه اليه تمتد سبيل الحياة وله غاية فى الدنيا هي تكوين الاكتمال المنشود بواسطة الحق ونصرة الحق بالحق .

2) لا يفتح القلب للاكتمال الا بعقيدة وشريعة وطريقة نحو الحقيقة ولا يهتدي العقل والضمير الا بتوضيح الرسالة لسبل النجاح فى السير بواسطة العلم والتطبيق ، واحسن وسائل التوضيح والتعليم والتطبيق هي التجسيم والتشخيص فى القدوة الحسنة ولا اكمل من ان يتقمص ذلك كله فى المثل الكامل وهي الشخصية المتمتعة بالعصمة من الخطا فى الفكر والعقل والعلم والسلوك فى شخص النبي المرسل .

3) الانسانية جمعاء فى اشد الحاجة الى من يقودها للنجاح والنجاة بفضل العلم والسلوك ، فاذا انقلبت الاوضاع بتضارب الاقوال والافعال يكثر الخبث عقابا ومقتا بعدا عن الحق والحقيقة اذ « كبر مقتا عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون » . فيكفهر جو الحياة الفردية والاجتماعية ويتعكر صفو الاحوال عند الشخص والامة وتتدمر الضمائر ويزداد الشعور متضاعفا بامس الحاجة الى الاصلاح والمصلح والانقاذ والمنقذ اي الى الرجوع الى الحق والعالم الحق والسلوك ويعظم الاحتراس من الوقوع فى نكسة جديدة وضلال متكرر وبذلك يتعلق القلب بطلب الزعيم الكامل الذى يستحق الثقة التامة والطاعة الكاملة .

4) ولا يرتاح الذهن ويطمئن الضمير الا للقيادة النزيهة ذات الزهد والتجرد والعلم احتفاظا بالمثل العليا وصيانة لكرامة التابعين وحماية لشرف الامة وضمانا للمصلحة العامة العادلة عن طريق نصرة الحق بالحق أي باقتران الحق عالما والحق وسيلة والحق غاية فتكون الطهارة كاملة فى النيات والوسائل والغايات .

5) وكلما اتسعت رقعة التعارف الانساني المبني على الوحدة فى الاختلاف اي وحدة قيمة الانسانية وجمع شملها بفضل اختلاف الشعوب والامم وتكامل الاراء والحكم اتسعت ايضا اشواق القلوب الى جامع للشمل الانساني لانه جامع لمكارم الاخلاق

6) بل كلما اكتشفت العائلات الانسانية فى مناكب الارض لبعضها بعضا تعمقت رغبة العلم الصادق والسلوك المخلص والعزة المصونة فى الضمائر التواقة الى تكوين انسان جديد مستنير يتسامى فى سلم النهضة والرقي فرارا من السراب الذى يحسبه الظمآن ماء اي معرفة وحكمة فى كتاب مبين وشفاء لانهيار النفوس فى مجتمع تساوى فيه البشر والحيوان انتاجا واستهلاكا بالاقتصار على الناحية البهيمية منه .

7) ولذلك تكون فى كل نقمة نعمة بانبثاق شعاع الرغبة العرفانية والنيات النورانية فى العقول والقلوب كلما كثر الخبث وانتشر الظلام اذ لا يسارع الانسان الى النور الا فى الظلمة الحالكة التى تملا النفس رعبا من المجهول المحيط والاخطار المحدقة والهول المتسلط .

8) وبامتزاج الرغبة والرهبة تتهيا النفوس الى قبول الرسالة على شرط تاتي على يد النبي لا المتنبي والرسول لا المتحايل لان الاستمرار والاستقرار مضمون الحق وحده فى الارض والنفس معا .

9) فالانسان فى حاجة اذن الى مذهب يجمع شمل الشتات الانساني . ويلبي رغبة الحقيقة عنده الى مطابقة العقل للواقع الظاهر منه والباطن فى نظام الكون والنفس وتوضيح المذهب وتحقيقه فى سلوك رجل اصبح خلقه وشخصه هي ذلك ولم يتوفر هذا المذهب الا فى الاسلام كما هو فى كتاب الله تعالى الجامع لحقيقة الاكوان والعالمين وحكمة الاجيال والرسالات ومكنون الحقائق والاسرار ولا يتوفر هذا السلوك الامثل الا فى شخص الرسول صلى الله عليه وسلم الذى جمع بين شريعة الرسالات وطريقة النبوات فى الحقيقة العرفانية الجامعة للانوار الالاهية وحيا من عند الخالق العليم الحكيم فى شخصية اكتملت فيها سائر الصفات الانسانية .

10) ونظرا لطغيان المال والجاه والشهوات بقلب الحقائق والاوضاع جريا وراء السلوك الضال بدلا من سبيل الرشاد انتشر التشكك فانتشر معه الاستدراج فى حلقة مفرغة جعلت الانسان فى حالة لا يموت فيها ولا يحيى وهو يتراوح بين المتعة القصيرة والراحة الزائفة والمخدرات والفسوق لاطفاء نار الضمير الملتهبة من ناحية ، وبين ثورة على الاوضاع الفاسدة وهو نفسه فاسد فيها ويتمرد على الشقاوة الجارفة والانحرافات المريضة والاراء السقيمة طلبا فى تعديل الاوضاع المقلوبة بتعديل الافكار المقلوبة كاساس لفساد الحالة .

11) وبما ان العقل يعترف بقصوره والسير عامة بنقصانه وان كل عناد فى ذلك يدخل فى دائرة الاستكبار تطاولا على الحق فان ضرورة المعرفة العليا والقدوة المثلى تظهر بحاجة ملحة ومستفعلة تفرض نفسها على الفكر العميق المتفتح بعد التحرر من اقفال القلوب .

12) وهذه المعرفة العليا يجب ان تكون على صورة الوحي تجنبا من التناقض والدور ولا يوجد وحي كما انزل على صورته الاولى الا فى القرءان .

13) اما السلوك الذى اقترنت فيه الاقوال والافعال وامتزجت فيه المعرفة بالتطبيق حتى صار خلقه القرءان فلا يوجد الا فى شخص الكريم بكل معنى الكرامة من علم وامانة ونور واخلاص وصدق وهلم جرا .

14) وبما ان الشوق عند انسان اليوم كسائر البشر فى سائر العصور وبالاخص فى عصر اختلط فيه الحابل بالنابل والسعادة بالشقاوة حتى اصبح ارقى الناس اشقاهم بالانتحار والتسمم بالمخدرات والتسلط على حرية الغير وعبادة العجل اكثر من اي زمان من الازمان ، صار شوقا شديدا الى الحصول على مذهب وقدوة حسنة تتصف بالعصمة من الخطا مع القدرة على جمع كلمة الاسرة الانسانية تدريجيا على اساس العلم الشامل والسلوك الفاضل فان ذلك لا يتاتى الا للمذهب الاسلامي ولنبي الاسلام .

15) ونظرا لوضوح هذه الحقيقة الصريحة عند كل عقل احتفظ بسلامة طبيعته وطهارة فطرته من الاغراض والتمويه والتحايل والمكر فانه ليس من الغريب ان نلاحظ بعض المفكرين خارج دائرة المسلمين يشهدون بحتمية هذه الحقيقة كالكاتب الايرلندي برنارد شو حيث يقول ان فساد العصر الحاضر يحتاج فى اصلاحه الى رجل مثل النبي محمد ولو كان محمد موجودا لرد الامور الى نصابها بحل المشاكل المعروضة .

16) القيادة العالمية اذن لها شروط كلها مبنية على الحق فى المبدا والتطور والمصادر او الغاية القصوى وهذه الحقيقة هي الصلة بين الخالق والمخلوق وبين الانسان واخيه الانسان على اساس المعرفة .

17) فالشرط الاول هو الاستعداد للدعوة والقيادة على اساس وبفضل الحق الهادي الى صراط مستقيم اذ لولا اعتدال الفطرة وسمو الروح وعلو الهمة وتجرد النفس وطهارة وعمق الفكر وغوص المعنى وطاعة الحق لما كانت الاستعدادات الضرورية وذلك منه واصطفاء .

18) والشرط الثاني هو الصلة بين الحق والخلق اي الانسان الذى اصطفاه الحق للقيام بالامر وتلقي القول وهو الحمل الثقيل الذي لا يستحق حمله الا ذوو الاهلية ونظرا للتجرد المطلق لتحمل الامانةمن الحق المطلق الى كافة الخلق يكون البشر كلهم فى رضى وطمانينة لحرص القائد العظيم بطاعة الحق اولا وبالزهد فى حطام الدنيا وبهرجة الجاه على كرامة الانسان كلها تقوى وخشية من طغيان العقلية الفرعونية والعقلية السامرية وبطاعة الرسول لربه يستحق طاعة البشرية له للوصول فى التحقيق الى اعلى درجة الكمال قبل المعراج وبعد سدرة المنتهى فتكون الرعية محوطة بالنور والعزة والكرامة لانها اطاعت ربها فى اوامر نبيها القائد الرحيم فى حضرة ذي العزة والجلال والاكرام .

19) والشرط الثالث هو قيام الدعوة والقيادة عن علم لتدبير شؤون الدنيا والدين فى ءان واحد طبقا لطبيعة الانسان الجسمانية والروحانية حتى يبقى صاحب الامر ذوي الاهلية للامر، فاولو الامر خلفاء الرسول تحت ضوء ورقابة الكتاب والسنة تقربا من الحق وابتعادا عن المقت بتضارب الاقوال والافعال .

20) والشرط الرابع هو الشمول المادي والمعنوي فى التدبير الزماني والمكاني فى الوجود حتى تكون الدعوة مستمرة والرسالة مستقرة فى مناكب الارض كلها وعبر عصور التاريخ باسرها المعلوم منها والمجهول اذ وحدة الحق تعالى اقتضت وحدة الانسانية .

ووحدة الرسالة على مر الزمان

21) هذه بعض الشروط التى يصعب على العقل حصرها .

فاذا ابتعد الانسان عن الحقيقة بتغلب الشر على الخير اي الضعف الشيطاني على القوة الروحانية انقلبت الاوضاع الانسانية الفطرية الى اوضاع بهيمية حيوانية فيها الحيل واللعب والغش واللهو الخ .. اي الاعمال الشيطانية وخيم ستار الظلام على نور العقول .

واختلط الحابل بالنابل وعمت الحيرة والضجر والقلق والظلم والفساد ومنه الانحلال والهلك والبوار .

22) فبكثر الفساد والتفسخ يثور الحق فى الانسان مرة اخرى وكان الشر موجود لاحقاق الحق فى ءاخر المطاف لان بنصر الله سبيل الرشاد ويظهر على الدين كله حتى يتبين انه الحق وانما الحياة فى ترك الحيل .

فالتحليل النزيه لهذا العصر ينتهي لا محالة الى ابراز حتمية الرسالة المحمدية التى جاءت رحمة للعالمين .

فهي الصالحة لتعديل المقلوب من الحقائق والاوضاع على الاسس الثابتة التى منها :

ا ـ معرفة السنن الفطرية والقوانين من ايمان وعقل وذوق وسلوك متدرج فى سلم الرقي احوالا ومقامات وازدهارا .

ب ـ اسناد الامر الى اهله الحقيقيين اي اصحاب المعرفة حتى ينتشر النور والعدل ويندحر الجهل والظلام والظلم وهي اشياء من عنصر واحد

ت) الطمانينة المتقلبة فى النفس قصد توطيد الاستقرار داخل النفوس ومنها داخل المجتمعات المتركبة من هذه النفوس بفضل العلم الرباني التى قال عنه حتى مفكرو الغرب مثل جان جوريس انه ضروري لاستتباب العدالة الاجتماعية المستحيلة التركيز والاستمرار ما لم تصاحبها فى كل وقت محاسبة النفس ومراقبة الضمير وهذا هو معنى التقوى

ج) الشمول المعنوي والمادي بالغوص على حقائق الوجود الظاهر والباطن حسا ومعنى ذوقا وعقلا وفكرا دنيويا واخرويا للتمكين فى الارض بالاستخلاف والقرب من الحق المطلق تعالى باجتناب

القواطع والمنهيات والقيام بالاوامر والعمل بما يقرب ويعلي ويشرح الصدور .

ولهذا يصبح جليا ان القيادة العالمية لا يتصور امكانها عقلا الا لمن توفرت فيه شروط الاصطفاء والشمول والعالمية والعلم كتابا وحكمة والكمال على سدرة المنتهى والعصمة من الخطأ والجمع بين العرفان الالهي والحكمة الجامعة والتشريع المفصل وتدبير الظاهر والباطن والسلم والحرب والكليات والجزئيات تحت لواء الحق لنصرة الحق بالحق والهداية الى صراط مستقيم .

وفى زمان مثل زماننا حيث وقع البعد من المعنى بقدر القرب من المبنى والتفنن فى الصناعات بقدر انطماس البصيرة والسقوط فى الظلمات النفسانية المتكاثفة الحجب ، بلغ الانحراف منتهاه وصل العصيان والاستكبار والشك والاحتراس والبلبلة والتهافت والحيرة والتعصب الى درجة اشعرت القلوب بخطورة الموقف وضرورة المنقذ وصارت تنادي بخطة جديدة للفارق الذى يصيح فى واد لا يسمعه فيه احد وان هذه الخطة الجديدة ينبغي ان تكون على شكل دين ، وبما ان صحة الكتب السماوية مشكوك فيها قاطبة الا القرءان الكريم على حد شهادة الكاتب الفرنسي ارنست رينان وهو ليس بالعطوف على الاسلام ، وبما ان الشريعة الموسوية والطريقة او المحبة العيسوية اكتملت وتمت داخل الحقيقة او المعرفة المحمدية ، وبما ان سائر الحقائق العليا عبر التاريخ التى اندرجت فى سلك دين الله بعبارة « ان الدين عند الله الاسلام » ، وبما ان اجتماع الدنيا والدين المنشود تحقيقه فى المستقبل قد تحقق فى الشخصية المحمدية والمنهاج المحمدي بحثا عن الحق وخضوعا له بحسب المعنى العميق لكلمه الاسلام ، فان القيادة العالمية المنتظر انتشارها فى الدنيا كلها ستكون الاسلام ولا يمكن ان تكون عقلا ولا نقلا الا الاسلام .

ففيه وحدة الحق ووحدة العقل ووحدة الروح ووحدة النفس ووحد المعنى ووحدة القيمة البشرية ووحدة الحرية ووحدة المسؤولية ووحدة الانسانية ووحدة الدين ووحدة الرسالات ووحدة الغاية الانسانية ووحدة المصير ووحدة الشريعة والطريقة والحقيقة للناس كافة ولذلك سمي دين التوحيد الذى سيوحد البشر ان شاء الله .

الرباط : د. المهدي بن عبود





للأستاذ محمد المنتصر الريسوني

(3)

وتظل قضية يجب مناقشتها وعرضها على بساط البحث حتى تقتلع البقية الباقية من الشكوك التـي خامرت الدارسين من المستشرقين ومن حذا حذوهم من الامعيين ، الا وهي قصة الغرانيق المزعومة .

قصـــة الغرانيـــق :

ان هذه القصة مرتبطة تمام الارتباط بحادثـــة تاريخية مشهورة في تاريخ الاسلام ، هي قدوم المسلمين من الحبشة بعد ما هاجروا اليها فارين من أذى قريش، هذا القدوم بعث الشك في نفوس بعض المستشرقين ، ومن بينهم (سيروليم موير) (1) و (بروكلمان) (2) ، فاتخذوه حجة يدعمون بها وساوسهم ، اذ ان المسلمين لم يتناه اليهم خبر صلح الرسول صلى الله عليه وسلم مع قريش وسعيه اليه ما تركوا دار الهجرة ، وخاصة وهو ما يزال ضعيف القوة ، عاجزا عن دفع أذى قومه، لذلك تقرب اليهم باختلاقه جملة دسها في القـــرءان ــ سورة النجم ــ يمدح بها أصنامهم ، وشـــاع في الناس حينذاك ان الرسول عليه الصلاة والسلام صالح قريشا بذكر آلهتهم بالخير .

اما من الناحية التاريخية فرجوع المسلمين من الحبشة لم يقع نتيجة للصلح بتاتا ؛ اذ لو كان ذلك ما دخلوا مكة المكرمة بعد ان تاكدوا من ان الصلح المزعوم ليس صحيحا ، والسبب في ذلك كما ثبت في التاريخ ان الحبشة نشبت فيها ثورة على النجاشي ، لكونـــه عطف على المهاجرين ، وما كان من اولئك الا ان اجمعوا الرحيل الى ديارهم ، ولا سيما وان كفار قريش عندما راوا اسلام عمر وبعض كبار رجالات العرب الذيـــن تثور لكرامتهم القبائل عمدوا الى وسيلة لا تنجم عنها حرب اهلية قاسية ، والى ان يدبروا حيلة شيطانية ، هادنوا المسلمين وقتا من الزمن ترامى أثناءه الخبر الى المهاجرين بان الهدنة قد وقعت بين الفريقين ، فشجعهم ذلك على العودة الى ارض الوطن .

وان جارينا اولئك في وهمهم الجامح ، وصدقناهم في افترائهم ، ايجوز عقلا ان يحدث هذا فيسكت عنه اعداؤه المتربصون به الدوائر في كل دقيقة وثانيه ، ولا يذيعون في الناس ذلك ، ويروجونه ايما ترويج ، فيصبح متعالما على طرف كل لسان ، يلهج به القاصي والداني لا اهل مكة فقط ، وانما سكان الجزيرة كلها ، ولا سيما والدعوة الجديدة لا تزال في طور التكوين والترعرع ؛ بيد ان شيئا من هذا لم يروه احد ولم يستطع فرد من الدائه المعاصرين ومن اتى بعدهم ان يثبته الاثبـــات المطلق الذي لا يتطرق اليه أدنى شك ، وسيتجلـــى بطلان ذلك من الناحية العلمية كذلك فيما سياتي من حديث وشيكا .

ان ما ثبت في الصحيح ان الرسول صلى الله عليه وسلم قرا سورة النجم في جماعة فيهـــا المشركـــون والمسلمون وعندما وصل الى قوله تعالى : « والمؤتفكة

1) حيـــاة محمد (صلى الله عليـــه وسلـــم) .
2) تاريـــخ الشعـــوب الاسلاميـــة .

اهوى ، فغشاها ما غشى ، فبأي آلاء ربك تتمارى،هذا نذير من النذر الاولى ، ازفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة » . سجدوا لا للعبارة المدسوسة ، وانما لتلك الكلمات الراعدة ، والعبارات القارعة ، وسلطان الآيات الباهر الذي يأخذ النفوس فى وقت تكون متفتحة للاستجابة والتقبل ، وعلى الخصوص اذا كان قارئها سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام ، يتلوها بقلب خاشع مفعم بالايمان ، وصوت رنان يحمل فى تموجاته القوة الالهية ، فيمس القلوب وترتجف ، فتنقاد بسهولة لكلمات رب العزة .

والتأثير القرآني وتأثير الشخصية المحمدية فى نفوس الكفار لم يحدث فى هذه المرة فقط ، بل شهد التاريخ له بحوادث اخرى ، الا انها لم تبلغ منزلة هذه الحادثة فى درجة التأثير التي ادت الى الاذعان اللا شعوري ، الخضوع اللا ارادي ، من بينها ان عتبة ابن ابى ربيعة بعثته قريش ليكلم الرسول عما جاء به كي يكف عن سب آلهتهم ، ولما بسط له عتبة القول خاطبه الرسول عليه السلام قائلا : افرغت يا ابا الوليد؟ فقال : نعم، فقال . فاستمع: «بسم الله الرحمن الرحيم: حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون الخ .. » . بعد ذلك نهض عتبة . وقد ارتعدت فرائصه فوضع يده على فمه الشريف طالبا منه ان يكف عن القراءة ، ثم رجع الى قومه يحكي لهم ما جرى معلقا على هذا بقوله : « وقد علمتم ان محمدا اذا قال شيئا لم يكذب ، فخشيت ان ينزل بكم العذاب » .

وفصل القول ان السجود الذي صدر عن المشركين كان نتيجة لما توفر عليه كتاب الله من بلاغة منقطعة النظير ، وما حفل به من معان سامية ، وصور فنية رائعة تنساب فى عذوبة حسب الاغراض المختلفة من ترهيب وترغيب ووعظ .

اذا فالسجود أولا واخيرا مأتاه التأثير القرآني (1) الذي لمس شغاف الافئدة ، فحرك الوجدان ، واقتاد المشرك الى الحق وقد نسي جبروته وعناده ونعرته .

هكذا سجد أولئك من دون شعور منهم لروعة الحق ، الا انهم ندموا بعد ان استفاقوا من غفلتهم ، فاضحوا فى حيرة قاسية من امرهم ، وفكروا مليا فى وسيلة تنقذهم من هذا الاضطراب والحرج ، فلم يجدوا سوى اكذوبة يختلقونها لتبرير ما فعلوا ، وهي اقحام عبارة فى الآيات الكريمات التي تتحدث عن الاصنام ، لذا أصبحت على هذا الشكل : « افرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى . **تلك الغرانيق العلا وان شفاعتهن لترتجى** ، الكم الذكر وله الانثى ، تلك اذا قسمة ضيزى ، ان هي الا اسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان ، ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس الخ . »

ومن الغريب ان كتب التفسير والتاريخ روت هذا اللغو من الكلام مثل الكشاف للزمخشري (2) ، وطبقات ابن سعد ، وتاريخ الملوك والرسل للطبري ، ولست اشك فى ان يدا خفية عملت على بث هذه الاخلوقة ، ولقد صدق ابن اسحاق عندما قال : ان هذه القصة من وضع الزنادقة .

ونحن اذا بحثنا فى الروايات التي وردت فى الطبقات لابن سعد وعن الطبري وجدناها منقطعة . فابن سعد (3) انتهى بروايتها الى شخص يسمى المطلب بن عبد الله بن حنطب (4) . والترمذي قال عنه : انه لم يدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لانه ولد بعد أن توفى ، اما الطبري فقد اتى بروايته بسند الى محمد بن كعب القرظي وهو تابعي وليس صحابيا .

هذا من نحو ، ومن نحو آخر فان البخاري ذكر القصة والسجدة من غير ان يشير الى قصة الغرانيق، وكذا باقي الكتب الصحاح لم تتعرض لها .

وابن جرير الطبري الراوي لهذه القصة (5) نفسه بدا حديثه عنها بكلمة قيل وهي ظاهرة الضعف. ومن عادة الطبري فى منهج تفسيره انه يذكر الروايات ويردفها بقوله : « الصواب عندنا كذا » ، او قوله : «أولى الاقوال بالقبول عندنا كذا » ، غير انه لم يعقب على القصة بطريقته المعهودة التي تتسم بالتعليق والادلاء بالراي .

---

1) هذا الراي يحبذه الاستاذ الشهيد سيد قطب رحمه الله فى تفسيره المجلد السابع ص 636 وما بعدها

2) ج 3 ص 37 الطبعة الاولى .

3) ج 2 ص 205 نشر دار صادر .

4) قال عنه الالباني فى كتابه « نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق » ص 16 نشر المكتب الاسلامي بدمشق : انه كثير التدليس .

5) انظر تفسيره ج 17 ص 119 وما بعدها الطبعة اليمنية بمصر .

والقاضي عياض يثبت ان القصة لم يخرجها احد من اهل الصحة ، ولا رواه بسند متصل سليم (1) ، كما ان ابن العربي (2) يرى ان كل ما ورد في هذه الحكاية لا اساس له ، لانها تطعن في عصمة الرسول ، وقد اكد المحققون ان الروايات التي تحدثت عن القصة هي من المراسيل ، والاجماع منعقد على عدم الاحتجاج بالمرسل في اصل العقائد .

واما رواية الواقدي في الموضوع فمردودة لا يعول عليها ؛ ذلك لان الثقات من رواة الحديث اتفقوا على ان رواياته لا يوثق بها البتة ، بل منهم من وصفه بالتدليس والوضع .

ونضيف الى ما سبق ان العلامة المحدث السيد محمد ناصر الدين الالباني قد اشبع هذه القضية بحثا وتحريا في كتابه «نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق» من الوجهة الحديثية ، فاورد روايات القصة وعللها ثم بيان بطلانها متنا ، ورددوه على الحافظ ابن حجر مؤيدا ذلك لتقول الفحول من ذوي التحقيق في الاصول والفروع ، وانتهى اخيرا الى انها لا تنهض امام البحث العلمي الحديثي مطلقا (3) .

ذلك من الناحية السندية للقصة ، اما من ناحية سياق السورة ، فانه لا يتحمل هذا الاقحام بتاتا ، لانه يحدث تناقضا صارخا في النص ، وهذا مما يتجافى والاسلوب القرآني المعجز الذي من خصائصه الفنية الدقة في المعاني والانسجام في المضامين ، فان فرضنا ان الآية هكذا « افرايتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الاخرى تلك الغرانيق العلا وان شفاعتهن لترتجى الكم الذكر وله الانثى ، تلك اذا قسمة ضيزى ان هي الا اسماء سميتموها انتم وآباؤكم ، ما انزل الله بها من سلطان » اصبح المعنى مضطربا فاسدا ظاهر التناقض يجمع المتضادين من مدح وذم وهذا لا يسلم به عاقل ، له المام بسيط وبسيط جدا بالثقافة العربية (4) .

ومما يؤكد هذا الافتراء والاختلاق تعدد الروايات في القصة ، ولو تواتر أن الرسول اقحم العبارة في النص القرآني لما كان هناك تضارب في الروايات التي اسوقها حسب ما ورد في كتب التفسير :

1) تلك الغرانيق العلا ، وشفاعتهن ترجى ، مثلهن لا ينسى .

2) ان الآلهة التي تدعى ، ان شفاعتها لترجى ، وانها للغرانيق العلا .

3) وهي الغرانيق العلا ، وشفاعتهن ترتجى .

4) تلك الغرانيق العلا وان شفاعتهن لترتجى .

5) انها لمع الغرانيق العلا .

6) ان تلك الغرانيق العلا ، منها الشفاعة ترتجى

7) وانهن لهن الغرانيق العلا ، وان شفاعتهن لهي التي ترتجى .

8) تلك الغرانيق العلا ، وان شفاعتهن ترتضى (5) .

وان من اهم ما يفند هذه القصة المتهافتة صدق الرسول عليه الصلاة والسلام ، فهو منذ حداثته الى ان شب عن الطوق لم يجرب عليه احد الكذب ، ولصدقه وخصاله الحميدة ، وامانته المتناهية سماه قومه الامين ، وليس يخفى انه لما حدثت الخلافات بين قريش في امر الحجر الاسود ، وكادت تكون فتنة اقترح عليهم ابو امية بن المغيرة المخزومي — وكان اسنهم واشرفهم — ان يحكموا فيما بينهم اول من يدخل من باب الصفا ، وعندما رأوا محمدا اول من دخل هدا توترهم النفسي وقالوا : هذا الامين رضينا بحكمه ، وليس يخفى ايضا ان سيدنا محمدا عليه السلام عندما توجه الى قريش اول مرة يدعوهم الى التوحيد قال لهم : ارايتم لو اخبرتكم ان خيلا بسفح هذا الجبل اكنتم تصدقون ؟ فاجابوه : « نعم انت عندنا غير متهم، وما جربنا عليك كذبا قط » .

واذا كان الرسول الكريم عليه افضل الصلاة والسلام مشتهرا بالامانة والصدق افيعقل ان يتقول على الله ؟ ان العقل السليم يابى ان يصدق هذه الفرية بعد ان يتاملها تاملا طويلا، ويدرس ظروفها. والشخصية العظيمة التي اتهمت بهذا البهتان العظيم .

---

1) انظر الشفاج 9 طبعة فاس .

2) انظر احكام القرآن ج 2 ص 74 وما بعدها الطبعة الاولى .

3) كتاب الالباني يتالف من 39 صفحة منشورات المكتب الاسلامي .

4) من الغريب أن الآية واضحة الاضطراب والتناقض فلم يتعرض لها بالنقد من سمعها من المشركين العرب وهم اصحاب بلاغة وبيان مما يؤكد تاكيدا لا شك فيه ان القصة موضوعة مكذوبة .

5) بعض هذه الروايات اشار اليه القاضي عياض في الشفاج 9 طبعة فاس .

والقرآن الكريم نفسه يبطل هذا الزعم بقولـــه تعالى : ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنـــا منـــه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من احد عنه حاجزين » . وبقوله : « قل ما يكون لي ان ابدله من تلقاء نفسي » وبقوله كذلك في نفس السورة المفترى عليها مؤكدا عصمة رسوله وثباته في الوحي : «ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، ان هـــو الا وحي يوحى » .

وبجانب صدقه صلى الله عليـــه وسلم فانـــه معصوم من كل خطأ او نسيان ـ كجميع الانبياء عليهم السلام ـ يكون سببا في احداث ثلمة في الديـــن ، ولا يمكن بحال ان يوسوس اليه الشيطان فيقوله ما لـــم يوح به الله تبارك وتعالى ما دامت العصمة سرا منيعا تحرسه من كل زيغ ، ومن كل ما من شانه ان يطعن في الرسالة التي امر الله بتبليغها الى الانسانيـــة ، والله تعالى يقول مبينا عصمة الرسول من كل نسيـــان ، وكاشفا الستار عن ان رسوله بمنجاة من كل تهـــور واختلال : « سنقرئك فلا تنسى » .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يستعمل الوحي حين ينزل عليه جبريل فيحرك لسانه ليعيه في صدره فقال الله مخاطبا له : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قراناه فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه » ؛ ولهذا لم يكن عليه السلام ينســـى حرفا واحدا منه او يزيد فيه او ينقص ، ولو جاز عليه النسيان او وسوسة الشيطان لما كانت هناك قداسة للوحي ، ولا صح الله تعالى وهو العاصم شريكا في تظليله وتضليل الناس،وهذا بطبيعة الحال يفتح باب التشكيك في القرآن كله ، ويجعله عرضة للغمز ، كما يثير موجة من الالحاد والكفر الصريحين (1) .

وخلاصة القول في القصة : انها خيال مغرق في الوهم باطل عقلا وتاريخا وعلما لا يثبت امـــام هـــذه الحشود من الحقائق الواضحة الباترة لكل افتـــراء مخز مضحك ورياء فاضح :

ثوب الرياء يشف عمـــا تحتـــه
فاذا التحفت بـــه فانـــك عـــار

يتبـــع

تطوان: محمد المنتصر الريسوني

1) بهذا البهتان فان التشكيك سوف لا يقتصر على الشخصية المحمدية الكريمة ، وانمـــا سيمتـــد الى انبياء الله ورسله كما حدث بالفعل بالنسبة لداود وسليمان ويوسف عليهم السلام ، وذلك هو غرض الروايات الاسرائيلية التي لفقهـــا المدلســـون الكذابـــون .





كتب احد طلبة السينغال الذين يدرسون بثانوية الشراردة بفاس يقول انه وجد فى كتاب « ادباء العرب فى الجاهلية وصدر الاسلام » لبطرس البستاني الطبعة التاسعة ص 381 ما يأتي : « يقسم القرءان فصولا تعرف بالسور والسور مقاطع تعرف بالآيات وفيها ناسخ ومنسوخ وتسمى باعتبار نزولها مكية وعددها ثلاث وتسعون سورة ومدنية وعددها اثنان وعشرون » .

قال : ونحن نعلم اننا اذا جمعنا السور المكية والمدنية حسب قول المؤلف نحصل على : 93 + 22 = 115 والشيء الذى اثار دهشته فى هذه الظاهرة هو اننا منذ ان كنا فى الاقسام الابتدائية كنا نقرا ان عدد سور القرءان 114 بالضبط.

كما يذكر الطالب الذى رمز لاسمه م ل انه نائب عن زملائه والجميع يطلبون معلوماته فى هذا الشأن .

والجواب : ان القرآن لا يتطرق اليه الشك فى عدد سوره والصواب انها كما عرفتم جميعا فى الاقسام الابتدائية مائة واربعة عشرة سورة فقط كما يعلم ذلك بمراجعة كل المصاحف وقد وقع فى نفس الغلط العلامة الخضري فى كتابه «تاريخ الامة الاسلامية» الطبعة الثانية على جلالة قدره حيث ذكر فى المحاضرة العاشرة التشريع المكي فذكر مدة مقام الرسول بمكة وقال : انزل عليه فى اثنائها معظم القرءان والذى نزل بمكة المكرمة منه ثلاث وتسعون سورة والباقي وهو اثنان وعشرون سورة نزلت بالمدينة الا ان العلامة الخضري عاد فذكر عند كلامه على التشريع المدني غلطة اخرى حيث قال : التشريع فى المدينة بينا فيما سبق ان الذى نزل بالمدينة من القرءان احدى وعشرون سورة وهو يبلغ نحو ثلث القرءان ، فذكر هنا ان المنزل بالمدينة احدى وعشرون سورة مع انها اثنان وعشرون وهذه الاعداد اولا واخيرا مذكورة فى الموضعين بالحروف لا بالارقام فلذلك وجب التنبيه حتى لا يقع الاختلاف فى عدد سور القرءان المتواتر الذى لم يقع فيه اي اختلاف.

الرباط : محمد الطنجي

أربعينية فقيد العروبة والاسلام
المرحوم العلامة الشيخ الفاضل بن عاشور

كان يوم الجمعة 23 ربيع الاول 1390 الموافق 29 مايو 1970 هو يوم الاربعين لفقيد العروبة والاسلام، العلامة المرحوم الشيخ الفاضل بن عاشور، رحمة الله عليه .

وقد احيت الشقيقة تونس هذه الذكرى فى محفل رهيب ، نظم بالمسرح البلدي بالعاصمة التونسية ، وحضره جمهور كبير من العلماء والادباء والمثقفين ورجال الفكر والطلبة ، كما حضره فى المقدمة عدد من الشخصيات الرسمية ، وعدد من رجال السلك الدبلوماسي ، لوحظ من بينه سعادة سفير المملكة المغربية بالجمهورية التونسية ، السيد التهامي الوزاني .

كان الحفل منقولا مباشرة بواسطة الاذاعة والتلفزة ، فاتيح بذلك للشعب التونسي باكمله ، ولمستمعي الاذاعة خارج القطر ، ان يتتبعوه ، ويستمعوا الى ما القي فيه من كلمات وقصائد ، فى رثاء الفقيد ، والاشادة بعلمه وفضله ، واثارة كثير من القضايا الفكرية والتاريخية والعلمية التى تقتضيها المناسبة .

واهتمت الصحافة المكتوبة ايضا بايفاد مبعوثيها لمتابعة الحفل ، وتحرير مراسلات مفصلة عنه كما اهتمت بنشر بعض الكلمات التى القيت فيه بنصوصها الكاملة .

كان الحفل تحت رئاسة رئيس مجلس الامة السيد الصادق المقدم ، الذى كان يتصدر خشبة المسرح ، يحف به من اليمين والشمال عدد من رجالات العلم والفكر ، من تونس نفسها ، ومن غيرها من البلاد العربية التى بعثت مندوبين عنها للمساهمة بكلمات او قصائد فى تأبين الراحل الكريم ، كالمملكة المغربية ، والجمهورية الليبية ، والجمهورية العربية المتحدة .

— ◆ —

ومعلوم ان صاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثاني نصره الله ، كان لمجرد وفاة الفقيد رحمة الله عليه ، كان ارسل وزيره فى الاوقاف والشؤون الاسلامية السيد الحاج احمد بركاش ، على راس وفد هام ، لتمثيل بلادنا فى الجنازة ، ولتبليغ تعازي جلالة الملك والحكومة المغربية والشعب المغربي باجمعه ، الى اسرة الفقيد ، وعلى راسها والده الجليل سماحة الشيخ الامام الشيخ الطاهر بن عاشور ، والى الدولة التونسية ، والى الشعب التونسي باجمعه .

وكان ضمن هذا الوفد الملكي ، حضرة الاستاذ العلامة السيد عبد الرحمان الدكالي الذي القى بالمناسبة، قصيدة مؤثرة ، على امواج الاذاعة التونسية .

ولقد كان اهتمام جلالة الملك بارسال هذا الوفد لتمثيل جلالته وتبليغ تعازيه ، بادرة كريمة، خلفت اطيب الآثار فى النفوس ، ولهجت بها الالسنة ، واعتبرها الجميع تعبيرا عمليا ساميا عن الاخوة الصادقة ، والمشاركة الروحية فى المصاب الجلل ، وتجسيدا حيا لما عرف به جلالته من تقدير متناه العلم والعلماء .

ولمجرد عودة معالي وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية السيد الحاج احمد بركاش ، اهتم بامر من جلالة الملك حفظه الله ــ بالاتصال بكثير من العلماء الافاضل ، ورجال الفكر فى المغرب ، يهيب بهم ان يبعثوا الى معاليه ما تجود به افكارهم وعواطفهم من كلمات فى تأبين الشيخ الفاضل بن عاشور رحمة الله عليه ، لتكوين ملف بها ، وارسالها الى لجنة التابين التى يراسها السيد الصادق المقدم رئيس مجلس الامة ، تعبيرا عن تقدير صاحب الجلالة ، وتقدير الشعب المغربي باكمله ، للراحل الكريم ، ومشاركة للدولة التونسية ، وللشعب التونسي الشقيق، فى هذا المصاب الاليم ، الذى هو فى الواقع مصاب الاسلام والمسلمين جميعا ، خصوصا وانه ياتي فى وقت نحن احوج ما نكون فيه الى امثال الشيخ الفاضل بن عاشور ، من العلماء الاعلام ، المناقحين عن الشريعة السمحاء، بالعلم الغزير، والفكر الثاقب، والحجة القوية ، والكلمة الطيبة، والخلق القويم .

— ◆ —

وعندما حان موعد ذكرى الاربعين فى الموعد المشار اليه فى بداية هذه المراسلة ، شكل معالي وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية وفدا يتكون من الاستاذ السيد المكي الناصري ، والاستاذ السيد عبد القادر الصحراوي ، لحضور حفلة التابين، والمساهمة فيها ، وتجديد التعبير عن تعازي وعواطف جلالة الملك والحكومة المغربية والشعب المغربي ، مع القيام بزيارة خاصة لسماحة الشيخ الامام السيد الطاهر بن عاشور ، لتجديد التعازي الى سماحته ، والى الاسرة الكريمة فى مصابها الاليم .

وحمل معالي الوزير، الوفد المذكور ، ملفا يشتمل على كلمات تابينية للسادة العلماء الآتية اسماؤهم : الاستاذ السيد الرحالي الفاروقي ، الاستاذ السيد التهامي الوزاني ، الاستاذ السيد علال الفاسي ، الاستاذ السيد محمد الطنجي ، الاستاذ السيد خليفة المحفوظي .

وعندما وصل الوفد المغربي الى تونس وجد فى استقباله فى المطار ، الدكتور السيد محمد الحبيب بلخوجة ، تلميذ الفقيد الابر ، وابنه الروحي ، وخلفه فى عمادة الكلية الزيتونية للشريعة واصول الدين ، وكان معه من اساتذة نفس الكلية الدكتور السيد محمد الحبيب الهيمة ، كما كان فى استقبال الوفد شخصيات رسمية ، ومندوبون عن سعادة سفير المملكة المغربية فى الجمهورية التونسية .

وقد كان الوفد فى الواقع ، طيلة مقامه بالديار التونسية موضع حفاوة كبيرة ، سواء من طرف السفارة ، او من طرف الحكومة التونسية .

— ◆ —

بدات حفلة التابين على الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر ، واستمرت الى الساعة الثامنة والنصف، منقولة مباشرة بواسطة الاذاعة والتليفزيون ، كما اشرنا الى ذلك من قبل .

افتتحت الحفلة بآيات بينات من الذكر الحكيم، ثم تعاقب المشاركون فى التابين على تناول الكلمة ، حسب الترتيب التالي :

1) السيد الصادق المقدم ، رئيس مجلس الامة
2) السيد الشاذلي القليبي ، وزير الشؤون الثقافية اذ ذاك
3) السيد المكي الناصري ، عضو وفد المغرب
4) السيد عزيز اباظة عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة
5) السيد هاشم الشريف عن الجامعة الليبية
6) السيد عبد القادر الصحراوي ، عضو وفد المغرب
7) السيد عبد الحليم الجندي ، عن المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية بالقاهرة .
8) السيد عبد السلام خليل ، عن الجامعة الاسلامية بليبيا
9) السيد محمد الهادي بن القاضي ، مفتي الديار التونسية الحالي
10) السيد الدكتور محمد فاضل الجمالي

11) السيد محمد المختار بن محمود ، من علماء تونـــس .

12) السيد محمد المالقي، من علماء تونس

13) السيد طاهر القصار، من شعراء تونس

14) السيد الهادي المدني من شعراء تونس

15) السيد المختار الوزير ، من شعراء تونس

16) السيد الحبيب المستاوي من شعراء تونس

17) الطالبة هند شلبي ، من تلاميذ الفقيد

18) الطالب ثابت من تلاميذ الفقيد

ثم كانت كلمة الختام للشيخ الدكتـور محمـد الحبيب بن الخوجة ، وهي كلمة ــ كما قيـل فـي وصـفها ــ نابعة من اعماق المشـاعر الطاهرة الصادقة ، تعبر عنها البنوة الاصيلة ، في عاطفة فياضة ، احياء لذكريات روابط العلم المقدسة ، واواصـر التـوادد العميق .

وقد تليت في الاخير بعض البرقيات التى توصل بها رئيس الحفل ، كما تليت رسالة شيـخ الجامـع الازهر ، ورسالة الاستاذ السيد علال الفاسي.

واختتمت الحفلة ، كما بدات ، بترتيـل ءايـات بينات من الذكر الحكيم .

رحم الله الفقيد ، واسكنه فسيـح جنـانه ، والهم والده ، واسرته الكريمة ، والشعب التونسي، والامة الاسلامية جمعاء ، الصبر ، وحسن التاسي، وانا لله وانا اليه راجعون .

• • •



نص الكلمة التأبينية التى ألقيت باسم جلالة الملك المعظم الحسن الثانى نصره الله

فى الذكرى الأربعينية لوفاة فقيد الاسلام

الشيخ محمد الفاضل بن عاشور

... القى الاستاذ الشيخ محمد المكي الناصري كلمة باسم صاحب الجلالة والمهابة مولانا الحسن الثاني أيده الله في الذكرى الاربعينية لوفاة فقيد الاسلام السيد محمد الفاضل بن عاشور ، وقد نوه كثيرا بخصال ومزايا فقيد المغرب الكبير ، وبمدى تعلق ابناء المغرب به ملكا وحكومة وشعبا الذين راوا فيه مضرب المثل في انسجام الفكر ، ووحدة الملكات عقلا وذهنا ولسانا وثقافة متنوعة المصادر فجاءت كالماء المعين صافيا كاللجين ، سائغا للشاربين ...

سيادة الرئيس ـ سماحة الشيخ الامام ـ حضرات السادة .

ليس من السهل علينا ان نتصور غيبة رائد اسلامي عظيم كان بهجة المحافل وزينة المجالس ، اذا وقف ملأ السمع والبصر ، واذا تكلم ملك القلوب بجاذبيته وسحر بيانه ، واستولى على الالباب بمنطقه السليم وساطع برهانه .

لقد كان فقيدنا عالما فذا من افذاذ العلماء تحققت فيه صفات العالم الفذ ، المتمكن من علمه تمام التمكن ، المستوعب لاجزائه كامل الاستيعاب ، المتصرف في اصول علمه ومبانيه ، المعبر عن ادق واعمق معانيه ، المقتدر على دفع الشبه الواردة على الاسلام من الجاهلين به والطاعنين فيه . فكان سندا للحقيقة الاسلامية الرائعة ، وكان مددا للفكر الاسلامي السليم .

لقد كان فقيدنا مضرب المثل في انسجام الفكر، وتناسب الملكات ، ووحدة الشخصية وقوتها : عقل فاحص ، وذهن حاضر ، ولسان ذرب ، وثقافة صهرتها الدربة والاستيعاب في بوتقة واحدة ، رغما عن تعدد اصنافها ، وتنوع مصادرها ، فجرت كالماء المعين ، الذي خرج خالصا صافيا كاللجين ، سائغا للشاربين ، ولم تكن ثقافته الواسعة عبارة عن جزر متجاورة ، وقطع متنافرة ، بل تلاحمت الاجزاء التي تكونت منها ثقافته وتمازجت على مر الايام ، وبرزت في غاية التمازج والتكامل والوئام .

لقد كان فقيدنا مثلا حيا للعالم العامل ، الحامل لرسالة العلم ، والواعي بمسؤوليتها ، مما جعل كل من عرفه يحس بالوحدة المثالية التي تربط خيوطها في سلك واحد بين عقيدته ومعرفته وسلوكه في حياته الخاصة والعامة ، جاريا في ذلك على سنن اسلافه الكرام ، الذين استحقوا ان يكونوا قدوة للانام .

واذا كان المصاب بفقيدنا قد اثار موجة عارمة من الاسى والحزن فلأن فقيدنا العظيم كانت تعقد عليه الامال للمساهمة فى اداء مهام اسمى واعلى ، وتحقيق اهداف اوسع واشمل ، من كل ما قام به خلال حياته الخصبة العامرة ، وكان المنتظر فى الظرف الدقيق الذي يمر به العالم الاسلامي ان يساهم مساهمة فعالة فى تحقيق جزء كبير مما يتطلع اليه المسلمون من منجزات فكرية وروحية على الصعيد الاسلامي ، فالعالم الاسلامي الان فى مفترق الطرق ، وعلى ابواب بعث جديد يشترك فى حمل اعبائه قادة الحكم والفكر فى دنيا الاسلام ، ومنذ ان حقق الله امنية المسلمين باجتماع قادتهم فى مؤتمر القمة الاسلامي بالرباط ، واجتماع وزراء خارجيتهم لتكوين امانته العامة فى الحرمين الشريفين اصبح الامل قويا فى ان تتالف تحت اشراف الامانة العامة لذلك المؤتمر العتيد هيآت مختصة يندمج فيها كبار المفكرين والعلماء تعنى بتبادل الآراء حول مشاكل العالم الاسلامي الراهنة ، ومشاكل العالم العامة ، وتعنى بتحديد فلسفة اسلامية جديدة ملائمة للعصر ، منبثقة عن المفاهيم الاسلامية الصحيحة. فلسفة تعتمد بالاصالة على التراث الذهبي للاسلام . وتدخل فى حسابها ما انتجه الفكر الحديث ، فتنتفع منه بكل ما يساند المثل الاسلامية العليا ، ويلقح الفكر الاسلامي الجديد ، كما تعنى باقتراح حلول مناسبة لمشاكل المسلمين المنبثقة عن تطورهم الخاص ، حيث ان كثيرا من الحلول المستوردة من الخارج اثبتت التجربة القاطعة انها غير ملائمة للبيئة والظروف القائمة فى العالم الاسلامي ، وغير منسجمة ولا متجاوبة مع واقع المسلمين . فكم كان لفقيدنا لو واصل حياته من بيننا من جولات وصولات فى جميع هذه المجالات ، بفكره الناضج ، ورايه النافذ ، وتجربته الصادقة ، وخبرته الطويلة ، وحكمته العميقة ، النظرية والعلمية. الم يكن وجوده بين اظهرنا زادا نافعا ، ومددا واسعا ، لو فسح الله له فى الاجل ، وحقق على يده جزءا كبيرا من هذا الامل ؟ فمن هذه الزاوية — بالاخص — جل الخطب وعظم المصاب بفقد فقيدنا العظيم فى وقت نحن احوج ما نكون الى رايه وهديه ، ولولا وجود نخبة من مريديه وحملة رسالته تركهم من بعده لعز العزاء ، وفقد الرجاء ، بعد موته ونعيه .

سيادة الرئيس — سماحة الشيخ الامام — حضرات السادة .

ان عبقريا كهذا العبقري جدير بكل ما ناله من حظوة وتقدير ، ومحبة واجلال ، فى قلوب الخاصة والعامة ، ولابدع ان تجدوا — ايها السادة — عاهلا مسلما ، نصيرا للعلم ومحبا للعلماء ، كعاهلنا المفدى ملك المغرب جلالة الحسن الثاني ، فى طليعة المعجبين بهذا العالم الفذ ، المنوهين بعلمه ودينه وفضله ، وعلى راس من كانوا يعلقون على معرفته وحكمته عريض الآمال ، ويستمعون الى احاديثه فى مجالسه الحسنية السنوية دون انقطاع ولا فتور .

فباسم خادم العروبة والاسلام جلالة ملك المغرب الحسن الثاني ، وباسم حكومته وشعبه ، وباسم اساتذة جامعة محمد الخامس ، وعلماء جامعة القرويين ودار الحديث الحسنية ، نجدد لكم جميعا عبارات العزاء والمواساة ، وانها لعبارات يشترك فيها كل مواطن وكل مواطنة فى اقصى المغرب ، فما من مغربي مغربي الا وقد تملى من طلعة فقيدنا العظيم ، وارتسمت صورته فى قلبه ، وارتوى من معينه الصافي ، واعجب بعلمه وسمته ووقاره بالغ الاعجاب. جدد الله عليه الرحمات، واسكنه فسيح الجنات ، وجعلنا اوفياء لرسالته ، محافظين على عهده وامانته .

تونس : محمد المكي الناصري

الفاضل ابن عاشور

من الفلائل الذين لا يأتي الزمان بنظائرهم إلا الفينة بعد الأخرى

للأستاذ علال الفاسي

سماحة الشيخ الوالد

اصحاب السعادة والفضيلة

سيداتي سادتي

ما كان اقساها علي ، تلك اللحظات التي بلغتني فيها نعي الاخ الحميم والصديق الكريم الشيخ الفاضل ابن عاشور . لقد فزعت فيه لامالي الى الكذب ، ولكن هيهات ان يفر المرء من الواقع المرير .

وزاد في المي انني حين كنت زرته بعد عودته من باريس الى تونس سالما املت ان تكون ازمة المرض انتهت وان يكون الله تعالى قد من على والده الكريم وعلى طلبته والامة التونسية وعلينا نحن اصدقاءه الكثيرين في المغرب والمشرق بابقائه حيا لمواصلة الرسالة التي تحملها في سبيل خدمة العلم والدين .

ولكن ضربة القدر كانت قاسية علينا ، والنكبة به شديدة مؤلمة ، وليس لنا نحن البشر العاجزين الا ان نستسلم للقدر ونتخلق باخلاق القرءان ونقول ازاء هذه المصيبة العظمى : (انا لله وانا اليه راجعون) .

وانه لعزيز على نفسي ان اقف في هذا المقام واقفا مؤبنا لمن لا تعبر الكلمات عن مبلغ الالم به ، ولا يجمل الصبر في فقد مثله ، لانه رحمه الله من الفلائل الذين لا ياتي الزمان بنظائرهم الا الفينة بعد الاخرى . وقد اختطفته المنية قبل انهاء مرحلته التاريخية التي كان على موعد معها ، وقبل ان يتمم بلاغه للاجيال التي وثقت بعلمه واستمدت من فضله ، ولذلك كان المصاب به اعظم من ان يعزى فيه او يسلى عنه .

كان الفقيد رحمه الله مثال الفضل والنبل ، وعنوان العمل الجاد والنشاط المتواصل ، بدا نضاله باكرا وبزغت قيمته الفكرية منذ عهد الشباب ، وعرفه اخوانه ورفاقه ثاقب الذهن ناضج الراي . وكان اول ما سمعت عنه يوم انعقاد المؤتمر الاول لطلبة شمال افريقيا المسلمين في فرنسا في تونس سنة 1931 وكان قدم تقريرا مفصلا عن حالة الزيتونة والتعليم العربي والاصلاح الذي يلزم ادخاله على الجامعة التاريخية . وقد اعرب فيه عن افكار نيرة وآراء سديدة في مسائل التربية ، وان محتوى ذلك التقرير لا يزال وقتيا صالحا للاستفادة منه .

ومنذ الساعة والفقيد يواكب الحركة الفكرية في تونس ويعمل مع الشباب على خدمة النهضة التونسية الموفقة حتى اصبح من اقطاب الحزب الحر الدستوري ومن رجال التوجيه والتنوير في وسط الاجيال التونسية عموما ، والزيتونية على الخصوص ، ومن دعاة وحدة المغرب العربي الصادقين .

واذا كنت لا ارمي في هذه الكلمة العاطفية للحديث عن حياته واعماله لان ذلك يتطلب مؤلفا خاصا ، فانني لن اترك الحديث عن ثلاثة جوانب للفقيد لمستها بنفسي وخبرتها من اتصالاتي به ومعاشرتي له .

الجانب الاول : ما يرجع لثقافة الاستاذ ، فقد كان رحمه الله متقفا بكل معنى الكلمة مطلعا على شتى العلوم الاسلامية مقتدرا جادا في ابرازها درسا واملاء وكتابة .

وكان من احب العلوم الى نفسه علم الكلام وعلم الاصول فقد كان يتحدث فيهما حديث مطلع متعمق

فى فهم مسائلهما ، مدرك لاسرارهما . وهذا الميل الى المعقول عنده هو الذي كون منه الرجل المفكر صائب التفكير ، والعالم المدقق فى ترتيب العلوم العارف بمداخلها واغوارها . والاستاذ المنظم الذي يعرف كيف يوجه الدراسة وينسق فنونها . ولقد تبرز فى دروسه التي كان يلقيها فى كلية الشريعة . وفى الدروس المسجدية التي سمعناها منه ، حين حضوره للمجالس السلطانية فى المغرب وفى المحاضرات والامالي التي القاها فى كثير من النوادي والمحافل . وابحاثه فى المجامع اللغوية . لقد كان خير مبلغ للفكر التونسي وخير مرب للشباب وداعية للحق ، وانه لقليل اولئك العلماء فى هذا العصر الذين ينسجمون مع طلبتهم الى الحد الذي يصبح هؤلاء مريدين لهم متشبعين بمبادئهم متطلعين لان يكونوا على غرارهم . والحق ان الشيخ ابن عاشور كان من اولئك الرجال الذين يطبعون تلامذتهم بطابع المعرفة التي ينقلها اليهم ، وان تلامذته الذين اجتمعت بهم ليتحدثون عنه بكل اعجاب وتقدير ويتلقفون كلماته وافكاره بكل عناية وتعطش ، وينسجون على منواله فى الدرس والمواظبة .

وحينما دعاني رحمه الله فى السنة الماضية لالقاء محاضرات عن المدخل الديني فى كلية الشريعة واصول الدين ، ارسل الي المنهج الرسمي للكلية ، وما امعنت النظر فيه حتى اعجبت به وقد علمت ان الفقيد كان فى طليعة اللجنة التي وضعته وانه لجدير ان ينقل الى الكليات الاسلامية لما فيه من المنهجية العصرية والبرمجة التي من شأنها ان تكون طلبة معبئين بمبادىء العلوم الاسلامية المعقول منها والمنقول مهيئين لان يتخصصوا فى اي ناحية ارادوها من العلوم الانسانية الادبية والقانونية ، وذلك ما يشهد بعظيم مقدرته التربوية ودربته فى تنظيم التعليم وحسن توجيهه .

اما الجانب الثاني : ففي روحه الوثابة التي دفعته للمساهمة مع ابناء وطنه داخل الحركة الوطنية الدستورية طيلة امد الكفاح الاول من اجل الاصلاح وفى سبيل الاستقلال . وكان رحمه الله يؤمن بضرورة الوحدة المغربية ويعمل لها ويرى فى بعث اللغة العربية وانمائها خير رباط لهذه الوحدة . ويلذ لي ان انقل من طليعة تقريره الذي اشرت اليه ما يلي : (ان المشكلات العديدة التي تعرض علينا صباح مساء فى اشكالها المختلفة حول وحدة الشمال الافريقي والطرق التي نتوصل بها الى حفظ ذاتيته وابقائه كما كان وطنا واحدا لهي ناطقة من نفسها باهمية هذا الموضوع الجليل ومنزلة هذه المشكلة الكبرى منها منزلة الراس من الجسد ، مشكلة التعليم القومي واللغة العربية لشمال افريقيا .)

(ولقد تمخضت الجهود الى الجهاد فى سبيل احياء العربية واعزازها حفظا لرابطة العروبة السائدة بين اقطار وطننا الاكبر والتي لا تزال امتن روابط الاتحاد واقوى اواصر القرابة ، وجمعت كلمة مفكرينا على ان العربية يجب ان تكون لنا لسان التعليم القومي وهي الاساسية فى كل مدرسة قومية ؛ لذلك نرى من اهم المسائل التي تشغل بال هذا المؤتمر مسالة التعليم العربي فى حالته الحاضرة بتونس وما يجب ان تكون عليه) .

تلك فترة واحدة من كلماته النيرة تحمل برنامجا كاملا لوحدة المغرب العربي وعلى اساس ابقائه كما كان وطنا واحدا عربيا مسلما .

ومن المعلوم ان الفقيد انتخب مستشارا امينا فى الديوان السياسي كما كان له واخوانه طلبة الزيتونة موقف حاسم من المؤامرات الاستعمارية على الاسلام والقومية التونسية فى المؤتمر الافخارستي وما يرمز اليه من غارة منظمة على العالم الاسلامي .

اما بعد الاستقلال فقد بذل جهودا مشكورة فى التوفيق بين تعاليم الاسلام ومقاصد الدولة فى اصلاحاتها ، وكان فى ذلك مرنا واسع الافق ، وقد مثل تونس فى كل المؤتمرات والمجتمعات التي تعمل لخير الاسلام ولايقاظ الشعوب الاسلامية وتوحيدها .

ولقد لمست روحه الطيبة وايمانه بقضية الجامعة الاسلامية حين انتخب ممثلا لتونس فى المجلس التنفيذي لرابطة العالم الاسلامي التي انعقدت بمكة المشرفة فجاء يحمل الينا رسالة التضامن التام من تونس دولة وشعبا ، تلك الرسالة التاريخية التي وقعها المجاهد الاكبر مقدما بها الشيخ ابن عاشور ومؤكدا مصادقة رئيس الجمهورية على ما يبذله من نضال باسم تونس فى سبيل القضايا الاسلامية وما تدعو اليه الرابطة من اعمال نافعة .

لقد التقينا مرارا فى اجتماعات الرابطة واشتركنا فى دراسة الخطط التي يقرر تنفيذها ، لتحقيق دعوة الحق التي تنادي الرابطة بها . فكان الشيخ رحمه الله من الحواريين الصادقين فى خدمة تلك الدعوة بالفكر الصحيح والاشارة المفيدة ، والحماس القوي والاخلاص العميق ، وقد ابلى البلاء الحسن فى نشر فكرة التضامن الاسلامي والدعوة الى عقد مؤتمر قمة للدول الاسلامية

وان محاضرته العظيمة التي القاها في تونس بمحضر من المجاهد الاكبر ورجال الدولة والحزب لمثال صادق للمفهوم الصحيح الذي كان يعبر عنه ، لوحدة المسلمين وتضامنهم في اقامة بعث اسلامي يعيدهم الى الخط المستقيم الذي كانوا عليه في العهود الاولى ، وليسيروا مع التاريخ في بناء الحضارة الاسلامية الجديدة ، ومع الانسانية في خدمة الخير والسلام والاخاء بين الافراد والشعوب .

ورايته رحمه الله في المؤتمر التاسيسي لجمعية الجامعات الاسلامية الذي دعت اليه جامعة القرويين يناصر فكرة التنسيق بين الجامعات وتوحيد البرامج والمناهج فيما بينها . ويناضل من اجل استمرار الدراسة الاسلامية متفوقة في مواردها وفي اساليبها ، حتى تواصل تكوين العلماء الافذاذ الذين يستطيعون مواجهة العصر بما يحتاجه من شرح لتعاليم الاسلام وتوضيح لمقاصده ، ودفع لشبهاته الجديدة بمنطق العصر الجديد ايضا . وقد اضطلع رحمه الله بعد ذلك بتقديم هذه الجمعية الى مؤتمر المنظمات الاسلامية العالمية المنعقدة بمكة ، والى مطالبة رابطة العالم الاسلامي بامدادها بالمساعدة المادية حتى تستطيع القيام بواجبها المنوط بها .

وفي مؤتمر المنظمات الاسلامية العالمية المنعقد اخيرا في مكة قام بجهود مشكورة للتوفيق بين مختلف الاراء التي كانت تعرض كلما طرحت قضية شائكة من قضايا المسلمين .

اما جانبه الثالث : فهو تدينه الصادق ومواظبته على القيام بشعائر الاسلام على الصفة التي يجب ان يقوم بها المؤمن التقي والعالم العامل . وقد جمعني الله به في مواسم الخير فحججنا معا مرتين واشتركنا في اداء العمرة مرارا ، وكان نزل الرابطة يجمع بيننا في بيت واحد بمنى ، فكنت ارى من حرصه على اداء الصلوات في اوقاتها ومن القيام بالنوافل وتلاوة القرآن وقراءة الدعوات النبوية الصالحة ، ما حببه الى قلبي ورفع من قيمته في نفسي .

وجمعتني الاقدار كذلك معه في نزل شبرا بمكة فكنت اراه في كل الاوقات الليلية والنهارية مسرعا الى البيت الحرام مؤديا للفريضة على وجهها ذاكرا خاشعا، وطفنا معا في البيت الكريم فرايت من تعلقه بالله وتحنثه بجواريه ودعائه ، وضراعته وبكائه ، ما يدل على قلب عامر بالتقوى ونفس مطمئنة بالدين .

ان شخصية الشيخ ابن عاشور تتمثل اكثر في هذا الجانب الديني الذي اصبح التمسك به اليوم غريبا وعزيزا . وانه ليلذ لي ان اروي هنا تجربة روحية جرت لنا معا . ففي شهر رجب من السنة الفارطة ، اعتمرنا واجتمعنا في الرابطة ثم دعانا الامير مشعل للمشاركة في غسل الكعبة المشرفة كالعادة في مثل هذا الوقت من كل عام : فدخلنا الكعبة وصلينا ركعات في جوانبها الاربعة تحقيقا لقوله تعالى : (فاينما تولوا فثم وجه الله) ثم بدانا نفيض على الارض من الماء الطيب، في خشوع يذهل الواحد منا عن الاخر ، واخذت مكنسة من ذوات العصي لاعمم بها الماء المطيب بالورد والزهر على الارض الطيبة ، واذا بالفقيد يبحث عن مكنسة مثلها فاخذت بيده ، وقلت له لنشترك معا في هذه ، واخذنا نواصل العمل معا . واذا بالشيخ يخشع وياخذه البكاء وياخذ بيدي يقبلها فقبلت يده واصابني من الوجد والبكاء ما اصابه ووقفنا نسبح ونحمد الله وندعوناه سبحانه للاسلام والمسلمين بما نرجو من الله قبوله وقد استحضرت بعد ذلك قول الشاعر :

فلو قبل مبكاها بكيت صبابة
بسعدي شفيت النفس قبل التندم

ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا
بكاها فقلت الفضل للمتقدم

ان هذه الروحانية التي كان الفقيد يحملها ، تنعكس على اخلاقه .

فقد كان حسن الصفات طيب النعوت . وكان يقبل الحق متى تعين ، ويرجع عن رايه اذا تبين له غيره . ولذلك اصبح محبوبا عند عارفيه مقبولا عند مخاطبيه ، فكانت المصيبة به كبيرة والنكبة بفقده جسيمة .

وانا لنرجو الله سبحانه ان يثيبه على ايمانه بربه وصدق طويته في خدمة دينه . وان يجعل البركة في والده الكريم والبقية الباقية من علماء تونس ورجالها ، وان يجعل من ولده وذريته خير خلف له ، ليسير على منواله ، ويقتفي اثره .

كما نساله سبحانه ان يطيل عمر المجاهد الاكبر ورفقائه المخلصين ويوفقهم لمواصلة العمل لصالح تونس والمغرب العربي والعالم الاسلامي ، وصدق الله العظيم : (ان يعلم الله في قلوبكم خيرا ، يؤتكم خيرا مما اخذ منكم ويغفر لكم) .

الرباط : علال الفاسي

نجم هوى ..

للأستاذ الشاعر عبد الرحمن الدكالي

القى فضيلة العلامة الاستاذ الشاعر السيد عبد الرحمان الدكالي الكاتب العام لوزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ، باذاعة تونس بتاريخ 14 صفر عام 1390 هـ موافق 21 ابريل سنة 1970 م هذه القصيدة في رثاء مفتي الجمهورية التونسية وعميد كلية الشريعة واصول الدين المرحوم بكرم الله الشيخ الفاضل بنعاشور الذي توفي بتاريخه، حيث كان ضمن الوفد الرسمي الذي بعثه صاحب الجلالة برئاسة معالي وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية لتقديم التعازي الى اسرة الفقيد والحكومة التونسية .

جرح اصاب العلم فى احشائه ... فانهد ركن من اعز بنائه

نجم هوى قد كان ينشر نوره ... فى امة الاسلام فى ابنائه

بحر تدفق بالعلوم يفيضها ... من نبعة الفياض فى ارجائه

يا فاضل العلماء يا ابن امامهم ... الموت امر الله سهم قضائه

لو كنت تفدى لافتديتك يا اخي ... لتعيش للاسلام رهن وفائه

اما العهود فانها موروثة ... وانا الذي يبكيك في اصباحه ومسائه

لاكنه اختيار ربك وحده ... ان البقاء له ومن اسمائه

ان الاسى عم القلوب باسرها ... في قمة الاسلام فى بطحائه

وبكى عليك المصلحون لانهم ... عرفوك شهما رافعا للوائه

(حسن) الملوك بكى عليك بكاء من ... يخشى على الاسلام فى لاوائه

ولطالما حث الشباب مرددا ... من لي به وبعلمه وذكائه

تزن الشعوب رجالها بفعالهم ... والحر لا ينسى لصدق بلائه

انا نعزي فيك امة تونس ... وحبيبها ولانت من ابنائه

يا رب عوض تونسا وحبيبها ... برجوعه ما تبتغي وشفائه

وارفع لواء العز للاسلام فـ ... ـوق ربوعه الكلمى وتحت سمائه

الرباط : عبد الرحمان الدكالي

مع الشيخ الفاضل بن عاشور في المغرب

للأستاذ عبد القادر الصحراوي

القيت هذه الكلمة ، في حفلة تأبين الفقيد ، بمناسبة ذكرى الاربعين ، بالعاصمة التونسية

سيدي رئيس مجلس الامة ،

سماحة الشيخ الامام ،

سيداتي ، سادتي

ليست الشقيقة تونس ، هي التي فجعت وحدها ، بابنها البار ، وعالمها الكبير ، واستاذ الجيل فيها بحق ، المرحوم العلامة الشيخ محمد الفاضل بن عاشور ، تغمده الله برحمته ، واسكنه فسيح جناته ، بل فجعت به معها في الواقع كل الاقطار الاسلامية ، في مشارق الارض ومغاربها ، وفي المقدمة من هذه الاقطار كلها ، المملكة المغربية ، التي كانت تربط الفقيد بها امتن الروابط واقوى الصلات العقلية والروحية والشخصية .

لقد كان رحمه الله اثيرا بصورة خاصة ، لدى جلالة الملك المعظم الحسن الثاني نصره الله ، الذي كان يقدره حق قدره ، ويعرف له فضله وعلمه ، وثقافته الواسعة العميقة ، وقدرته الفذه ، على تناول اعوص المشاكل العقلية ، وتحليلها وتسليط الاضواء الكاشفة عليها ، مزودا لذلك كله باحاطة شاملة بالثقافة العربية الاسلامية بعلومها الدينية واللغوية والمنطقية والفلسفية ، ومزودا لكل ذلك ايضا باطلاع مباشر واسع على فلسفات العصر ومذاهبه ، وتياراته الفكرية وصراعاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وكان رحمه الله اثيرا لدى الشعب المغربي ، معروفا لديه على نطاق واسع ، بل على اوسع نطاق على الاطلاق ، يمكن ان تتيحه وسائل الاتصال العصرية ، ونعني بذلك الاذاعة والتلفزة .

لقد داب جلالة الملك المعظم ، الحسن الثاني ، نصره الله ، على ان يدعو فقيد الشعب التونسي ، وفقيد الامة الاسلامية جمعاء ، وفقيد العروبة والاسلام ، الشيخ محمد الفاضل بن عاشور ، في شهر رمضان من كل سنة ، للمساهمة في دروس التفسير والحديث التي تلقى بحضرة جلالته ، والتي يحضرها عادة كما هو معلوم ، عدد من العلماء والمثقفين ، ورجالات الدولة ، من مدنيين وعسكريين ، والتي تنقلها مباشرة امواج الاذاعة وقنوات التلفزة ،فيتاح بذلك لجميع النظارة في المغرب ، ولجميع مستمعي الاذاعة الوطنية المغربية داخل المغرب وخارجه ، ان يتابعوها ، وان يستفيدوا

منها تفقها في الدين ، ومعرفة مفصلة بأحكامه ، كما يستفيدون منها سعة في المعرفة والادراك والفهم، ويستفيدون منها ايضا زيادة في الايمان واطمئنان القلب اليه ، وهم يرون الشبهات المصطنعة ، التي يمكن ان تكدر عليه ، او تقلقه ، تنهار حصونها الخاوية، وينجلي ضبابها الكاذب وصدق الله العظيم: « فأما الزبد فيذهب جفاء ، واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض » .

— ◆ —

كان الفقيد يساهم في هذه الدروس التفسيرية والحديثية ، الى جانب طائفة من افاضل العلماء المغاربة ، والى جانب غيرهم من علماء البلاد الاسلامية الاخرى ، الذين يدعون للمساهمة فيها .

ولكنه كان من الذين يساهمون فيها باستمرار ، في شهر رمضان من كل سنة ، فانطبعت بذلك صورته في عيون وقلوب جميع افراد الشعب المغربي ، بشخصيته الوديعة اللطيفة المحببة ، وسمته العلمي الوقور ، وانطبع صوته في اسماعهم، وانطبع في وجدانهم وعقولهم اسلوبه ومنهجه ، اسلوب الاديب المتمكن من لغته ، المحيط باسرارها وخفاياها ، القادر على التصرف فيها كما يريد ، ومنهج العالم الذي اعتاد ان يقرع الحجة بالحجة ، والدليل بالدليل ، والذي اعتاد على المزج بين المنقول والمعقول ، فلا يدع صغيرة ولا كبيرة من موضوعه الا اتى عليها ، وفصل القول فيها تفصيلا ، وحشد للاستدلال لها او عليها اكبر عدد ممكن من النصوص النقلية ، من القرءان الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، واقوال السلف الصالح والعلماء والاعلام ، واكبر عدد ممكن من البراهين العقلية الصرف ، يعينه على ذلك تضلعه في العلوم المنطقية والفلسفية .

نعم لقد كان رحمه الله قلما ينزل في دروسه الى مستوى يستطيع ان يتابعه فيه كل الناس متابعة تفصيلية ، في الكليات والجزئيات ، فلقد كانت الصفة الغالبة عليه هي صفة الاستاذ الجامعي المطبوع، ولكن العلم ليس مطلوبا منه في كل الحالات ، ان ينزل الى مستوى عامة الناس ، بل قد يكون مطلوبا منه في بعض الحالات ، ان يحاول الارتفاع بهم الى مستواه ، حتى يعتادوا على التحليق ، وعلى التركيز، وعلى استعمال عقولهم التي منحهم الله اياها ، وكرمهم بها ، وامرهم باستعمالها ، وضرب لهم على ذلك في القرءان الكريم ، الامثلة الكثيرة المتعددة .

وعلى ذكر صفة الاستاذ الجامعي ، التي كانت غالبة على الفقيد رحمة الله عليه ، تذكر انه يوجد من بين المواطنين المغاربة ، عدد من الرجال الذين يشتغلون اليوم بالتدريس ، او يشغلون غير ذلك وظائف هامة في اطارات الدولة ، سبق لهم ان تتلمذوا عليه ، وطلبوا العلم بين يديه في جامعة الزيتونة ، وقد ظلت ذكراه باستمرار عالقة بأذهانهم، كما تعلق بالاذهان عادة صورة الاستاذ المطبوع ، الذي يميزه الله بصفات خاصة ، فيكون لطلبته استاذا ، ورائدا ، واخا كبيرا ، وابا حنونا ، وصديقا حميما .

وفي كل مرة كان يأتي فيها الى المغرب رحمه الله ، كان طلبته وابناؤه هؤلاء ، يسرعون لاستقباله في شوق ، والسلام عليه في حرارة ، والاحتفاء به احتفاء الابناء بالاب الذي طالت غيبته في حسبانهم ، وان لم تطل في الواقع ، ثم يظلون يتبعونه كظله ، يحضرون كل ندواته ودروسه ومحاضراته ، ويحضرون اذا امكن لهم ، سهراته التي كان يدعى اليها في هذا البيت او ذاك ، من بيوت اصدقائه ومحبيه ، ويضعون انفسهم باستمرار في خدمته ، واذا كان في غنى عنها بما كانت توفره له الدولة المضيفة من وسائل الراحة والحفاوة والتكريم .

— ◆ —

وقد اتيح لي شخصيا ، ان احضر معه في احدى السهرات الخاصة ، في بعض ليالي شهر رمضان ، سنة 1388 فكانت فرصة خاصة لي ، لاكتشاف جانب ءاخر من جوانب خيره وفضله ، رحمه الله .

كان طيلة السهرة لا يتكلم الا بمقدار ، متجنبا فضول القول وما لا فائدة فيه ، لا تفارق السبحة يده ، ولا يكف لسانه عن الذكر ، وهو في كل ذلك حاضر بالمجلس بكل عقله وجوارحه ، يتابع المناقشات والمذاكرات العلمية الجادة ، ويتابع ما قد يعرض في الحديث من نكتة او نادرة او ما الى ذلك ، ويكتفي في التعبير عن استجابته في الغالب ، ببسمة خفيفة، او بتعبير من تعابير وجهه المشرق الوقور ، حتى اذا دعاه الداعي الى القول، ليجيب عن سؤال وجه اليه ، او ليدلي برأي في الحديث الدائر امامه ، تكلم في وضوح وقصد ، وبأقل ما يمكن من الكلام، ثم عاد الى

سبحته يحرك حباتها فى رفق والى ذكره يحرك به لسانه داخل فمه ، دون أن تنفرج شفتاه .

— ◆ —

واتيحت لي فرصة اخرى معه رحمه الله، عندما كلفت بمرافقته في احدى زياراته للمغرب ، فكان علي ان اكون بجانبه فى كثير من الاوقات ، اصاحبه فى تنقلاته ، واسهر على راحته ، وقد تكشفت لي اثناء ذلك جوانب كثيرة من فضله رحمه الله ، لعل من الممكن ان اجملها كلها فى انه كان سهلا يسيرا ، بعيدا كل البعد عن التكلف فى جميع تصرفاته واتصالاته ، بسيطا فى حركاته وسكناته ، لقد كان كما قيل قديما فى وصف المؤمن : « المؤمن قليل المؤونة » وهي عبارة فى غنى عن كل تعليق او تفسير .

— ◆ —

وبعد ، فقد حل قضاء الله الذى لا مرد له ، والذى لا ينفعنا جميعا امامه الا التسليم به ، فليكن تسليم رضى مقرون بالاجر ، فذلك خير من ان يكون تسليم كراهية مقرونة بالوزر :

ستصبر صبر الياس او صبر حسبة
فلا تؤثر الوجه الذى معه الوزر

ولكن اخوف ما يمكن ان نخافه ، ونحن نقف هذا الموقف ، نؤبن عالما من علماء الشريعة الاسلامية، وحجة من حججها ، كالراحل الكريم الشيخ محمد بن عاشور ، هو ان يموت بموت هذا الصنف من العلماء، ذلك الصنف من العلم الديني، الموسوعي، الذى يحملونه ، فينقطع المدد ، او يجف النبع ، او يتوقف الاستمرار .

نعم ، ان كليات ومعاهد الدراسة الاسلامية ، ماضية فى اداء مهمتها ، والاضطلاع برسالتها المقدسة ، ولكن الدنيا اليوم غير الدنيا بالامس ، وقد كان الناس يعطون العلم كلهم ، ليعطيهم بعضه ، فهل يستطيع احد اليوم ، فى عصر المفاتن والمغريات ، التى لا حد لها ولا نهاية ولا حصر ، ان يقبل على العلم بكليته، وان ينقطع له عن كل ما عداه ، حتى يستطيع ان ينال منه بعضه ، وحتى نستطيع نحن جميعا ان نطمئن الى ان المدد غير منقطع ، وان النبع لن يجف ، وان الاستمرار لن يتوقف .

هذا هو السؤال ، وهذا هو مكمن الخوف ، ولكننا على كل حال لن نيأس من روح الله ، وسنظل نرجو الا تكون صادقة هذه المخاوف ، وان يكون الخلف فينا دائما جديرا بسلفه ، ورحم الله فقيدنا رحمة واسعة ، والسلام عليكم ورحمة الله .

الربـاط : عبد القادر الصحراوي



أبحاث ودراسات



مفهوم (الثقافة المغربية) يتسم بشيء من الغموض لدى الكثيرين من مثقفينا ، يحومون حوله دون ان يحققوا معناه ، وينعكس غموض معناه فى اذهانهم على احاديثهم ومطارحاتهم ، حيث يثيرون زوبعة او زوابع من النقاش الحاد حول هذا المفهوم ، بين معترف بشيء اسمه الثقافة المغربية ، ومنكر له اشد الانكار وابعده ايغالا فى الجزم والقطع ، حتى ليستحيل ان يكون هناك شيء من التقارب بين اولئك وهؤلاء ولا توصل الى كلمة سواء . وهم على ترددهم بين الانكار والاعتراف لا يعطون الثقافة المغربية مدلولها الصحيح . ولعل هذا الحديث ان يكون مساهمة فى ايضاح مفاهيم هذه الثقافة وابعادها المختلفة التي اذا القى الضوء عليها خفت حدة الخصام حول هذه القضية الهامة .

والنقطة الرئيسية التي ينبغي ان تكون منطلقنا الى دراسة هذه القضية الشائكة ، هي التساؤل عن امكان وجود شيء اسمه الثقافة القومية ، له كيانه وخصائصه التي تميزه عن غيره من الوان الثقافات الاخرى . فهل تختلف الشعوب فى ثقافاتها اختلافا بينا واضحا ، يسمح لكل شعب بان يتحدث عن اضافته الخاصة الى ثقافة الانسان العامة ، ام ان هناك ثقافة انسانية واحدة ، تشكل كيانا موحدا لا سبيل الى فصل اجزائه بعضها عن بعض ، قصد التحدث عن كل جزء على حدة ، باعتباره ذا وجود خاص ؟ ان الاجابة على هذا السؤال تتطلب الرجوع الى اصل القضية برد الفرع الى الاصل . والاصل هنا هو معرفة ما اذا كانت هناك حضارات تتباين وتختلف بتباين الشعوب واختلافها ، او ليس هناك الا حضارة واحدة ، ساهمت فيها اكثرية شعوب الارض ، واخذت لها اشكالا متعددة بتعدد البيئات والاجناس ، طالما كانت الثقافة ليست الا ظاهرة حضارية ، تضاف الى الظواهر الحضارية الاخرى ، وتشترك معها فى اصل واحد ، هو الحضارة فى مفهومها الواسع الشامل لكل نواحي النشاط الانساني المادية والمعنوية . فلو ثبت عندنا بالدليل العلمي وجود عدة حضارات او حضارة انسانية واحدة، لكنا قادرين على البث فى قضية الثقافة : اقومية هي ام عالمية ، وذلك ما نقصد اليه الآن .

يقول شيخ مؤرخي العصر توينبي : (وما نظرية وحدة الحضارة هذه الا راى خاطىء ، تردى فيه المؤرخون الغربيون المحدثون تحت تاثير محيطهم الاجتماعي ، واوحي به مظهر الحضارة الغربية الخداع. اذ استطاعت فى العصور الحديثة ان تلقي شبكة نظامها الاقتصادي على جميع انحاء العالم . وتلا توحيد العالم اقتصاديا على اساس غربي ، توحيده سياسيا الى نفس المدى تقريبا وعلى نفس الاساس الغربي (1)) . وبناء على ذلك فقد قسم توينبي الحضارات الى واحد

1) مختصر دراسة للتاريخ ج 1 ص 59 .

وعشرين نوعا ، غير غافل عن وجوه التشابه الموجودة بينها . ونستخلص من هذا الراى ان توينبي يرى ان فكرة وحدة الحضارة مصدرها الغرب ، الغرب الذي ملاه الزهو والغرور ، عندما راى حضارتـــه تطـــوق العالم اجمع ، وتطبعه بطابع واحد في الانظمة الاقتصادية والسياسية ، وتغزوه بادواتها ومخترعاتها الكثيرة ، التي دخلت جميع البيئات ، وعمت جميع الشعوب . كما يرى هذا المؤرخ ان الغربيين اذ نادوا بهذه الفكرة كانوا متاثرين ببيئاتهم الاجتماعية التي لا حضارة عندها الا حضارة الغرب ، شعورا بالزهو ، واقتناعا باهلية الحضارة الغربية لان تكون هي حضـــارة الانســـان المعاصرة اينما كان . ولم تنحصر عندهم فكرة وحدة الحضارة في الحضارة الغربية ، وانما جاءت متصلـــة بالحضارة في مفهومها العام ، تاثرا بفكرة عالمية الحضارة الغربية الحديثة . وليس معنى هذا ان علماء الغـــرب ينكرون ان تكون هناك اشكال متعددة للحضارة ، فهم يقولون بوجود حضارات متعددة الاشكال ، الا انهـــا جميعا ينشأ بعضها من بعض ، ويمهد بعضها لظهـــور البعض الآخر ، فهي كالنهر الواحد ، يتخذ اشكـــالا حسب البقاع التي يمر منها ، دون ان يعني ذلك مغايرة بين كل جزء منه وبقية الاجزاء .

اما الدكتور قسطنطين زريق فيقـــول في هـــذا الصدد : (ان القول بحضارة انسانية واحدة يفترض القول بانسانية واحدة ، ذلك ان الحضارة هي وليدة مجتمع معين ، فهل ثمة مجتمع انساني موحد يصـــح ان يكون اساســا او وعاء لحضارة انسانية موحدة ؟ ما جوهر (الانسانية) التي نتحدث عنها ، واى شكـــل يتخذه في الواقع ، وما هو نوع وجوده ؟ ان الانسانية موجودة وجودين مختلفين : وجودا امكانيا (بالقوة) ووجودا صوريا أو مثاليا ، ولكنها لم توجد بعد وجودا فعليا) . ثم يزيد قائلا : وما دام الامر كذلـــك ــ ما دامت الانسانية لا تزال امكانا لم يتحقق ، ومثـــالا لا يدانيه الواقع ، اى ما دامت لم توجد بعد بالفعل ــ فلا يمكننا القول بوجود فعلي لحضارة انسانية واحدة . ولا يعني هذا اننا نذهب الى ما ذهب اليه «شبنجلر» وامثاله من تقرير الانفصال التام والاختلاف المطلـــق بين الحضارات . فالحضارات التاريخية على اختلاف ميزاتها ومظاهرها ، تتشابه في بعض وجوهها تشابها اصيلا (2)) . وراى زريق قريب جدا من راى توينبي، الا ان زريق اتى بتعليل جديد ، وهو استبعاد ان تكون هناك حضارة واحدة ، لانتفاء وجود انسانية واحـــدة عمليـــا .

وعندما نبحث عن راى « ديورانت » صاحـــب موسوعة (قصة الحضارة) نجده يقول بالوحدة والتعدد معا ، فهو يقول مبرزا خطا كتابة التاريخ اقساما منفصلا بعضها عن بعض : (ان هذه الطريقة فيها اجحاف بما في الحياة الانسانية من وحدة ، وان التاريخ يجب ان يكتب عن كل هذه الجوانب مجتمعة ــ يعني جوانـــب حياة الامة ــ كما يكتب عن كل منها منفردا ، وان يكتب على نحو تركيبي ، كما يكتب على نحو تحليلـــي) . فديورانت وان لم يعلن هاهنا صراحة عن رايـــه في وحدة الحضارة أو تعددها ، الا ان ميله الى كتابة تاريخ حياة الامة مركبة لا مجزءة ، وتحدثه عن حضـــارات مختلفة ، وابرازه لكون كثير من مكتسبات الحضارة التي انتهت الينا ، ترجع في اصولهـــا الى حضارات قديمة ، يوحي بانه يجمع بين فكرة الوحدة وفكـــرة التعـــدد .

وخلاصة ما نستطيع استنتاجه من كل هـــذه الآراء ان تفاعل الجهود البشرية وتواصلها وتاثر بعضها ببعض ، لا ينافي ان الحضارة لا يمكن ان تكون شيئـــا واحدا ، اذ ان هذا لا يتفق ومنطق الاشياء . فما دام البشر يختلفون في اديانهـــم ونظمهـــم السياسيـــة والاجتماعية والاقتصادية ، وكذا في فنونهم وآدابهـــم وصناعاتهم ونظرتهم الى الاشياء، واساليبهم في الحكم عليها ، وفي بيئاتهم الاجتماعية والطبيعية ، فلا بد ان ينتجوا حضارات متعددة ، لا حضارة واحدة .

بعد هذا لا نجد حرجا اذا نحن قلنـــا ان كـــل شعب من شعوب الارض له ثقافته الخاصة ، التـــي تنسجم وطابع حضارته العام ، والمتأثـــرة بتاريخـــه وبيئته الطبيعية والاجتماعية ومعتقداته والوان معيشته وما الى ذلك من نواحي حياته . دون اغفال ان هـــذه الثقافة لا يمكن بحال من الاحوال ان تكون منقطعة الصلة بغيرها من الثقافات . فالحقيقة ان كل ثقافة قومية هي نتاج جهود بشرية مشتركة ، وذات قرابة في الفكـــر الانســـاني العام ، والا لما كان في الامكان ان تؤثر ثقافة في اخرى وتاخذ منها وتعطيها ، اذ قضية الاخذ والعطاء دليل على وجود قدر مشترك بين المعطي والآخـــذ ، والفاعل والمنفعل ، على اساسه يتم التبادل . وهنـــا ينبغي الا يعزب عن بالنا ان الثقافة القومية لا تظهـــر

(2) في معـــركـــة الحضـــارة ص 68 و 69 .

الاصالة القومية في جميع فنونها وعلومها بدرجة واحدة. فلا شك ان الجانب الفني منها اوثق صلة بشخصية الامة من جانبها العلمي ، لاعتماد الفن على العواطف بالدرجة الاولى ، واعتماد العلم على العقل الذي تتشابه قضاياه واحكامه وقوانينه بين الشعوب .

فاذا كانت الحضارة تتارجح بين الوحدة والتعدد فهذا يصدق على جميع مظاهر الحضارة،ومنها الثقافة. وبناء على ذلك يصح القول باننا لا نشذ عن امم الارض في ان لنا ثقافتنا الخاصة الراجعة الى هذه الحضارة العربية الاسلامية التي نحن فرع من فروعها وثمرة من ثمراتها الضاربة في مشارق الارض ومغاربها . فثقافتنا في مفهومها العام الواسع ، هي الثقافة العربية الاسلامية التي تقوم على اساس اعتقاد ان لا اله الا الله ، وان محمدا عبده ورسوله ، وعلى اساس التاريخ العربي الواحد ، واللغة العربية الواحدة ، وكذا على نظام الاسرة والمجتمع والتراث القديم المشترك . بيد ان هذه الثقافة العربية الواسعة لا تعني ان جميع الشعوب العربية نسخ متكررة في المجالات الثقافية ، وان ما عند هذا الشعب العربي من ثقافة ، ان هو الا تكرار او صورة لما عند شعب عربي آخر ، دون ما فروق او اختلافات. فالحقيقة ان هناك مقدارا من الاختلاف والتغاير ، لا ينافي الاصول الواحدة التي ترتد هذه الثقافة اليها . ذلك ان للبيئة المحلية دخلا كبيرا في احداث فروق بين الوان النشاط الثقافي للشعوب العربية . كما ان للحضارات التي مرت بارض كل شعب عربي دخلا كبيرا في ذلك . هذا بالاضافة الى تنوع المواقع الجغرافية ، والسلالات البشرية ، وتكيف المعتقدات باشكال البيئات الاجتماعية التي تغزوها وما الى ذلك من العوامل .

وعلى ذلك ، يصح ان نتساءل : هل لنا ثقافة خاصة بوصفنا مغاربة ؟ واذا كانت عندنا هذه الثقافة، فما حدودها ؟ وما مفاهيمها وابعادها ؟ وما نسبتها الى ماضينا وحاضرنا ؟ . اول ما ينبغي التذكير به ، ان (الثقافة المغربية) لا تعني ابدا هذا المعنى الضيق المتبادر الى الذهن ، وهو انها مقصورة على الوان النشاط الفني والفكري الذي عرفه وطننا المغرب الاقصى . فالحقيقة ان الثقافة المغربية تعني معنى اوسع من ذلك . تعني ثقافة الشمال الافريقي وثقافة الاندلس ، بحكم الوحدة التي تنتظم هذه الثقافة وتؤلف بينها برباط متين . فغير خاف ان اقطار الشمال الافريقي كونت عبر تاريخ المغرب وحدة سياسية وعمرانية وبشرية واقتصادية ، زيادة على الروابط الاصيلة الاخرى ، مما ساعد على تكوين حياة عقلية واحدة ، لم يكن مرور الايام ليزيدها الا ثباتا وتمكنا . فانت اذا رجعت بالذاكرة الى الوراء ، واخذت تبحث عن الوان النشاط الفكري والادبي في القيروان وفاس ومراكش ، لما وجدت فروقا تذكر بين النشاطات الثقافية لهذه المدن الافريقية ، نظرا لكونها كانت تكون مراكز متعددة لثقافة واحدة . وكثيرا ما كان العلماء الافارقة والمغاربة يتنقلون بين هذه المراكز ليتلقوا نفس الدروس التي كانوا يتلقونها في نواحي اخرى من هذا القطر المغربي الكبير ، دون أن يجدوا ان هناك اختلافا يذكر ، بين مركز وآخر ، في مواضيع الدراسة، وكميتها واتجاهاتها . وكذلك الامر ، بالنسبة لعلاقة المغرب بالاندلس . فالبلدان يشتركان في اوضاع ادبية واحدة ، بل انهما يكونان تاريخا حضاريا مشتركا، نظرا لعلائقهما الجغرافية والسياسية والبشرية وغيرها . وعليه يمكن من وجه من الوجوه ان يعد ابن زيدون او ابن عمار اديبا مغربيا ، ومن ادباء الاندلس من تحار اين تضعه ، هل تضعه هنا او هناك مثل لسان الدين بن الخطيب الوزير السياسي الاديب . وقد كان الاديب اذا انتقل من هنا الى هناك او العكس، لا يشعر بان شيئا كثيرا قد تغير من حوله ، من حيث البيئة العلمية والادبية ، فدائما نفس الثقافة ، ونفس الذائقة الفنية ، ونفس العلوم . اللهم الا ما كان من بعض الفوارق التي تقتضيها البيئة المحلية التي لا بد ان تترك اثرها على السكان ، وتكيف ميولهم واذواقهم. وكم من اديب اندلسي قضى جزءا من حياته في المغرب، واديب مغربي قضى جزءا من حياته بالاندلس . وملوك المغرب كانوا ممدحين من طرف شعراء الاندلس وملوك الاندلس كانوا بدورهم ممدحين من طرف شعراء المغرب . والهجرة بين البلدين متصلة بدون انقطاع . اما عند المشارقة في البلاد العربية فالادب المغربي عندهم ظل الى وقت قريب ، لا يعني الا هذا الادب الواقع الى الغرب من ذلك الجناح الشرقي ، ليشمل ادب المغرب والاندلس . والمغرب هنا يطلق على الشمال الافريقي باسره ، وعلى البلاد الاندلسية . فلا غرو بعد هذا اذا كان الادبان المغربي والاندلسي يشتركان في كتاب واحد ، ولا سبيل الى فهم احدهما بدون الاخر ، وقصة كل منهما تتخذ لها مسرحين هنا وهناك. حتى ان العماد الاصفهاني افرد احد اجزاء الخريدة لشعراء صقلية والقيروان والمغرب والاندلس ، حيث جمعهم في كتاب واحد عن بينة وقصد . وهذا الاديب ابن عيسى بن حزم البلنسي المالقي الف كتابا لصلاح الدين الايوبي اثناء اقامته بالديار المصرية بعد اغترابه

عن وطنه الاندلس بعنوان : (المطرب في محاسن اهل المغرب) وذلك سنة 560 هـ . وهذا العالم الاندلسي ابن عبد البر يطلق عليه (حافظ المغرب) فيعتبر مغربيا ، على اعتبار ان الاندلس والمغرب بلد واحد ، وثقافتهما ثقافة واحدة . ويقول العلامة ديبور : « تكون العالم الاسلامي في المغرب من شمال غرب افريقية ومن اسبانيا وصقلية » .

هذا وان كل ثقافة قومية تستمد مقوماتها من عدة مصادر، منها العقيدة الدينية، والبيئة الاجتماعية، والبيئة الطبيعية ، والمزاج القومي ، والاحوال الاقتصادية والسياسية ، وطابع العصر . فالعقيدة الدينية ، تعتبر المصدر الاول للثقافة القومية ، لانها ذات اثر بعيد في تحديد نظرة الانسان الى الحياة ، وفي دفعه الى الايمان بعدد من القيم المعنوية والمثل العليا ، هذه التي اليها يرد عدد من الاتجاهات الثقافية ، وبها تفسر كثير من الافكار والمبادىء السائدة في ثقافة ما وعنها تصدر شتى المواقف الفكرية والانفعالية لدى المثقفين وذوي القرائح الخصبة . كما انها تؤثر على مضامين الصور الفنية والبيانية من نحت وعمارة وشعر وقصة ورواية وما هو من هذا القبيل . والبيئة الاجتماعية بكل ما يدخل فيها من عادات ونظم اجتماعية تشمل الاسرة والمجتمع ، ومن قيم متوارثة تدخل في صميم تكوين الفرد النفسي ، وتملي عليه عددا من المفاهيم والمواقف والاتجاهات ، وتسيطر على شخصية بدون فرق بين مثقف وجاهل ، ورجل وامراة . اما البيئة الطبيعية فاثرها في الثقافة من الوضوح بحيث لا يحتاج الى بيان . والامر كذلك بالنسبة الى الاحوال الاقتصادية . فالامة الزراعية يغلب على ثقافتها الاتجاه الادبي كالشان في الثقافة العربية . والامة الصناعية يغلب على ثقافتها الاتجاه العلمي . ذلك ان العلاقات الاقتصادية ووسائل الانتاج ولون النشاط الاقتصادي من اهم العوامل التي تحدد صلة الفرد بالمجموع ، وتخلق الحاجات النفسية والفكرية وتوجهها ؛ وتستدعي التفكير السائد ، الذي من شانه ان يكون استجابة لتلك الحاجات وتشخيصا لها.

والثقافة المغربية تستمد وجودها من كل هذه المصادر ، وتعكسها وتاخذ منها مقومات وجودها . فالعقيدة الاسلامية لعبت دورا كبيرا في صياغة هذه الثقافة واعطائها مجموعة من المبادىء والقيم المعنوية التي ترتكز عليها . ولا نبعد اذا قلنا ان فقهاء المالكية في المغرب قد كانت لهم الاسبقية في صياغة هذه الثقافة واعطاء شؤون العقيدة مركز الصدارة فيها . ولعل كتاب (رياض النفوس) في طبقات علماء القيروان وافريقية ، لابي بكر المالكي ، يوضح هذه الحقيقة بما لا يدع مجالا للبس . فقد كان لفقهاء المالكية في هذه البلاد من المواقف المشرفة في احقاق الحق وازهاق الباطل ، والثبات على المبدا ، والتضحية في سبيله . ما رفعهم في اعين المغاربة الى مقام الزعامة ، وبواهم المكانة الرفيعة في اوساط العامة والخاصة ، وجعلهم منارات يهتدى بها في الليالي الحالكات . واستمع الى حسين مؤنس يقول في تقديم كتاب (رياض النفوس) (ان المذهب المالكي كان الحصن الذي اعتصم به اهل افريقية حين دهمتهم حركات الخوارج والحوادث السياسية ، وكيف انه كان السياج الذي صان المجتمع الافريقي من التفرق والتبدد في تلك العصور) . ويقول ايضا : (ورأينا كذلك كيف اصبح هذا المذهب (قومية) مغربية ، فقد كان مالكيا قبلته الجماعة الافريقية . ومن مال الى غيرها من المذاهب نبذته وعادته) والكتاب الى ذلك يصور الربط التي انتشرت في انحاء المغرب ، كما يعطي نظرة عن الحركة الصوفية في المغرب منذ نشاتها الاولى على اسس مغربية ربما استطعنا مع البحث ان نربطها الى اصول مسيحية مغربية عرفها المغرب قبل تحول اهله الى الاسلام ، ولكن مع كثير من التحفظ ، دعك من الخصام العقائدي الذي كان المغرب مسرحا له من قديم . فقد عرف المغرب كثيرا من المذاهب الاسلامية كالمذهب الاسماعيلي والمذهب الخارجي والمذهب السني ، والمذهب الصوفي ، وكانت هذه المذاهب تتصارع فيما بينها صراعا عنيفا ، وربما تتدخل الدولة احيانا كطرف في الخصومة ، ويتحيز بعض الفقهاء للدولة ، وبعضهم الاخر يقف ضدها ، كالشان في علماء المرابطين والموحدين .

وليس غرضي هنا استعراض النشاط الثقافي المتاثر بالعقيدة الدينية ، ولكن غرضي هو الاشارة الى الدور الذي لعبته العقائد الاسلامية في تكوين الثقافة المغربية . ولعلك سائلني : هل التاثر بالعقائد والمذاهب الاسلامية امر خاص بالثقافة المغربية ؟وهل يصح اعتبار ذلك من المقومات الاساسية للثقافة المغربية وحدها ؟ والجواب ان الثقافة المغربية ليست الا جزءا من الثقافة العربية العامة في تاثرها بعدة مؤثرات منها المذاهب والعقائد ، الا ان نشاط علماء المالكية في الشمال الافريقي وما كان لهم من مواقف وتاثير في الجماهير المغربية ، يعطي الثقافة المغربية ميزة ربما لم تتحقق لفروع الثقافة العربية في الاقطار الاسلامية الاخرى .

وقد رأينا منذ قليل كيف نص حسين مؤنس على ان المالكية عند المغاربة لم تكن مجرد مذهب فقهي ، وانما كانت بالنسبة اليهم (قومية) وعقيدة وطنية ، وهذا مما لم تستطع المالكية تحقيقه فى اى بلد عربي آخر ، حتى فى البلاد الشرقية التي صدر المذهب المالكي عنها .

والمعتقد الديني لم يؤثر على الثقافة المغربية ولم يصفها بهذه الطريقة المباشرة فحسب ، وانما قد اثر عليها وصاغها بطريقة اخرى غير مباشرة ، ذلك ان العقيدة الدينية كانت مصدر الهام لجميع شعراء المغرب وادبائه على اختلاف العصور .

هذا ما يتصل بالمصدر الاول للثقافة المغربية ، اما ما يتصل بالمصدر الثاني وهو البيئة الاجتماعية والطبيعية ، فنصوص هذه الثقافة صريحة فى الدلالة على ان المجتمع المغربي كان دائما مصدرا للاديب يستمد منه مادته الاولية ، وانت تجد فى نصوص الادب المغربي من قديم وصفا لمدنه كفاس ومراكش ومكناس وتطوان وسبتة ، وكذا مآثره التاريخية ، ومفاتنه الطبيعية واحداثه التاريخية . فعبد المهيمن الحضرمي يصف النخيل فى سجلماسة ، والفقيه المغيلي يصف مدينة فاس ، ومنديل بن آجروم يصف الطبيعة بنواحي باب الفتوح بفاس ، وابن عبد المنان يمدح ابا عنان المريني ، ويصف ساعة مدرسته بفاس ، والشاعر عبد العزيز الفشتالي يتحدث حديث شاعر عن القبة الخمسينية التي بناها المنصور الذهبي ويجري الحديث على لسانها . اما مدائح الشعراء فى ملوك المغرب ووصفهم لاحداثه البارزة كمعركة وادي المخازن ، وفتح عبد المومن بجاية ، والانتصار على الاسبان عند جواز ملوك المغرب الى الاندلس ، وفتح المنصور المريني لمراكش ؛ وفتح الشيخ عبد الواحد ابن محمد الشريف البوعناني لمدينة العرائش ، وغيرها من الاحداث ، فنصوص الادب المغربي طافحة بها (1)

ومنذ عرفت الثقافة المغربية نصوصا اخرى ابلغ فى الدلالة على احوال البيئة ، كالمناظرات التي كانت تجري بين العلماء والمقامات التي كانت تصور الوانا من الحياة الاجتماعية ، والاخوانيات التي كانت تصور ارق الصلات بين ذوي الملكات وارباب الاقلام . انها الوان من الادب المغربي تعكس ادباء المغرب وهم يضطربون فى هذه الحياة فينالهم خير حينا ، وينالهم شر احيانا اخرى ، وتعكس محبتهم للناس المحيطين بهم ، كما تعكس لومهم لهم وازورارهم عنهم وذمهم لهم فى بعض الاحيان ، وهي فى كل ذلك تتاثر بالجو الاجتماعي وبالروابط التي تشد الناس بعضهم الى بعض ، فتجمعهم على محبة ووئام ، وتجمعهم على نزاع وخصام ؛ وهي تعكس كذلك الذوق العام السائد فى اختيار الاطعمة والاشربة والملابس وادوات الحضارة وانواع التسلية وجمال المراة ، وتصور فيما تصوره الضلالات والبدع التي انتشرت فى الوسط المغربي حقبا من تاريخه ، فتصدى الخطباء لمقاومتها وفضح مضارها ، وتصور المداعبات والمباسطات التي كانت تجري بين جماعة من المتظرفين . وخلاصة القول ان الثقافة المغربية تفوح منها رائحة قوية للبيئة المحلية من جميع جوانبها ، سياسية كانت او اجتماعية او دينية او اقتصادية ، الا ان ذلك لم يكن عن قصد حسب ما تدل عليه النصوص التي وصلتنا وما عرف عن منتجيها ، وانما كان من باب التاثر التلقائي بالوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه الاديب ، ويتعرض لشتى المؤثرات التي تصدر عنه . ذلك ان تصوير الادب للوسط الاجتماعي يسلك واحدة من طريقتين: احداهما مباشرة ، والاخرى غير مباشرة . فبمقتضى الاولى يتصدى الاديب للبيئة المحلية ليسلط اضواء على مشاكلها قصد المساهمة فى حلها ؛ وبمقتضى الثانية يقتصر الاديب على التعبير عن شؤونه الخاصة ، وعن خواطره تجاه ما يحيط به ؛ وحينئذ تاتي المؤثرات المحلية تلقائيا لتباشر تاثيرها فى عمله من غير وعي منه غالبا . وهذه هي الطريقة التي عكست بها الثقافة المغربية الواقع المغربي فى الغالب .

وكون المغرب قطرا فلاحيا رعويا كان له اثره العميق فى الثقافة المغربية ، ذلك ان نوع معيشة السكان ، ولون نشاطهم الاقتصادي من شانهما ان يتركا اثرهما على القيم الاجتماعية والفكرية ، ويحددا علاقة الفرد بالاسرة وعلاقته بالمجتمع ، ويصوغا علاقة الطبقات الاجتماعية بعضها ببعض . وبما ان الثقافة هي ابنة الاوضاع المحلية والعقلية الوطنية ؛ كان من اللازم ان تكون متاثرة الى حد بعيد بالوضع الفلاحي او الصناعي او التجاري لبلد ما . وكنتيجة لذلك غلب الطابع الديني والطابع الادبي على الثقافة المغربية ، فهي ثقافة ادب ودين قبل كل شيء ، وتكاد جميع العلوم التي عرفتها ثقافتنا تكون خادمة للدين وتابعة له ، وهذا له علاقة متينة باصطباغ البلاد بالصبغة الفلاحية . ذلك

1) راجع (النبوغ المغربي) الجزء الثالث .

ان الفلاحة في المجتمعات الفلاحية تشد الفلاح الى الايمان بالقضاء والقدر بكيفية مطلقة ، وتجعله يعلق مستقبل الارض على المشيئة الالهية وهو يشاهد بتجربته ان هناك كوارث الجفاف والفيضانات والاوبئة وغيرها من مخاطر الطبيعة،تاتي على الاخضر واليابس، وتهلك الحرث والنسل . ويرى الجائحات التي تجتاح الحقول كالجراد والجرذان ، ومن ثم فهو يزرع الارض وينتظر من العناية الالهية ان تحصنه ضد الافات المهلكة . وهذا الشعور يسري في جميع الطبقات الاجتماعية ، لانها ابنة وضع فلاحي وتعيش على امكانيات فلاحية . ولهذا تكون الثقافة الناشئة في هذا الوضع تحتوي على عدد كبير من القيم الدينية كالتواكل ، والايمان المطلق بالقضاء والقدر ، وتدخل المشيئة الالهية وحدها في تفريج الكرب والتخفيف من الازمات ، وتفسير الكوارث الطبيعية والاجتماعية بانتشار الفساد والزيغ عن الطريق المستقيم . وينبغي الا يفهم من كلامي هذا اني اجهل المعتقد الديني قضية تاثير بالاوضاع المحلية لا اقل ولا اكثر ، فانا مومن بان العقيدة الدينية القائمة على كتاب سماوي فوق جميع الاوضاع المحلية ، الا ان هذا لا ينافي كونها تتاثر بها عند ما ينظر الى تكيفاتها وجنوحها نحو التطرف او الاعتدال . هذا علاوة على كون المجتمع الزراعي يغرس في نفوس الافراد والجماعات قيم التعاون والصبر واحترام الاكبر سنا وتقديس الاباء والاجداد، والتعلق بالارض والتشبث بالاسرة والخضوع للعادات المتوارثة والنظر الى ثمرات الارض على انها شيء مقدس ، والخوف من كل جديد ، والتشبث بكل ما هو قديم ، وما الى ذلك من قيم الحياة الزراعية التي يتردد صداها في الثقافة القومية . وانت لو تصفحت نصوص الثقافة المغربية خاصة والعربية عامة لوضعت اصابعك على سيل من الآثار الادبية والدينية التي ترد الى تلك القيم .

واما عن صلة الادب بالحياة الزراعية ، فيكفي ان نتذكر ان الادب هو الاداة الصالحة للتعبير عن القيم المذكورة ، نظرا لكونها — اي تلك القيم — تقوم في جملتها على اسس عاطفية ونفسية اكثر منها فكرية نظرية ، والقالب اللفظي الذي تتحقق فيه هذه الصفة هو القالب الادبي . هذا من جهة ؛ ومن جهة اخرى فالادب يحافظ على قيم المجتمع الزراعي ويزيدها ذيوعا وانتشارا ، وينقلها من السلف الى الخلف ، ويحيطها بهالة من القداسة ، ويرفعها الى مقام العقائد التي لها على النفوس سلطان عظيم ؛ يستوي في ذلك الادب الرسمي كما يصدر عن الكتاب والشعراء المتازين ، وفي لغته العالية الرسمية ، والادب الشعبي الصادر عن طبقات الشعب كلها وعن بعض من اوتوا من صفاء البصيرة ورهافة الحس ما استطاعوا معه التجاوب مع روح الجماعة وتذوق لغتها . وللاداب الشعبية في المجتمع الزراعي دور كبير ربما كان يفوق دور الادب الرسمي ، في التعبير عن تلك القيم وصيانتها ونقلها عبر العصور والاجيال ؛ نظرا لكون فئات كثيرة من الشعب تساهم فيه ، وتجد فيه الوسيلة المواتية السهلة للتعبير عن عواطفها واحاسيسها . والآداب الشعبية المغربية غنية بقيم مجتمعنا الزراعي . والخلاصة ان المجتمع الزراعي هو بطبيعة تركيبه مجتمع محافظ ، وطالما بقى كذلك فهو يريد لقيمه البقاء والاستمرار ، والوسيلة الادبية هي الكفيلة بحفظ تلك القيم وصيانتها ونقلها عبر العصور والاجيال.

والثقافة المغربية الى ذلك تعبير عن الذائقة المغربية ، في نصوصها الادبية . والذائقة هي حصيلة عدة عوامل ومؤثرات مر عليها زمن ليس بالقصير وهي تعمل عملها ، وفي كل مرحلة من مراحل عملها تضيف الى نفسية الامة عددا من الامكانيات الفنية ، الى ان تتبلور اخيرا في شكل ذوق عام مستقر ، تعنو لحكمه الجماعة والفرد . وهذا الذوق هو الذي يحدد طريقة استجابة الجماعة لآيات الفن . هذا وان من الصعب على الباحث ان يوضح الحدود الفاصلة بين الذوق العربي العام ، والذوق المغربي الخاص — ان كانت هناك هذه الحدود — نظرا لكون الصلات العديدة التي تشد الثقافة المغربية الى اصولها الشرقية شديدة التاثير في اصلاب المثقفين المغاربة . ولكن هذا لا ينفي ان للمغاربة ذوقهم المؤثر في فنونهم وآدابهم ، بحكم ما لهم من طابع محلي لا يمكن ان يترك الذوق الفني دون ان يؤثر فيه . وان الذوق المغربي الذي ابدع الزربية، والآنية الخزفية ، والفسيفساء الجميلة ، والنافورة الراقصة ، والقراميد المنسقة ، والاهازيج الشعبية ، لا يمكن ان يبقى بمعزل عن قصيدة الشاعر ، ومقالة الكاتب . الا ان الذوق يتطور ويتغير تبعا لنواميس اجتماعية مطردة ؛ وذلك بفعل التطور الشامل للامة في شتى مجالات الحياة ، في التربية والاجتماع والثقافة والاقتصاد والصلة بالعالم الخارجي وما الى ذلك . ولهذا فما كان يستجاد بالامس قد لا يستجاد اليوم من الوان الاداب والفنون ؛ بيد اني احسب ان هناك اصلا للذوق العام لا تنال منه الايام الا قليلا . فبالغة ما بلغت التطورات الذوقية العامة ، لا بد ان تبقى في اعماق

نفسيات الشعوب رواسب للذوق المتوارث عبر السنين والاحقاب . وهو العمدة في الربط بين الماضي والحاضر ولولاه لما امكننا نحن ابناء القرن العشرين ان نقرا الشعر الجاهلي فنهتز لروائعه ، ونجد في بعض نصوصه صدى لنفوسنا . وعلى ذلك فنحن نقرا اليوم لعبد العزيز الفشتالي ولمالك بن المرحل ولابي جعفر بن عطية ولابي علي اليوسي ، فنجد صلة بيننا وبين هذا الذي نقرؤه ، قد تكون صلة ضعيفة او سطحية ، ولكنها على كل حال صلة تعتمد على رواسب الذوق المغربي الاصيل .

فاذا انت اسقطت من حسابك تلك الطوابع الخاصة بالثقافة المغربية ، فانك تجد نفسك امام ثقافة عربية لها جميع مقومات الثقافة العربية في كل مكان ، تستمد من مصادرها ، وتكرع من ينابيعها وتسير في مجاريها . ذلك لان الشعب المغربي ان هو الا جزء من الامة العربية الكبيرة ، عقيدته الاسلام ، ولغته العربية ، وامجاده هي امجاد التاريخ الاسلامي كله ، وتراثه هو التراث العربي العام المشترك في الآداب والفنون والعلوم ومذاهب الراي والفلسفة والفقه وما الى ذلك .

تلك المظاهر الاقليمية لثقافتنا دفعت عددا كبيرا منا الى التشبث بهذه الاقليمية واعتبارها عصب النشاط الثقافي الذي عرفته هذه البلاد على مر العصور ، كما ان تلك الاصول القومية المشتركة التي تنبع ثقافتنا منها صدت الكثيرين منا عن قبول فكرة الاقليمية بالنسبة لما عرف المغرب من الوان الادب والعلم . وقالوا ان هي الا ثقافة عربية واحدة سواء شرقت او غربت ، ولا معنى لهذا التعصب الضيق الذي يخيل الينا معه اننا نمتاز من الثقافة العربية العامة . وانا ارى ان موقف كل من الطرفين لا يخلو من غلو ، فالحقيقة ان ثقافتنا عربية اولا ومغربية ثانيا . وفيها من الشخصية العربية الاسلامية العامة ، ما يقف الى جانب ما فيها من الشخصية المغربية الخاصة ، ان لم نقل ان نصيبها من تلك اوفر من نصيبها من هذه ، وهذا امر طبيعي ، فالتراث العربي المشترك هو تراث واحد ، واللغة واحدة ، توحد المشاعر وتجعل طرق التفكير شديدة التشابه ، ونظام الاسرة والمجتمع المستمد من الشريعة الاسلامية نظام واحد ، والاصول الجنسية ان لم تكن واحدة فهي قد كانت ذات موجات تتدفق هنا او هناك داخل الوطن العربي وتمزج بين شعوبه مزجا تاما ، والانظمة الاقتصادية والسياسية بين اقطار البلاد العربية على سعتها استمرت عصورا طويلة وهي انظمة واحدة . هذا التناسق العام بين الاقطار العربية في كل هذه النواحي وفي غيرها ، نتج عنه تناسق فكري ونفساني ادى الى اضعاف الطوابع المحلية وان لم يتمكن من القضاء عليها واقصائها من صميم الكيان الثقافي ، فهي — اي الطوابع المحلية — ظلت ولا زالت تعمل عملها وتساعد على تنوع النشاط الثقافي العربي ، استجابة لمتطلبات البيئة المحلية طبيعية واجتماعية ، اذ رغم التشابه الكبير الموجود بين المجتمعات العربية للاسباب المذكورة ، فانه يبقى لكل مجتمع ذوقه ومزاجه الخاصين . وهنا ينبغي الا ننسى رواسب الماضي التي ما زالت قابعة في اعماق نفوسنا ، فان نحن الا ورثة حضارة فكرية وفنية وافده على هذه البلاد من مطلع النور ، ومهبط الوحي ، ومن البلاد الشرقية عامة . وقد وصلت هذه الحضارة الى هذه البلاد والى البلاد الاندلسية متاخرة ، وبعد ان وجدت لها بيئات عديدة في اقطار شاسعة ، وكان الافارقة والاندلسيون يشعرون يومئذ بمركب نقص ازاء الحضارة الوافدة ، فكانوا يجاهدون من اجل تاكيد الذات واثبات الشخصية . سلكوا طريق المحاكاة اولا ، ثم لم يلبثوا ان بداوا يجدون انفسهم رويدا رويدا . وكان لهم من طبيعة بلادهم الجميلة ، ومن احداث حياتهم المضطربة احيانا ، ما قدم لهم مادة غنية دار حولها شيء كثير من نظمهم ونثرهم . وبالرغم من هذا الزمن الطويل الذي مر على الفتح الاسلامي لهذه الديار ، وتقادم العهد على اتصالنا بالحضارة العربية الوافدة ، فاننا اليوم نجد انفسنا في مثل الموقف الذي وجد فيه اجدادنا نفوسهم ازاء تلك الحضارة ، وهذا سر تطرف بعضنا في مغربيته ، بحيث يتشبث بفكرة (ثقافة مغربية) تشبثا تاما) ، حتى ليصل به الامر الى حد التعصب غير المحبوب متاثرا بعقدة النقص الكامنة فيه . المغربية التي نبحث عنها ونريد تاكيد وجودها في الادب والعلم ، ينبغي ان تكون متفتحة ، قابلة للاخذ والعطاء ، بعيدة عن التعصب ، غير ناسين اننا نبحث عن انفسنا داخل اطار الثقافة الاسلامية التي نعتمد على تراثها ، ونقف على ارضيتها ، ونعمل بادواتها ، حين نبحث عن ثقافتنا المغربية .

واذا كانت المركبات قد عملت عملها في نفوسنا ، كما عملت عملها في نفوس اجدادنا ، فلان ذلك من طبيعة الشعوب التي تغزوها حضارة اقوى من حضاراتها في العلوم والآداب والفنون ، يمكنك ان تاخذ على ذلك مثلا من الشعوب التي طرات عليها الحضارة الاسلامية كالمغول والاتراك الذين بهرهم سنا هذه الحضارة ، فكان لها فيهم تاثير كبير ، اذ اقبلوا عليه

بعقدة التخلف الكامنة فى نفوسهم ، محاولين ان يكونوا فى مستواها المادي والمعنوي ، ومن ثم انطبعوا بطابعها وتقهقرت طوابعهم القديمة ، لانها لم تقو على الصمود امام التحديات الجديدة التي تمثل العنصر الاقوى والارقى . على حين تأثرت شعوب اخرى بحضارة الاسلام ، كانت لها حضارة عريقة ، وكان بها مجد اثيل ، ومقام مرموق فى العالم القديم ، فزادها التحدي الحضاري الاسلامي شعوراً بشخصيتها ، وتنبه الى امجادها . فالفرس عندما التقوا بالحضارة الاسلامية ، دفعهم ذلك الى بعث تاريخهم وآدابهم وفنونهم التي استطاعوا فرضها على المجتمع الاسلامي ، باذلين فى ذلك ابلغ الجهد واكبر الطاقة . وما قلناه عن الفرس يمكن ان نقوله عن الروم والهنود . وهذه الشعوب وجدت نفسها امام سبيلين لا ثالث لهما ازاء الحضارة الاسلامية ، حضارة الروح والفكر ، اما ان تنبذها وتبتعد عنها مقيمة بينها وبينها سدا منيعا ، واما ان تندفع نحوها وتتقنها فقها وعلما ، باذلة كل الجهود من اجل التفوق والامتياز ، فى الوقت الذي تعمل فيه على نشر حضارتها ومدنيتها ضمن تلك الحضارة الاسلامية ، الى ان تثار لنفسها حضاريا من اولئك الذين ازالوا سلطانها على الارض ، وجعلوها مغلوبة على امرها سياسيا وعسكريا . اما السبيل الاول فقد كان من قبيل المستحيل ، فلم يبق امامها الا السبيل الثاني وهو الذي سلكته بالفعل ، فاستطاعت عن طريقه ان تجمع بين الاحاطة بالثقافة العربية الاسلامية الوافدة ، ضامنة بذلك مكانة علمية وادبية واجتماعية عالية ، وبين احياء تراثها الحضاري ، وبعثه حيا نابضا وادماجه فى المزاج الحضاري الاسلامي العام .

ولكن هذا الذي نجحت فيه هذه الشعوب الاسلامية المكونة من الموالي الفرس والروم ، هو ما لم ينجح فيه المغاربة الا نجاحا جزئيا بسيطا . واقصد بالمغاربة السكان الاصليين لهذه البلاد . واذا كنت اترك للباحثين ان يبحثوا عن اسباب هذه الظاهرة ، فاني لا يفوتني هاهنا ان اشير الى ان هذا التقصير من جانب المغاربة — واقصد مغاربة الشمال الافريقي — فى حقل الثقافة العربية الاسلامية ، بالنسبة لشعوب اسلامية اخرى ، كان فى طليعة الاسباب التي جعلت عقدة التخلف تتحكم فى النفس المغربية من احقاب بعيدة والى اليوم . واوضح انني لا اعني ان المغاربة لم يسهموا بنصيب فى هذا المضمار ، وانما اعني ان ما اسهموا به لم يكن بالحجم الذي اسهم به اى شعب آخر من الشعوب الاسلامية ذات الحضارة العريقة ، والتي طرا عليها الاسلام فى عقر دارها . لقد كنا دائما ننتظر ان تظهر مذاهب الكلام والفقه وانماط الشعر والنثر الجديدة فى البلاد العربية الاخرى ، لنحاكيها ونتجند من ورائها ونتحمس لها ، ولم نكن مصدرين للثقافة بقدر ما كنا مستوردين ، ولا منتجين بقدر ما كنا مستهلكين . اقول مرة أخرى اني اترك للباحثين تعليل هذه الظاهرة ، بيد ان ذلك لا يمنعني من اعطاء تعليل لها ارجو ان يكون صحيحا ، وهو ان الشعب البربري الذي اعتنق الاسلام ، وتعلم اللغة العربية ، واخذ تدريجيا يهضم الثقافة العربية ويتجاوب معها ، ثم بعد ذلك بدا يضيف اليها بعض الشيء ، لم يكن شعبا ذا حياة عقلية حية قوية قبل اعتناقه الاسلام ، فهو لم يعرف علوما ولا فلسفات ولا آدابا راقية ، ولا فنونا ممتازة ، ولغته نفسها لم تكن تؤهله لذلك ، لكونها مفتقرة الى خصائص اللغات الحية ، وهي ليست صالحة لان تكون لغة كتابة ، فكيف يمكن ان تكون لغة ادب راقي وعلم واسع ؟ على حين ان شعوبا أخرى عندما جاءها الاسلام وجدها على أعلى مستوى من الرقي الفكري والاجتماعي والاداري والسياسي ، وصادف عندها علوما وآدابا وفلسفات وانظمة ادارية واقتصادية واجتماعية ، استطاعت بها جميعا أن تصمد للثقافة الوافدة ، وان تسيغها وتبتكر فيها ، وترتفع بها الى اسمى المراتب . وهي لم يكن فى وسعها ان تفعل ذلك لو لم تكن مستعدة عقليا وحضاريا للقيام بهذا الدور . بل ان العرب الجاهليين انفسهم ما كان لهم ان يفهموا رسالة الاسلام ويتقبلوا تعاليمه ويتشربوا حبه ، وينفذوا الى اعماقه ، لو لم يكونوا ذوي خصب فى العقول ، وثراء فى النفوس ، ونضج فى الملكات . هذا هو السبب الذي يبدو لي حينما اتامل هذه الظاهرة ، وقد تكون لها اسباب اخرى غاب عني ادراكها اترك البحث عنها لمن هو اقدر مني على البحث والدرس فى هذا الموضوع .

واذن فمشاركة المغاربة فى حقل الثقافة العربية كان مقدرا لها ان تكون محدودة بحدود استعدادهم الخاص ، وقد لا يكون فى مقدورهم ان يفعلوا اكثر مما فعلوا ، وان يحملوا من اعباء هذه الثقافة اكثر مما حملوا ، بل ان ما ساهموا به من الوان النشاط العلمي والادبي لا يعد شيئا قليلا بالقياس الى امكانياتهم الحضارية التي استقبلوا بها حضارة الاسلام . هذا مع العلم بان المغاربة لم يكونوا وحدهم فى ميدان الانتاج العلمي والادبي ، وانما شاركهم فيه العرب الوافدون عليهم من الشرق ، وان كانوا يشكلون اقلية بالنسبة

السواد الاعظم من الامة المغربيــــة . وهؤلاء العـــرب الوافدون تأثروا بظروف البيئة المغربية وطابعها المحلي، وبامكانياتها الثقافية كما اثروا فيها مع مرور السنين ؛ باضافة ان التراث الاندلسي انتقل الى المغرب اثناء قيام دولة الاسلام في الاندلس ، وخصوصا بعد ان اخذ الاندلسيون يتركون وطنهم ويهاجرون الى ارض المغرب التماسا للامن والنجدة من عدوهم المتربص بهم . فكان هؤلاء الاندلسيون ينقلون معهم علومهم وآدابهم وفنونهم، الامر الذي كان له اثره الواضح على الوضع الثقافي في المغرب ، فكانت حركة علمية واسعــة ، وحركــة ادبية دائبة ، ولكن هذا لا ينافي ما قلته منذ قليل من ان مساهمة مغربنا في حقل الثقافة العربية الاسلاميـة كانت اقل شأنا من مساهمة الفرس والروم او غيرهما من الشعوب المغلوبة ، ذات الحضارة المزدهرة والعقلية الخصبـــة .

ويزيد هذه القضية وضوحا ان هناك شعوبــا افريقية أخرى اضعــف من الشعــب البربـــري في الاستعداد الحضاري اعتنقت الاسلام منذ ايام المرابطين، وانتشرت فيها اللغة العربية ببطء شديد ، الى ان كتب لها بعض الانتصار على اللهجات الافريقية المحليــة ، ومرت على ذلك سنون طوال ، دون ان تستطيع هذه الشعوب ان تضيف الى الثقافة العربيــة الاسلاميــة شيئا هاما ، تلك هي الشعوب الزنجية ، مثل شعــوب سنغي ، وسلطنة ملى ، وامارات الحوصة ، والسنغال وغانة وغيرها . فهذه الشعوب كانت اقل مستـــوى بكثير من الحضارة الاسلامية الوافدة ، اذا نظرنا الى استعدادها الفكري والروحي ، ولذلك كان انتشـــار الاسلام والعربية فيها يتسم بالبطء الشديد وحتـــى عندما تمكن الاسلام منها ، واصبح للعربية عشـــاق كثيرون ، ودخلت بعد ذلك في طور الهضم والاستيعاب، استفادت من الثقافة العربية ، ولكنها لم تستطـع ان تفيدها الى اليوم ، وهذا برهـــان على ان الشعـــوب الاسلامية كان حظها من الاسهام في النشاط الفكــري الاسلامي على قدر حظها من مراتب الحضارة الفكرية والروحية والمادية ، عندما استقبلت الاسلام واللغـــة العربية . وانا هنا لا انظر الى بعض العبقريات الفردية، وانما انظر الى النشاط الثقافي العام ، والمحصـــول الفكري الشامل . فلا داعي لان يحتج احد بعبقـــري كابن خلدون او القاضي عياض واضرابهما من ذوي المواهب غير العادية ، والذين يتفوقون على بيئتهـــم تفوقا تتقطع دونه اعناق الرجال .

ولكن مع ذلك فالثقافة العربية الاسلامية في هذه البلاد كان حظها اوفر الحظوظ بالنسبة الى ثقافـــات الفينيقيين والقرطاجنيين المتفرعين عنهم والرومان ، هذه الثقافات التي لم يكن لها من التأثير على المغاربـة مثل ما كان للثقافة العربية ، ذلك ان العرب نجحوا فيما لم ينجح فيه الفاتحون الذين سبقوهم ، نجحوا في تعريب البربر ، وادخالهم جميعا في حظيرة الاسلام ، من حيث اخفق الآخرون في اعطاء البربر صبغــة فينيقيـــة او قرطاجنية او رومانية .

ولما اصبح للعربية قدم راسخة في هـــذه الديار اخذت تمد عنقها نحو شعوب افريقيا السوداء ، وتقف همزة وصل بين قارتي آسيا وافريقيا ، ناقلة التراث الحضاري الضخم بين هذه وتلك ، وبين شعوب كبيرة بفضل تحويلها الى الاسلام ، وايوائها تحـــت ظـــل الحضارة الاسلامية ، ثم نتج عن ذلك ان تجندت تحت راية الاسلام والثقافة العربية . وكان لذلك أثره البعيد في تغيير مجرى التاريخ الافريقي ، وفي اعطاء الاســلام والثقافة العربية مركزا تاريخيا هاما ، وتوسيع رقعتهما وتحقيق عالميتهما ، واكسابهما حصونا منيعة كانت لهما مواقف وجولات مع المسيحية التي دخلت افريقيا قبل الاسلام وبعده ؛ فلم تنجح كثيرا في الحالة الاولـى لكونها كانت الدين الرسمي المستعمر ولا في الحالــة الثانية لكونها وجدت للاسلام معاقل حصينة صمدت في وجهها . ويكفي ان تكون الثقافة العربية الاسلامية قد استطاعت الربط بين شعوب افريقية كانت قبـــل اسلامها تعيش في صراع دموي مرير ، وفي اضطـــراب اجتماعي شامل ، وفي سلبية تكاد تكـــون تامة امـــام الحركات الحضارية المعاصرة لهـــا ، ثم اصبحـــت مستعدة نوعا ما للقيام بدورها الحضاري على مسرح التاريخ ، بأن خرجت من عزلتها ، ووجدت شخصيتها، وتهيأت لاستقبال الاشعاع الفكري الآتي من هنا وهناك. وكل ذلك بفضل الاسلام والثقافة العربية .

والشعب البربري العظيم يكفيه فخرا انـــه كان طليعة الشعوب الافريقية دفاعا عن الاسلام ، وحمـــلا لرسالته الى اسبانيا المسيحية ، والى شعوب افريقية كبيرة ، وانقاذا لدولة الاسلام في الاندلس ، حين تعرضت لخطر شديد ، وبلاء ساحق ، وذلك ببـــذل المهـــج والارواح ، وتحمل كل انواع التضحيات ، الى ان وقع المقدور ، ونفذت مشيئة الله .

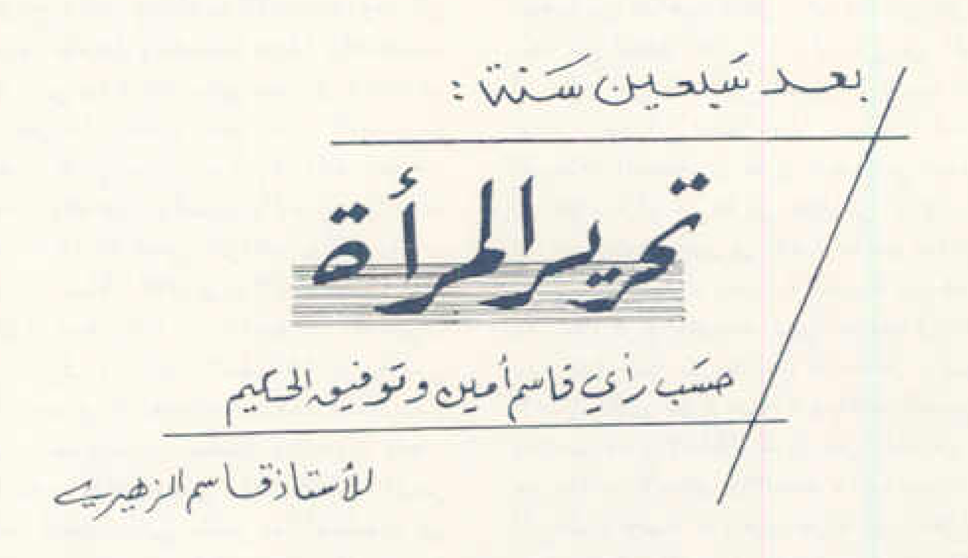
وجدير بالذكر ان الثقافة المغربية قد استوعبت جميع الوان النشاط العقلي والفني ، التي حفلت بها الثقافة العربية . من حديث وفقـــه وفلسفـــة وادب

وعلوم ولغة وتاريخ ونحو ومذاهب كلاميـــة وما الى ذلك . استوعبتها جميعا وهضمتها جيدا واضافـت اليها اضافات لا بأس بها ، كما سايرتهـــا في مختلـف مراحل نموها وتطورها ، فكان المغرب ــ المغــرب الاقصى والاوسط والادنى ــ من مراكزها المتعـــددة ، فاذا ذكرت بغداد والقاهرة والشام والبصرة والكوفة وقرطبة وغرناطة ، ذكرت فاس ومراكش والقيروان . صحيح ان الوان النشاط الفكري والادبي كانت تأتي الينا متأخرة نظرا لبعد بلدنا ــ وخصوصا المغـرب الاقصى ــ عن الشرق ، مصدر الاشعـــاع الروحـــي والفكري ، الا ان جميع الاشعاعات الثقافية كانت تصل الينا ولو متأخرة فتصادف من يتقبلها ويتجاوب معها. وهذا امر له دلالته ومغزاه العميق ، ذلك اننا كنا نشعر بجميع الحاجيات العقلية التي يشعر بها المسلمون في كل مكان ، وكانت بيئتنا مستعدة لاستيعاب كل ما يرد علينا من الخارج من الوان المعرفة ، وما ان نعرفه حتى تصبح له اصول راسخة في حياتنا العقلية ، ونجعلـــه محورا للدرس والبحث ، حتى لكأنه من ابتكارنا وصنع ايدينا . وهكذا وجد عندنا الفقيه والمحدث والنحوي واللغوي والمتفلسف والمتكلم والصوفي والمشـــرع والكاتب والشاعر ، وجميع نماذج المثقـف العربـي المسلم وفي جميع فروع المعرفة المتاحة للثقافة العربية كلهم تجسيم لحاجات عقلية وروحية محلية ، وصدى للمزاج العقلي الذي ينتظم البيئة الثقافية كلها .

ولقد كنا الى التحصيل اقرب منا الى الابتكار ، هذه حقيقة يجب ان نعترف بها ، دون ان يقدح ذلك في مشاركتنا التي وضحنا جانبا منها . فثقافتنا يغلب فيها طابع الجمع والتصنيف على طابع الجدة والطرافة والابتكار . وهذا لا ينافي وجود بعض الافذاذ منـــا استطاعوا الخروج عن هذه القاعـــدة وان كانوا لـــم يحطموها ، ولعل اقبالنا الكبير على الحفظ والتصنيف والاحاطة ان يكون بديلا عن جنوحنـــا الى التجديـــد والابتكار . ولذلك كثر منا الحفـــاظ والمحصلـــون للثقافتين الشرقية والاندلسية ، ولكن ندر منا من ابتكر مذهبا من مذاهب الفكر ، او فنا من فنون الكتابة ، او نمطا من انماط الشعر . ولم يكن من المصادفة البحتة ان تكون جل الاجناس العلمية والادبية التي عرفتهـــا بلادنا ترجع الى اصول خارجيــــه . كما لم يكـــن من المصادفة البحتة ان تكون المدارس الفقهية او الادبية او الكلامية او غيرها من مدارس الرأي والفن التي كان لها انصار ومريدون في بلادنا اما شرقية واما اندلسية. وحتى اذا وجدت مدرسة مغربية من هذا القبيل فهي ولا شك فرع لمدرسة كبيرة عرفت في بلد ما ، والفرع مهما بدا عليه من علامات التجديد ، فهو يعـــود الى الاصل الذي تفرع منه ، وملكات الجمع والتحصيـــل والتصنيف والاحاطة قد لا تقل شأنا من بعض الوجوه عن ملكات الابتكار والانشاء والتجديد ، الاولى تصون التراث وتحميه ، وتقيم حوله من القلاع والحصون ما يقيه عاديات الزمن ، حتى تسلمه الى الاجيال المقبلـة سليما مكتملا صحيح الكيان ، والثانية تمده بدمـــاء جديدة وتنعشه وتهبه كثيرا من امكانيات التطور والنمو.

وما كتبته عن امكانيات الثقافة المغربية بمعناها الضيق انا متحفظ فيه غاية التحفظ ، ولست أصدر احكاما نهائية ، ذلك ان التراث الثقافي المغربي لـــم ينشر منه الا الشيء اليسير لحد الان ، وما نشر منه يعوزه التحقيق العلمي الدقيـــق ، ولـــم يحـــظ من الدارسين بالعناية اللازمة لاستنطاقـــه وامتصـــاص عصارته . ولست ادعي اني قد احطت بثقافتنا القديمة علما ، فقد قرأت منها القليل وغاب عن علمي الكثير ، اما لانه غير مطبوع ، واما لان مخطوطاته مما لم يتهيأ لي الاطلاع عليه ، الا ان ما قرأته يجعلني مطمئنا بعض الاطمئنان الى ما عن لي من رأي ، وان كان لا يكفـــي لاعطائي الاطمئنان الكافي الكامل ، ومن يدري ؟ فقـــد يتكشف تراثنا الثقافي عما يحملنا على تغيير آرائنـــا الحالية ، او تعديلها لتلائم ما اسفر عنه البحـــث عن آثار حياتنا العقلية القديمة .

فاس : عبد العلي الوزاني



من ابرز مظاهر التقدم فى البلاد العربية خلال العقود الاخيرة تطور المراة وانعتاقها . لقد رد الى المراة الشرقية اعتبارها واخذت كغيرها من نساء العالم المتمدن بأسباب التقدم ، فتغيرت تبعا لتطورها معالم المجتمع الشرقي . وما يزال هذا المجتمع فى تحول مطرد الى ان يبلغ مداه وتتضاءل الفجوة التى تباعد بينه وبين المجتمعات العصرية . واذا كانت بعض العراقيل ما تزال تحول هنا وهناك دون انطلاق المراة الشرقية ، فان موجة التحرير ءاخذة فى الاكتساح وسيشهد الجيل الطالع مساواتها مع الرجل فى جل الميادين .

لقد دوى صوت قاسم امين بالنداء لتحرير المراة منذ سبعين سنة ، فلقي عنتا كبيرا واهتز الشرق بالنكير ، وتزعم المعارضة اصحاب العقول المتحجرة ومن لف لفهم من المحافظين على العادات والتقاليد البالية ، وشحذوا اسلحتهم نثرا وشعرا لمقارعته اثارة لمشاعر العامة والهابا لحفيظتهم ضد الدعوة الجديدة . لكن هذه الدعوة التي ضمنها كتابيه « تحرير المراة » و«المراة الجديدة» وجدت سبيلها الى العقول والضمائر ، وانتصرت فى النهاية بينما انطوت صفحة المعارضين وتبددت حملاتهم . وما كاد يطلع الجيل الجديد ـ جيل توفيق الحكيم ـ حتى كانت المراة الشرقية قد قطعت شوطا شاسعا فى طريق تحررها .

ان كتابة قاسم امين عن المراة تختلف عن كتابة توفيق الحكيم اختلاف العصرين اللذين عاشا فيهما. بينما كان الاول يدعو الى انتشال المراة الشرقية من الوهدة التى كانت تتردى فيها ، اذ استخلص الثاني نتائج التقدم الذى حققته فى مدة جيل. فعاب منها ما عاب واقر ما يلائم طبيعة الرقي ويواكب سنة التقدم . وبديهي ان يجرف تيار التقدم فيما يجرفه اوحالا تطفو فوق الاديم ، او كما عبر عن ذلك قاسم امين : « اول شيء تظهر فيه حرية النساء تكثر الشكوى منها ويظن الناس ان بلاء عظيما حل بهم ؛ لان المراة تكون فى دور التمرين على الحرية ، ثم مع مرور الايام تتعود المراة على استعمال حريتها وتشعر بواجباتها شيئا فشيئا وترتقي ملكاتها العقلية والادبية » .

ارسلها قاسم امين صيحة مجلجلة حارة لتحرير المراة فى مجتمع بلغ الدرك الاسفل من التاخر وعرقلت انطلاقته تقاليد عتيقة ، ولم يكن مهيئا لتقبل دعوة من دعوات الاصلاح ، خاصة اذا كانت تمس بمنافع وامتيازات المهيمنين عليه . ومن ثم تبدو شجاعة هذا المصلح الكبير الذى لم يتوان فى تبليغ رسالته بالرغم عن المثبطات والحملات التى تعرض لها . وقد ادرك ان علة العلل فى تاخر المجتمع الشرقي جهل المراة وحجبها عن النور فقال : « عاشت المراة فى انحطاط شديد ايا كان عنوانها فى العائلة ؛ زوجة او اما او بنتا ؛ ليس لها شان ولا اعتبار ولا راي ؛ خاضعة للرجل لانه رجل ولانها امراة. فني شخصها فى شخص الرجل ، ولم يبق لها من الكون ما يسعها الا ما استتر من زوايا المنزل ، واختصت بالجهل والتحجب باستار الظلمات ،

واستعملها الرجل متاعا للذة ، يلهو بها متى اراد ، ويقذف بها في الطرق متى شاء ، له الحرية ولها الرق ، له العلم ولها الجهل ، له العقل ولها البله ، له الضياء والفضاء ولها الظلمة والسجن ، له الامر والنهي ولها الطاعة والصبر ، له كل شيء في الوجود وهي بعض ذلك الكل الذى استولى عليه .. من احتقار المراة ان يحال بينها وبين الحياة العامة والعمل في أي شيء يتعلق بها ، فليس لها راي في الاعمال ولا فكر في المشارب ولا ذوق في الفنون ولا قدم في المنافع العامة » .

وسواء في الرد على كتاب الدوق داركور « مصر والمصريون » او في « تحرير المراة » و « المراة الجديدة » ، فان قاسم امين دعا لتحرير المراة وساق ادلة عقلية وشرعية لدمغ المعارضين ودحض تعلاتهم . وكان يرى « ان تربية العقل والاخلاق تصون المراة ولا يصونها الجهل . بل هي الوسيلة العظمى لان يكون في الامة نساء يعرفن قيمة الشرف وطرق المحافظة عليه . وارى ان من يعتمد على جهل امراته مثله كمثل اعمى يقود اعمى مصيرهما ان يترديا في اول حفرة تصادفهما في الطريق » . لقد ادرك قاسم امين ان المراة هي حجر الزاوية في تربية الاجيال ، وان اي اصلاح يجب ان يبتديء من الاساس « فما من اصلاح اجدى على الامة عمل امراة تهدى اليها رجلا يفيد نفسه واهله وامته » .

ومع ان قاسم امين لم يكن في دعوته يومن بالطفرة ، الا انه كان يعتبر الحجاب عائقا في طريق تقدم المراة وارتقائها اذ انه « يحجبها عن العالم فلا ترى الا سقائف الاحداث في بيتها ويقتل الرغبة في التفكير وفي الحركة نفسها .. وبديهي ان المراة التى تحافظ على شرفها وهي مطلقة غير محجوبة لها من الفضل اضعاف ما لزميلتها لان عفتها اختيارية ، اما تلك فعفتها قهرية . ولا ندري كيف نفتخر بعفة نسائنا ونحن نعتقد انهن مصونات بقوة الحراس وارتفاع الجدران . ايقبل من سجين دعواه انه رجل طاهر لانه لم يرتكب جريمة وهو في السجن ؟ »

اثر الضجة التى احدثها كتاب «تحرير المراة» والسهام التى وجهت لصاحبه من كل انحاء الشرق – باستثناء بعض كبار المؤيدين امثال سعد زغلول وحافظ ابراهيم وجميل صدقي الزهاوي – رد قاسم امين في « المراة الجديدة » على الخصوم قائلا : « لا نكتب طمعا في ان ننال تصفيق الجهال وعامة الناس .. وانما نكتب لاهل العلم وعلى الخصوص للناشئة الحديثة التي هي مستودع امانينا في المستقبل ، فهي التى بما اكتسبته من التربية العلمية الصحيحة يمكنها ان تحل مسالة المراة المكان الذى تحله من العناية والبحث » . ولم تثنه حملات المهجمين ، بل ضاعفت من ايمانه برسالته ودفعته خطوة اخرى في الدعوة لها ، وخاصة في ما يتصل بنبذ الحجاب . وكان له سند وتاييد من نداء الشاعر الكبير جميل صدقي الزهاوي للمراة :

اسفري ما الحجاب يا ابنة فهر
هو داء في الاجتماع وخيم

اسفور السفور فالهلك للشعـ
ـب اخيرا بدونه محتوم

لا يقي عفة الفتاة حجاب
بل يقيها تثقيفها والعلوم

وقد صدق حدس قاسم امين فقد تولى الجيل الذي يلي جيله حمل الدعوة التي اضطلع بها وحيدا في مجتمع مثقل بعوامل الانحطاط والتقهقر والمثبطات ، وكان لصرخاته صداها بما حققته المراة الشرقية بعد ذلك من تقدم فكري وحرية اجتماعية . وتجلى ذلك في الادب النسائي الذى خلفته كل من باحثة البادية ومي زيادة ، حيث صرفتا معظم نشاطهما لخدمة المراة وتطرقتا في انتاجهما لقضايا اجتماعية وانسانية عليا . ثم ظهر رعيل جديد من الاديبات الشرقية نذكر من بينهن نازك الملائكة وبنت الشاطيء وليلى بعلبكي ومنى جبور وكوليت سهيل على اختلاف مشاربهن . ففي الاغراض الفكرية التى عالجتها في القصة والرواية والمقال – شعرا ونثرا – يسمو الفكر والخيال احيانا الى حد الابداع والخلق، بينما ينحصر انتاج بعضهن في النقمة على المجتمع الذي يحد من حريتهن ، فيبرز تمردهن على التقاليد والعادات البالية على لسان بطلة قصة « ايام معه » مثلا .

— • —

ويأتي الكاتب الكبير توفيق الحكيم بعد انصرام جيل كامل على دعوة قاسم امين فيخص المراة الشرقية بجزء غير يسير من انتاجه الادبي . يلاحظ المسيرة التى قطعتها في طريق الانعتاق ويفكر طويلا في الانقلاب الذى طرا على حياتها ملقيا اضواء كاشفة على شخصيتها الجديدة في كثير من رواياته

وقصصه . ولا نخال كاتبا اولى المراة الشرقيـة فى خاضرها من التفكير ما اولاه اياها توفيق الحكيم . وقد يطول تحليل ما افرده لها من صفحات فى منتهى الدقة والعمق . تارة يطريها وطورا يذمها .. احيانا ينزلهـا منزلـة الملائكـة واخـرى يحطهـا الى درك الشياطين . ولطالما عيب عليه هذا التناقض ، بـل كثيرا ما رمته بعض المتعلمات بالعداوة للمراة . ولكنه رد على هذا الاتهام بان « المراة هي من غير شك الزهرة المشرقة فى بستان وجودنا الادمي ، زهـرة لهـا نضارتها ، لكن لها ايضا اشواكها » واشواكها الحقيقية تكمن فى جمالها وفتنتها . بهذا السلاح تسطو على الرجل وتخضعه لارادتها . فتوفيـق الحكيـم فى الحقيقة انما يعادي جانب التسلط والاستيلاء فـى المراة الحسناء . نراه يقول : « افـرق بين المـراة كشيء يوحي بالجمال وبين المراة كمخلوق يريـد ان يستاثر بكل شيء فى حياتنا ! .. ان عداوتي لهـذا المخلوق لن تنقطع ما دمت اخشى منه .. ان عداوتي ليست الا دفاعا عن نفسـي .. علـى ان الانصـاف يقتضيني ان اقول : ان المراة اذ تحـطم من جانب فهي تبني من جـانب ءاخر .. لم نـر فى التاريـخ حضارة قامت بدونها ولا انحطت بدونها » . وشبيه بهذا قول المثل العامي: «الخير امراة والشر امراة».

قصـة «الرباط المقدس» لتوفيق الحكيم صورة تعكس صنفا من اصناف المراة الشرقية التى اخذت بمظاهر التطور واندفعت تقلد المراة الغربيـة التى تحررت قبلها فجعلت منها مثلها الاعلى . انها تصور الاحاسيس والافكار التى تعتمـل فى صـدور بعـض المتعلمات والصراع القائم بين حرية مطلقة يتطلعـن اليها واوضـاع اجتماعية ما تزال مستحكمة فى البيئة التى يعشن فيها . وترسم لوحة للمرحلة التى بلغتها المراة الشرقية فى طريق تطورها . انها مرحلة واقعة بين ماض سحيق من التدهـور والعـادات الباليـة ومستقبل يرجى ان تحقق فيه الاتزان المطلوب .

لقد وجدها توفيق الحكيم مناسبة لتوضيـح رايه فى المراة واصدار احكامه فى سلوكهـا . بيـن ءاراءه على لسـان راهب « راهب الفكر » فى قصـة «الرباط المقـدس» وفى الفصـول التى خصصهـا للمراة فى كتابه «تحت شمس الفكر» . ومن الاصناف التى استعرضها يتجلى ما بلغته المـراة المتعلمـة فى الشرق من تطور يشبـه الى حـد بعيـد ما رسمـه « موليـيـر » فى روايتيـه : « النسـاء العالمـات » و « المتحذلقات المضحكات » .

هناك المراة « التى تخرجـت بنجـاح من دور السينما والملاهي وحذقت تقليد ممثلات هوليود .. وظيفتها فى الصباح الطواف بحوانيت الزينة والثياب والذهاب الى الخياطات ، وفى الظهر استقبال زوجها بالطلبات ، وفى العصر التعلق برقبته ليخرج بها الى النزهة او يدعها تذهب الى « زوزو » و « شوشو » و « موشو » للعب البريدج » .. والنوع الثاني من المراة نوع تخرج بنجـاح من المـدارس والجامعـات فحـذق تقليـد الرجـل فى جهـله بشؤون البيت ومعرفته بآراء افلاطون .. نساء يعرفن افلاطون ولا يعرفن كيف تقلى بيضة . فاذا مرض الطباخ او خرج تغذى الزوج المحترم بزبدة افكـار افلاطـون ! » .. والنوع الثالث هو « خريجات المدارس الاجنبية ممن تعلمن قشور اللغة الفرنسية او الانجليزية ومبادىء البيانو ، فانهن عرائس جوفاء لا ينطقـن الا « بمون شير » و « ماشيري » .

لقد انحى توفيق الحكيم باللائمة على هذه الانواع من النسـاء وخاصة منهن « الفتـاة الطائشـة التى لا تعرف الا الخياطة والسينمـا والسبـاق والتنيـس والسيارة والحلاق والتواليت !.. تلك الفتاة الجاهلة ذات التعليم الزائف لا يعدو حديثها بضـع عبـارات فرنسية تلوكها فى سماجة ! .. تلك الفتاة المسكينة المغرورة التى تحسب انها متمدنة لانها عرفت كيف تضع بين اناملها اصبع الاحمر .. تلك الفتاة التـى تعرف ان لها فما يجب ان يملأ ، ولا تعرف ان لهـا راسا يجب ان يملأ كذلك ، اذا ارادت ان تجعل من نفسها شخصا جديرا بالاحترام »

بالاضافة الى هذه الانواع نجد المستهترات من النساء اللاتي لا يعرفن من الحياة الا ملذاتها فيتهالكن على اقتناصها حاسبـات ان عنوان التقدم هو الجري وراء الشهوات المادية والاخذ باكبر قسـط منهـا . وقد سوى توفيق الحكيم صورة كاملة لهذا النوع من النساء فى بطلة «الرباط المقدس » فخصها بصفحات رائعة . الحب الزوجي فى نظر هذه المراة « لا يعدل عندها اللحظات الطائرة العابرة لذلك الحب البراق الفوار !.. لا يؤثر فيها كثيرا ذلك الحب القيم النفيس الباقي لانها جبلت على الشغف بكل ما يبرق عينيها ، ويخطف بصرها ومهجتها ويطير لبهـا !.. وانهـا لتدفع الذهب وترمي به فى سبيل اقتناء سـوار من الزجاج او حلية من الخزف بهرتهـا الوانهـا !.. » اذا تحدثت هذه المراة ذكرت « ان الدنيا كلها بافكارها وفضائلها ورذائلها وعقائدها ومثلها العليا ومطامعهـا

العظمى ، كل ذلك يذوب فى لحظة واحدة فى حرارة قبلة حقيقية » . وتوفيق الحكيم يشبه هذه المراة المستهترة اللعوب « بالزهرة ذات الرضاب المسموم والالوان الزاهية . انها الزهرة القانصة التى تتفتح بهاء لتطبق على فريستها فناء » .

واذ يعيب توفيق الحكيم سلوك هذه الاصناف من النساء اللائي لم يعرفن من المدنية والتحرر الا بريقهما وزيفهما ، يبين فى غير ما مكان من انتاجه المثالي الذى يستحبه فيقول : « اعتقد ان الزوجة الصالحة هي التى تستطيع مشاركة زوجها فى سيره الطويل الشاق فى طريق الحياة ، وان تعينه حقيقة اصدق المعاونة على احتمال متاعب السير وان تخفف عنه قسطا وافرا من اعباء الحياة اليومية » .

وما من شك ان هذا النوع هو الغالب فى المراة الشرقية ولو « انها مجهولة كالجندي المجهول . وهي مثله تمثل فئة تجاهد فى الظلام جهاد الابطال » .

— ◆ —

بعد هذه النظرة الوجيزة عن المراة الشرقية فى ادب قاسم امين وتوفيق الحكيم ؛ نختتم بالتفاتة قصيرة الى حالة المراة المغربية التي هي فى بدء طريق انعتاقها من التقاليد . ان الراجع الى انتاج هذين المفكرين لا يتمالك من ملاحظة الشبه بين قيام الدعوة الى تعليم المراة فى بلادنا منذ اثنتين وعشرين سنة وبين التطور الذى حققته فى هذه الحقبة . لقد تقدمت المراة فى اقل من جيل اضعاف ما تقدمت جداتها فى عدة قرون . وها هو ذا عدد الفتيات اللائي يختلفن الى المدارس والمعاهد والكليات يزيد عن ربع عدد الفتيان ، ويضربن بمناكبهن فى ميادين الوظيف والاعمال . يجري بمراى ومسمع منا تحول اجتماعي هائل لا يستطيع احد التكهن بمداه البعيد ، لكن عائدته محمودة مهما كانت الغيوم التى تكتنفه والانتقادات الموجهة له . فلا ينبغي ان تحجب بعض الاشجار المعوجة كثافة الغاب وجماله ، وليس فى المستطاع وقف التيار . بل كل ما فى الامكان تنظيمه « بتحصين المراة عن طريق التربية السليمة » كما قال قاسم امين .

نواكشوط : قاسم الزهيري





لا مبرر، بتاتا للمزاعم المتاصلة لدى اولئك الذين يعتبرون الشعوب التي تعيش فى المدن شعوبا « متحضرة » ويستثنون، من مفهوم حضارة الشعوب التي لم تترك اثرا فى المدن . من يستطيع ان ينفي ان التربة والمناخ هما اللذان يميزان الجماعات البشرية من حيث اختلاف طرق المعيشة والسكنى ؟

أن التربة والمناخ هما العاملان الاساسيان اللذان يجعلان من بعض الشعوب بدوا، ومن بعضها الاخر حضرا، لانهما اصل لظاهرة النزوح او الاستقرار، يحددان نوع التغذية ونوع العمل، ويوجهان الخدمات والدخل والانتاج (1) . فالناس لا يهاجرون دوما الى المدن استجابة لجاذبية « حضارة المدن »، بل غالبا ما يكونون مجبرين على هجرة البوادي وهوائها الطلق وخضرتها، مضحين بعيشة الهدوء فى سبيل البحث عن ترف غالبا ما يفقدهم مروءتهم ويزج بهم فى حياة معقدة، واحيانا فى « مدن الصفيح » الشهيرة (2) . هكذا ينحشرون فى المصانع، بما فيها من رتابة، وآلية، واجهاد مرهق، وسأم .

تؤكد الابحاث، فى ميدان العلوم البشرية، ان المعيشة فى المدن تنطوي على مشاكل سيكولوجية ــ فيزيولوجية جد حرجة، حتى اصبحت المدن مرتعا خصبا للامراض النفسانية وتوابعها : تحديد النسل، وانتشار الطلاق، والامراض الزهرية، وكثرة الانتحار، وادمان المسكرات، وتواتر الحوادث، والامراض العقلية، والتوتر العصبي، والغصة، والقلق، والشعور بالفراغ . . .

* * *

تختلف الهندسة المعمارية باختلاف طبيعة التربة، لا بطبيعة العرق . فاذا كان فن البناء نشا عن حاجة ملحة لصيانة بقاء الانسان من عوارض الطبيعة، فان لاختراع الخيمة وصنعها من الاهمية، فى تاريخ التقدم للهندسة المعمارية . فالبدوي الذي يبقى فى ترحال دائم، طلبا للماء وللمراعي، يستفيد من الخيمة القابلة للنقل اكثر من المسكن الثابت القار (3) . ينطبق ذلك تماما على مفهوم الثقافة فى معناها المادي الاصلي، اذ انها : « نمو (أو نتيجة لتنمية) بعض قوى النفس والجسد بفعل الممارسة الملائمة » .

(قاموس Lalande, ص 199) .

فمهما توفرت اسباب الرخاء فى المنزل، ومهما بلغت هندسته المعمارية من كمال، فالبيت ليس، قبل

---

1) انظر ابن خلدون، المقدمة، ، القسم الاول.

2) مدن القصدير « Les bidonvilles » كما فى افريقيا وامريكا الجنوبية وآسيا .

3) هذا ما يعبر عنه الشاعر السعودي، فؤاد الخطيب :

بيت من الشعر فى البيداء نسكنه ... باق على الدهر لم يعبث به القدم
تموء من حوله الاجيال صاغرة ... وتنسف المدن، والاسواق تنهدم

(عن **ديوان الخطيب**، القاهرة، دار المعارف).

كل شيء ، الا وسيلة لارضاء الحاجة الماسة الى الملجا ، وايواء الاسرة . ومن ثم ، لا بد للفن ان يخضع لتلك الحاجة المزدوجة في مظهريها الفيزيولوجي والعاطفي .

اجل ، انها حتمية جغرافية ، ولكنها حتمية تفسح مجالا للجهد البشري الذي يرمي باستمرار الى التعادل والتعديل والتكيف ، فهي تتيح المجال للتفاعلات ، بحيث تسير ردود ـ الفعل جنبا الى جنب مع الطاقة الخلاقة عليها توجد نوعا من التكافؤ بين الحاجات الحياتية من جهة ، والامكانيات الجغرافية من جهة اخرى .

ولا عجب في ذلك ، لان الانواع الحيوانية ، بما فيها الانسان ، مضطرة ، منذ آلاف السنين ، الى احد امرين لا ثالث لهما : التزوح او الفناء . لقد تطرق ابو عثمان عمرو الجاحظ (المتوفى عام 255 هـ 869 م) الى النظر في التغيرات الملحوظة التي تعتري حياة الطير من جراء اثر عامل التزوح . كما وضع نظريات للتطور عن طريق التكيف ، واخرى لسلوك السيكولوجي لدى الحيوان . وفي القرن العاشر ، قام مفكر مسلم آخر هو ابو علي احمد مسكويه (المتوفى 421 هـ 1030 م) بوضع نظرية عامة لتطور انواع النبات والحيوان ، في « **كتاب الفوز** » ، فاستخلص ان عامل التزوح من اهم مظاهر نشاط تطور تلك الانواع .

* * *

ذهب عدد كبير من العلماء بعد ما انكبوا على التعمق في هذه القضايا ، الى ان افريقيا هي مهد البشرية الاول . لقد اضطر الانسان الى مغادرة القارة الافريقية ، ارض اجداده ، لانه لا يقدر على تحمل الامطار والرطوبة الا الى حد ما : فهو لا يستطيع ان يتطور وان يحافظ على بقائه في الصحاري او حقول الجليد والصقيع . لذا فالانسان مضطر الى الهجرة ، كلما طغت عليه هذه العوامل الاخيرة (4) . وقد اثبت العلم ان الانسان يتحمل القر الشديد اكثر مما يتحمل الحر الشديد ، وان المعدل المثالي للوظائف الفزيولوجية لنوعنا يتراوح بين 5 درجات و 16 درجة . فتغيرات المقاييس تدفع بالانسان الى الهجرة ، خصوصا اذا اعوزته وسائل مقاومة قسوة العوامل الطبيعية .

* * *

رب سائل يلاحظ : كيف يمكن ، والحالة هي هذه، تعليل الفروق الصارخة التي تميز الشعوب وتفرقهم الى اجناس متباينة ؟

ان الجواب الاول ، على هذا السؤال ، هو ان الفروق المذكورة ليست نوعية ، فقد راى (لوسيان ليفي بريل) ، في أواخر حياته ، وجوب العدول عن التمييز بين العقلية « المنطقية » الخاصة بالمجتمعات المتحضرة ، والعقلية « المتخلفة عن المنطق » الخاصة بالمجتمعات البدائية (5) . وان عدول (ليفي بريل) عن هذا التمييز ، بعد ان كان اول من دعا اليه ، لدليل على ما لهذا العالم من وجاهة موضوعية واستقامة جديرة بالاعجاب . ولعل السبب الذي حمله اولا على ابراز التهادين الذهنيتين ، دون سابق برهان ، يعود الى المقارنة التماثلية التي يريد الاوروبي ان يجدها ، حتما بين مختلف الميادين ، مهما تباينت . ولكن ، بعد اكثر من ربع قرن من البحث ، وجد (ليفي بريل) المتسع الكافي من الوقت لامعان النظر في الواقع ، الامر الذي قاده الى تأويل مختلف الوثائق المتوفرة لديه ، تأويلا افضل . ومما جاء في معرض كلامه منتقدا ما سماه فيما قبل بـ « العقلية البدائية المتخلفة » قوله : « لقد وقعت في كثير من المبالغات ، منذ خمس وعشرين سنة . وقد ادت النتائج الاخيرة التي وصلت اليها ، في هذا الصدد ، الى تطور نهائي ، اذ انها حملتني الى العدول عن نظرية تقوم على اسس خاطئة » . (6)

ثم تلا (ليفي بريل) باحث كبير في علم الاجناس البشرية ، فاكد ان العبارتين « عقلية بدائية » و « عقلية معاصرة » تنطويان على مغالطة لانهما لا تشيران الى اي مفهوم حقيقي في عالم الواقع . (7) ومن جهة اخرى ، لاحظ مفكر اسود ، وهو السيد (بكا اكوانيا بونا مبيلا)في دراسة عميقة صدرت في مجلة (المتحف الحي) : ان تكريم الاجداد ، عند الافارقة مثلا ، لا يتضمن ما يناقض المنطق ، بل « هو عمل ينم عن

---

4) انظر : Chasseloup-Lembart, **Art rupestre au Hogar.** Paris, Plon, 1938 et Cheik Anta Diop, **Nation nègre et culture.** Paris, Présence Africaine, 1954

5) يرجع تاريخ صدور كتابه الاول الى سنة 1910 ، بينما صدرت مذكراته التي تحمل عنوان **Carnets Posthumes** سنة 1938 ، اي بعد وفاته .

6) عن مذكراته : (باريز ، المطابع الجامعية الفرنسية ، سنة 1949) ص 60 .

7) M. Leenhardt, **Do Kamo** (Gallimard, Paris), 1947, p. 242

ايمان ، وعن شعور بوجود صلة جوهرية كيانية بين الاجيال . وكذلك القول فى العري ، فلا يمكن اعتباره دليلا على التوحش ، انه يعني نقيض الكذب ورغبة الانسان فى ان يظهر وفقا لما صنعته الطبيعة (بلا زيف) وعلاوة على ذلك ، بقي لي ان اسأل : كيف يمكن ان يعتبر ارتداء الثياب دليلا عن التقدم ، اذا كان صنع الملابس يقتضي الاستغلال والقتل ، والكذب » ؟ (8).

* * *

بالاضافة الى هذا وذاك ، يكفي ان نلقي نظرة على ما حولنا لندرك ان فى كل بلد مواطنين متفاوتين فى مستوى التطور ، وان لكل مجتمع « بدائييه » . ذلك ان جميع الافراد ، فى مجتمع ما ، ليسوا على اتصال بمجموع الانمطة الخاصة بالبيئة التي يحيون فيها ، اذ لا يعرفون سوى بعض المظاهر من تلك الانظمة ، بل منهم من يجهلها ، بمجموعها ، جهلا تاما .

فلنقارن ، مثلا ، بين سكان حي (ارميتاج) بالدار البيضاء ومواطنيهم القابعين فى « مدن الصفيح» (القصدير) ، او بين رواد مكتبة القديسة (جونفييف) بباريس وجيرانهم مدمني المسكرات فى ساحة (كونتريسكارب) ، او بين الرعاع فى حي (سوهو) والطبقة الاستقراطية بلندن ... ان المستوى الثقافي والعقلي يتغير بتغير الاوضاع المادية والظروف التاريخية التي تسم حياة كل شخص ، لا بتغير العرق ولو البشرة ، او بالجنسية . فالروح واحد ، والنوع واحد ، وان اختلفت الجنسيات ، فليس هناك عقلية بدائية محض ، بل **جميع العقليات بدائية تتفاوت مستويات بدائيتها بقدر ما تتفاوت اوضاعها الخاصة والعامة** . فشمول البدائية فى العقل البشري هو الذي يظهر وحدته فى الزمان والمكان (وحدة من حيث التكوين ، والوظيفة ، والتطور النوعي) وانما تصدر الاختلافات ، بين الذهنيات ، عن طرق استعمال العقل . فالقضية قضية « منهج » ، اى تعلم وتمرين ، لا فرق بين الاجهزة الفزيولوجية ، باستثناء الحالات المرضية، وهي حالات شذوذ . ان الاختلافات ، اذن لا تكمن فى التركيب النوعي للعقل لانه تركيب واحد منذ النشأة الاولى وفى مختلف مراحل تطور النوع البشري، ولكنها اختلافات تنتج دائما عن تأثيرات خارجية ، فهي التي توجه الذهنية وتدفع بها الى الجمود او التفتح . « ان العقل قد يتجه اتجاهات متنوعة ، تحت تأثير الثقافة البدائية او المعاصرة ، غير انه يبقى هو هو ، دائما ، مهما تنوعت تلك الاتجاهات » . (9)

* * *

ما قدمناه عن الافراد ينطبق ايضا على الشعوب: طبيعة التربة وكمية المواد الاولية المتوفرة لدى كل شعب هي التي تقرر طبيعة عمله وانواعه . وكذلك المناخ يؤثر على خصب التربة وانتاجها ، وبالتالي فالتقدم المادي والتطور الصناعي يتعلقان ، اساسا ، بالوضع الجغرافي ، اى انهما ناجمان عن الصدفة اكثر منهما عن العرق البشري او الجنس . اليس لجنسنا البشري اصل واحد ؟ يجيب القرآن بأن الله :

« خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ...» (99 : 6) .

اننا جميعا متحدرون من (اب) واحد ، هو آدم. فالله لم يخلق « البشرية » ، وانما خلق اناسا من كائن واحد : « هو الذي خلقكم من طين » . (6 : 2) (10) .

ان اكتشاف مناجم هامة من المعادن والنفط ، فى الولايات المتحدة ، هو العامل الاول الذي جعلها تتقدم بهذا الشكل العظيم على البلدان الاخرى ، فالعقلية الامريكية لا تمتاز بشيء خاص اصيل عن عقلية سائر الشعوب .

طبعا ، ان النفط عامل جوهري ، ولكنه غير قادر على صنع العجائب ، فهو لوحده لا يخلق التقدم ، ولا يساهم فى ايجاده الا اذا توفرت مجموعة من الشروط الضرورية . فمثلا ، اكتشاف مناجم ضخمة من النفط، بالمملكة العربية السعودية ، لم يساهم الا قليلا فى تطوير البلاد . ذلك ان منافع النفط تجد ما يقاومها : الصحاري القاحلة ، وقلة الماء ، والمناخ الذي لا يلائم العمل ، الخ ... (دون ان ننسى العامل الاكبر . كون استغلال النفط ، فى العالم الثالث ، خاضعا لنظام

8 . باريز ، العدد 8 ، سنة 1956 ، ص 249 .
9) (ليفي بريل) ، المصدر السابق ، ص 37 .
10) انظر كذلك : 7 : 18 و 39 : 8 .

امتيازات الشركات الاجنبية ، وعلى راسها « ارامكو » وشركاؤها) .

* * *

يمكننا ان نستنتج ان انخفاض مستوى المعيشة وتخلف الانتاج ، في مختلف بلدان العالم ، بالنسبة لامريكا الشمالية ، يرجعان الى وجود آفة او عاهة خاصة بتلك البلدان ، المتخلفة ، بل فحسب الى كونها اقل خصائص من الولايات المتحدة الامريكية من حيث خصب التربة وما تحتها من الدفائن . فكلما كانت البلاد فقيرة ماديا ، افتقر الشعب الى الغذاء الملائم ، ومن ثمة فان امكانياته على العمل ، وقدرته على تكوين المثقفين والخبراء الفنيين ، تبقى محدودة فلا حاجة بالمرء الى ذكاء خارق ليدرك ان الكائنات البشرية ، ايا كانت بلادها ، اذا توفرت الظروف الملائمة للعمل اليدوي والعقلي ، امكنها ان تتكافأ مع الاوروبيين والامريكيين في درجة النجاح ، او نسبته المئوية . ولا يمكن ، بوجه من الوجوه ، حصر اسباب التقدم في لون البشرة او في بطاقات الجنسية . ويتضح من ذلك كله ان المسالة تعود ، في النهاية ، الى شروط مجتمعية ودولية وانسانية . فعندما يوفر الوسط لكل فرد الامكانيات الضرورية ، المادية المعنوية ، ليكتمل نموه وتتفتح شخصيته (او على الاقل : ان لا تختنق امكانياته للتفتح والنمو) ، يحصل انقلاب جذري .

* * *

نستطيع ، اذن ان نؤكد بان جميع الناس متساوون ، من الناحية البيولوجية : تركيبهم واحد ، واصلهم واحد ، وحاجاتهم واحدة . انهم لا يختلفون الا في الثانويات . فالنوابغ والعباقرة هم ايضا اناس كسائر الناس . يصرح عالم من اعظم علماء البيولوجيا في عصرنا : « ان اوضح النتائج التي وصلت اليها في تاملاتي هي ان قدرة الاكتشاف والاختراع ليست سوى عامل عرضي وميزة مجازفة ليست اكثر ولا اقل من سواها جدارة بالاعجاب والتقدير .. (11) »

فمن التعسف ، اذن ان يوضع كمبدا حتمي وبكيفية اعتباطية ، ان الشعوب التي تختلف عن « البيض » متوحشة ، ويعتبر اصحاب البشرة البيضاء متمدنين بالطبع .

لقد كثر الذين يقابلون « المتحضر » او هو من يميل الى العيش في المجتمع ، بـ « المتوحش » اي من يهرب من المجتمع ويؤثر الغابة على المدينة . ولكن اذا نظرنا الى الواقع من الناحية الخلقية والعقلانية ، لزمنا ان نسال :

من ذا الذي يحيا حياة انسانية سالمة هادئة ؟ اهو الافريقي الاسود الذي يعيش سعيدا في الغاب ، دونما سام بعيدا عن « المشاكل » ، ام الجندي الابيض الذي لم يكن يخرج من ساحات اتوغى باوروبا حتى بدا يخوض معارك طاحنة اخرى على خط العرض 38 بكوريا او بالهند الصينية ؟

ايعد « متوحشين » الهنود الحمر الذين ارغموا بالقوة على البقاء في مناطق خاصة ، ومنعوا من العدول عن تقاليدهم البدائية ، ارضاء للسياح « المتمدنين » واجابة لفضول علماء الاجناس البشرية ؟

هل يعتبر « متوحشين » الزنوج ، بورتوريكو ، وسكان افريقيا الشمالية « الاهليون » لانهم يتنقلون على ظهر البغال والحمير ، ولم يخترعوا طائرات هؤلاء « المتوحشون » جميعا مفتقرون الى التغذية في ارض تتدفق فيها الخيرات ! لقد خضعوا الى اقسى انواع الاستعمار ، تحت شعار « التمدين » و « التقدم » و « التثقيف » فقبعوا داخل وضع بروليتاري متخلف في حضارة القرن العشرين » !

نعم ! ان كل هذه الضحايا « متوحشة » ، غير انها ليست اكثر وحشية من جلاديها .

نعم ! الكل متوحش ، المستغل والمستغل .

* * *

ما هي ، اذن « الحضارة » المعاصرة ؟

انها النفط !

انها قنابل (النابالم) !

انها مآت الملايين من الجائعين ، الحفاة ، العراة في العالم !

انها الجهاز الجهنمي الذي يعوق اكثر من للثي الانسانية عن وسائل الحياة الضرورية ، وعن وسائل التفاهم والتعبير للخروج من عالم الخوف والامية والامراض الزهرية . ثلثا الانسانية وزيادة محاصرون

(11 Charles Nicole, **Biologie de l'invention**, Paris, Alcan, 1932, p. 15

في عالم التخلف ، وقد اغلقت ابواب التطور والتانس امامهم : انهم يعيشون وقد افقدوا الحياة الحق ! . .

* * *

اغلبية هؤلاء الجياع ، الاميين ، المطرودين من الحضارة المعاصرة ، ينحدرون من (حضارات) عريقة في القدم . وما اجدرنا بالتامل في ما كتبه (س. ف. فولني) في مؤلفه ، **رحلة الى سوريا ومصر** ، وهو كتاب لم يفقد شيئا من قيمته ، على الرغم من قدمه . تساءل (فولني) ، ولنا ان نتساءل معه :

« اليس من دواعي الحسرة ان نرى اليوم شعوب افريقيا في حالة يرثى لها ؟ فالاقباط ، مثلا ، نشاوا عن امتزاج النبوغ المصري العميق بالذكاء الاغريقي الثاقب . اليس من العجب ان هذا الجنس البشري الاسود الذي أصبح اليوم عبدا لنا وموضوعا لاحتقارنا ، هو ذاته الشعب الذي اقتبسنا منه فنوننا وعلومنا ، بل حتى قدرتنا على النطق ؟ اليس من المؤسف جدا ان نتصور ، اخيرا ، ان الشعوب التي تدعي أنها تفوق سواها محبة للحرية والانسانية والدفاع عنهما هي التي اصبحت تعطي الضمانات لافظع انواع الوحشية وجعلت من مشاكل البحث ان نتساءل هل للسود عقل من نوع عقل البيض ! » (12).

الجزائر . محمد عزيز الحبابي

(12 C. F. Volney, **Œuvres complètes**, p. 132, Paris, Firmin Didot Frères, 1837



إنتاجنا الأدبي

بين الأمس واليوم

للأستاذ عبد اللطيف خالص

مما لا اشكال فيه ان كل انتاج ادبي خرج الى الوجود وصار بين ايدي القراء او طرق مسامع المستمعين من احدى الاذاعات او غيرها من وسائل الالتقاط والاستماع ، الا وهو معرض للاحكام الموافقة او المخالفة التي قد يصدرها ، في حقه ، هؤلاء القراء او هؤلاء المستمعون . فاذا كان من حق صاحب الانتاج ان يحافظ عليه ويمتنع من عرضه على الناس خوفا على انتاجه من ان يتعرض الى النقد والتأويل والتعليق والشرح فان هذا الحق يسقط بمجرد ما يصبح هذا الانتاج متناولا بين الناس ، مشاعا بين القراء ، مذاعا على المستمعين تردده السنتهم وتهفو له اسماعهم .

ولعل من حق كل قارىء كذلك ان يعلن رأيه بصراحة في كل انتاج تمكن من الاطلاع عليه ليبين للناس الجوانب الممتعة من هذا الانتاج حتى اقبلوا على قراءته ومواضع النقص والضعف ليكونوا على بينة منها .

واذا كان الامر هكذا بالنسبة لكل انتاج فردي فكيف لا يكون الشأن كذلك بالنسبة لمجموع انتاجنا الوطني في ميدان العلم والادب ؟ وان من حق هذا الانتاج علينا ان نعكف عليه بالدراسة والتقويم ونقارن بين حالته اليوم وبين ما كان عليه خصوصا في هذه العقود الاخيرة التي اخذ المغرب فيها بأسباب النهضة الحديثة وساير فيها الحركة الجديدة التي عرفتها الثقافة العالمية .

وما انتاجنا الادبي الوطني الا خلاصة مجهودات فردية يبذلها بعض المثقفين الواعين الذين ابوا الا ان يشركوا بقية المواطنين في اعمالهم الادبية ويطلعوهم على ما تفتقت عنه قرائحهم من آراء مصيبة وافكار محترمة ونظريات خاصة حول بعض القضايا الوطنية والانسانية التي لم يرد هؤلاء المثقفون ، مهما كان مقامهم في ميدان الكتابة والتحرير والانشاء ان يبخلوا بها على جمهور المواطنين مظهرين بذلك استعدادهم للمشاركة في بعث وعي سياسي واجتماعي وثقافي في بلادنا وللمساهمة بنصيبهم المتواضع في رفع مستواها المادي والمعنوي .

واذا كان انتاجنا الادبي في عهد الحماية ، يتسم بنوع من الجدية والرصانة لا يخلو منهما انتاجنا في عهد الاستقلال ، فانما مرد ذلك الى الهدف الاسمى الذي كان يهدف اليه ادباء ذلك العهد والذي كان يتلخص في تقويض دعائم الاستعمار ، وتحرير البلاد ، واسترجاع سيادتها المغصوبة وكرامتها المسلوبة كما ان طابع هذه الجدية وهذه الرصانة يرجع الى التفرغ الكامل الذي كان يعرفه ادباء الجيل السابق نظرا لانغلاق ابواب الادارة في وجوههم وتوفرهم على الوقت الطويل لمراجعة ما ينتجون وعرضه على الاخوان والاصدقاء في حلقات وجماعات اخوية الشيء الذي يمكنهم من تصحيح مايكتبون واعادة النظر فيه ورجوع البصر كرتين فاكثر في الانتاج قبل ان يأخذ قالبه النهائي ويجد طريقه الى النشر ان وجد لذلك سبيلا .

ومع ذلك فقد كان هذا الانتاج لا يخلو من ضعف وضحل يتجليان في الشكل الذي كان عليه ،

فمن اصحاب هذا الانتاج من كان بعيدا عن اللغة العربية ولكن النعرة الوطنية والنخوة القومية والغيرة الدينية كانت تدفعه ليتعمد الكتابة بلغة القرءان رغم جهله بابسط قواعدها ، ومن هؤلاء من كان لا يدري طرق الكتابة الحديثة نظرا لتكوينه في المدارس العتيقة ولكنه ، تمشيا مع روح العصر ، كان يحاول ان يقلد الاسلوب العصري حتى يصبح من الكتاب المعاصرين او الشعراء المحدثين ، وان نظرة سريعة على المجلات القديمة وهي قليلة العدد والكتب التي كانت تصدر في ذلك العهد والتي ما زال البعض منها يصدر حتى في ايامنا الحالية تعطينا صورة صادقة على الصراع الذي واجهه بعض العلماء والشعراء والمؤرخين للتغلب على تكوينهم الاصلي والاخذ باسلوب العصر الذي لا يخلو من جاذبية كانوا هم من اول ضحاياها .

ويتجلى هذا الضعف وهذا الضحل كذلك في جوهر ما كان ينتجه ادباؤنا في عهد الحماية فرغم قلة وسائل النشر التي لم تكن تسعف جلهم لتقديم انتاجهم الى المطابع كما هو الشان، ورغم التفرغ الكامل الذي كان يعيش في ظلاله الوارفة رجال العلم والادب في العهد السابق ، ورغم الهدف الاعلى الذي كان يجلبهم فان بعض المقالات والابحاث كانت غامضة، بعيدة في موضوعها عن الصراع الذي كان يجري في البلاد كما ان بعض الانتاج الشعري كان لا يتجاوب، من قريب ، مع الاهداف الوطنية العليا التي كان يحاول ان يخدمها هؤلاء الادباء والشعراء .

وليس معنى هذا ان انتاجنا الادبي في عهد الحماية كان ضعيفا بصفة شاملة وان رجال العلم والادب لم يؤدوا الدور الذي كان يتعين عليهم ان يضطلعوا به في ذلك العهد. كلا .. فقد لعب غالبية الكتاب والشعراء دورهم في توعية الشعب ونفخ الشعور الوطني في نفوس المواطنين كما لعب الانتاج الادبي دوره ، حسب المستطاع ، في تبليغ الدعوة الوطنية والترغيب في اصلاحات اجتماعية كانت بلادنا في امس الحاجة اليها ، ورغم الخطوات التي خطاها انتاجنا الادبي ءانذاك والنجاح الذي لقيه فان هذا لا يوصله لان يكون المثل الاعلى لكل عمل ادبي قيم يتسابق الكتاب والشعراء لادراكه والوصول اليه .

واذا كنا لا ننكر الجودة والاتقان اللذين يتحلى بهما انتاجنا الادبي فيما سبق فاننا لا نستطيع ان ننكر كذلك قلة هذا الانتاج وانحصاره في مواضيع معدودة ومضامين معلومة لا تختلف في شيء عن الانتاج الادبي الذي عرفه الادب العربي منذ خرج الى الوجود .

حقا لقد عرف الانتاج الادبي في المغرب العربي ذخائر يعتز بها الادب العربي والانساني كما زخر بمؤلفات جليلة اجبرت الفكر العالمي على تقديرها واحترامها ، وما ابن بطوطة وابن خلدون وابن طفيل والقاضي عياض الا ادلة ناطقة على القمة الشامخة التي وصل اليها الانتاج الفكري المغربي في بعض الاحيان ، وما ءال العرفي والمكودي وابن حيوس وعبد العزيز الفشتالي وعبد المهيمن الحضرمي وابو العباس الجراوي الا امثلة رفيعة لما بلغه ادباؤنا وشعراؤنا السابقون في مضمار الخلق والابداع الفني . ولكننا، رغم كل هذه المفاخر، نريد لادبنا مستوى ارقى مما كان عليه فيما سبق لاننا نود ان يحتل انتاجنا الادبي المعاصر مكانة مرموقة بين الانتاج الفكري العالمي حتى يقبل عليه المتادبون والمثقفون في مختلف ارجاء العالم بالدراسة والتحليل والقراءة والتعديل كما نرغب في ان يصبح لكتابنا وشعرائنا دوي يردده العالم وصدى يتجاوب في مختلف اصقاع المعمور .

وقد استطاع انتاجنا الادبي الحالي ان يحقق البعض مما نتمناه ، فقد وجد بعض شعرائنا من ينقل ءاثارهم الى لغات اجنبية كما حصل بعض الكتاب والقصاصين على جوائز عليا في اقطار اجنبية الشيء الذي يعتبر في حد ذاته تشجيعا لما نهدف اليه ونسعى جادين للوصول اليه .

وكيف ما كان الامر فان في انتاجنا الادبي الحالي من انواع التجدد والوان الابتكار والابداع وتعدد الابواب والميادين وتنوع المواضيع والمضامين ما يجعلنا ننظر اليه بشيء من العطف والحنو وبمزيد من التفاؤل والاستبشار وما يدفع بنا الى التغافل عن بعض مظاهر النقص والضعف والضحل التي ستضمحل شيئا فشيئا بحول الله خصوصا اذا ما اخذ كتابنا الناشئون وشعراؤنا الصاعدون يجدون في سبيل تلافيها .

وسوف لا يتردد ادباؤنا في اتباع الطرق الكفيلة بانتاج فكري رفيع يستحق ان يفرض وجوده على العالم ويترك ذكرا طيبا يخلد اصحابه وحديثا جميلا تتناوله الاجيال المقبلة . ومن الجلي ان هذا الادب لن يستطيع ان يفرض وجوده ويضمن خلود اربابه الا

اذا كان انتاجا ذاتيا عميقا لا اثر فيه للسطحية والطفرة والاتباع والا اذا كان معبرا، في اعماقه، عن مجتمعنا وبيئتنا ومتحدثا في اسمى معانيه ، عن شخصيتنا ومقوماتنا ومقدما ، في اسلوب جذاب ، صورا طريفة عن حياتنا الاجتماعية .

ولن يستطيع هذا الانتاج ان يتوفر على الذاتية المطلوبة ويعبر عن مجتمعنا على الوجه الاكمل ويكون المرءاة التي تنعكس عليها شخصيتنا ومقوماتنا وعاداتنا الا اذا تحلى بالاصالة ونبذ التقليد الاعمى ورمى به وراءه ظهريا ونفض عنه غبار الاجترار العمل والتكرار الذي يبعث على الضجر والسام .

ولن تتحقق الاصالة في التفكير والاسلوب في انتاجنا الادبي الا اذا اقبل كتابنا وشعراؤنا بصفة خاصة ورجال العلم والادب والنقد بصفة عامة على المطالعة المفيدة والدراسة المتينة والاطلاع الواسع على انتاج اسلافنا والتعمق فيه والتحصن بثقافة العصر التي تفرض ، بدورها ، الوقوف على الانتاج الجيد الذي يضعه الاجانب والتمكن من ناصية لغة واحدة او لغات اجنبية للانغمار في هذا الانتاج العالمي وتربية الفكر على التدبير فيما يجري من احداث داخل مجتمعنا وخارجه والشعور بما يهز ابناء وطننا والعالم اجمع من انفعالات نفسية واحساسات ذاتية والتمرين على تسجيلها والتقاطها كما تلتقطها عدسة المصور البارع او مفحصة الطبيب الماهر . وان سعة الاطلاع وعمق التفكير واجادة التسجيل والتصوير خير وسيلة يمكن للكاتب والشاعر ان يحقق بها لانتاجه طابع الاصالة الفكرية والتعبيرية التي تتوقف كذلك على المزيد من الاعتكاف والتروي في التحرير وعدم التعجيل بالنشر اذ لا يمكن للكاتب او الشاعر ان يعتكف على تحرير انتاجه قبل ان يعتكف على القراءة الكثيرة والمطالعة الطويلة المتينة .

حقا ان الكتابة وقرض الشعر موهبة وعطاء قبل ان تكون صناعة ومهنة ، ولكن هذه الموهبة تتوقف على التدريب والصقل اللذين لا يتاتيان الا بالمواظبة على الاطلاع وممارسة الكتابة والنظم. فكيف يطلب من الكاتب او الشاعر ان يتروى في الانتاج ويعتكف على التلقيح وهو لم يتزود بالدراسة ، فيما قبل ، ويتروى في المطالعة والقراءة قبل الاقدام على الكتابة، ولعلي لا ابالغ اذا قلت بان سبب ما نلاحظه في انتاجنا الادبي الحالي من ضعف وضحل يرجع ، اولا وقبل كل شيء ، الى عدم ارتواء اصحاب هذا الانتاج ، سواء كانوا من كبار الكتاب والشعراء او من الناشئين باستمرار وقوة ، من معين الثقافة المتدفق ، وتسرعهم الى الكتابة والنظم قبل ان تتسع ءافاق تفكيرهم وتتقوى معلوماتهم كما يرجع الى تعجيلهم بنشر ما يكتبون وما ينظمون قبل اعادة النظر في ذلك الانتاج والزيادة في تنقيحه وتصحيحه وتحسينه . وقد يعترض علينا بعض الافراد بان العصر الذي نعيش فيه عصر سرعة وانه لا يسمح لرجال العلم والادب ان يسيروا ضد تياره الجارف. واننا لنرد على هؤلاء بان هذا العصر عصر جودة واتقان وضبط رغم ما يتميز به من سرعة واستعجال، وان لنا في حياة الانسان في الدول المتقدمة وما يحققه من اعمال علمية مضبوطة وتجارب فنية متقنة وانتاجات ادبية محمودة موفقة خير دليل على أن التعجيل والسرعة لا يعنيان الانغمار في خضم قد يؤدي الى فقدان الجودة وضياع الاتقان . ان المطابع في الدول الراقية لا تعرف التوقف وهي تصدر ، في كل يوم ، بل في كل لحظة ، عددا كبيرا من المؤلفات الادبية والذخائر الفكرية التي تستجلب في غالبيتها الاعجاب والتقدير نظرا لما تتسم به من رصانة في التعبير ورزانة في التفكير . فلماذا لم يؤثر في هذه الانتاجات طابع السرعة الذي لم يضغط الا علينا نحن الشعوب الساعية في طريق التقدم والتطور ؟ ان الانتاج الادبي الرفيع يتطلب المبالغة في التروي والزيادة في الاتقان وسوف لا يتحقق ذلك في انتاج ادبائنا وعلمائنا ، شيوخنا وشبابنا الا اذا تريثوا واتئدوا وابتعدوا عن طلب الشهرة بثمن بخس والا اذا كان الاطلاع الواسع والاعتكاف الكامل رائدهم في اعمالهم الادبية . ويحضرني، بهذه المناسبة، **ما وقع للدكتور زكي مبارك الكاتب المصري المعروف يوم فاجاته احدى المجلات المشهورة ـ ولعلها مجلة الرسالة في ازهى ايامها ـ بنشر مقال كتبه احد ابنائه. فقد استشاط الدكتور زكي مبارك غيظا وحمل على اصحاب المجلة المذكورة حملة نكراء متهما اياهم بقتل ابنه صاحب المقال من الناحية الادبية وتحطيم مستقبله الادبي لانهم بنشرهم لكلمته ـ حسب راي زكي مبارك ـ وضعوا حدا لطموحه الفكري وقضوا على روح التمعن والتمكن التي كان من الممكن ان يتحلى بها طيلة حياته الادبية .**

وقد كان الدكتور زكي مبارك صادقا فيما قاله لان هذا المقال كان الاول والاخير في انتاج ابنه الذي ساوره الغرور واستحوذ عليه الاعجاب بالنفس الامارة بالسوء فتراخى وتكاسل وتوقف عن الاطلاع ، فقد

ظن انه بلغ ما كان يأمله ووصل الى مدارج الكمال بينما لم يزد في الحقيقة على قدره شيئا بل ازرى بنفسه ووضعها في مدارك الحضيض وقد ساء ظن اصحاب المجلة من حيث كانوا يحسبون انهم بعملهم هذا يحسنون صنعا وراحوا يعتذرون للدكتور زكي مبارك الذي كان اقوى منهم فراسة واكثرهم ادراكا وتقديرا لمستقبل ابنه ومستقبل سائر الكتاب الذين لم يكتمل ، بعد ، نبوغهم الفكري والذين ما زالوا في حاجة الى المزيد من الدراسة والقراءة والتحصيل وممارسة الكتابة والتحرير .

وبعد ، افلا يتدبر رجال القلم عندنا مغزى هذه القصة التي تعبر عن واقع غالبية كتابنا وشعرائنا ؟ اما آن لنا ان نعتبر بهذه الحقيقة ونرحم انتاجنا ونحفظه من الضعف والضحل والخلط ؟

ان انتاجنا لا يشكو من التسرع والاستعجال وقلة الاطلاع وعدم التروي فحسب ولكنه يشكو من معضلة اخرى لا تقل عن سابقاتها خطورة وضررا .

وتتجلى هذه الظاهرة المؤلمة في تعدد اهتمامات رجالات الفكر والثقافة واقبالهم على اشياء مختلفة قد تتعارض في كثير من الاحيان وجمعهم بين مختلف انواع الانتاج الادبي والعلمي . فمن الكتاب من يهتم بالقصة والمسرحية اهتمامه بالتاريخ والحضارة ، ومن الشعراء من يقرض الشعر ويحرر المقالة ويتكفل بالنقد وينكب على الدراسات الدينية ويقوم بالابحاث الاجتماعية ، ومن مثقفينا من يقبل على السياسة اقباله على الرياضة ومجالات القضاء والتشريع وميادين التربية والاخلاق والفلسفة يكتب في كل موضوع منها ويفكر في كل ناحية منها بتفكير خاص ، ومن ارباب القلم عندنا من يفتح صدره ويبدي استعداده للكتابة في كل فن فتجده باحثا في مجالي اللغة والدين كما تراه في نفس الوقت منقبا ومنغمرا في ابحاث تاريخية ومشاركا في كتابات ادبية ومساهما في شطحات صوفية وتحليلات علمية وتحقيقات اقتصادية او اجتماعية او سياسية وهكذا تختلط الدروب في وجه كتابنا وشعرائنا فيعسر عليهم ايجاد المنفذ الذي يمكنهم من التعمق والتحليل البعيد المدى الامر الذي يجعلهم يهرعون الى اقرب الابواب والمواضيع لطرقها ملمين بها الماما خفيفا سريعا لا يسمن ولا يغني من جوع .

ومن الغريب ان نلاحظ هذه الظاهرة المؤسفة في موسيقانا وفي غيرها من الوان الثقافة والمعرفة فالموسيقي عندنا يريد ان يكتب كلمات القطعة التي سيتغنى بها كما يريد ان يلحنها ويعزفها ويغنيها .

وهذا ما يجعل موسيقانا ، هي الاخرى ، ضعيفة مهلهلة اذ لو ادى كل واحد من اهل الفن دوره حسب تخصصه وميوله وهواه لجاءت القطعة جيدة كاملة تنم عن ذوق سليم ومعنى عميق بعيد .

اننا لا نشك في قدرة الله على ان يجمع في شخص واحد ما تفرق في غيره كما لا ننكر امكانية وجود بعض الافراد الذين ساعدهم وسع اطلاعهم وتكوينهم الموسوعي على المشاركة في كل من فنون المعرفة والمساهمة في كل نوع من انواع الثقافة البشرية ولكننا نريد مع ذلك ان يتخصص رجال العلم والادب وان يأخذ كل واحد منهم جانبا من جوانب المعرفة يهتم به ويجعله هجيراه في دراساته وابحاثه وكتاباته لان التخصص وتحديد الاتجاه سيؤديان بارباب القلم عندنا الى توجيه جهودهم وطاقتهم الفكرية الى ناحية خاصة تستحوذ على اهتماماتهم وتستولي على افكارهم وتوجههم وجهة صالحة تجعلهم لا يخبطون في كل ميدان ويعمهون في كل مجال .

ومما لا ريب ان هذا التخصص سيحدد اتجاه كل كاتب ويجعله يقبل على ميدانه بكل هدوء واتئاد واطمئنان ساعيا الى اكتشاف كل طريف مدفوعا الى البحث عن كل جديد . وهكذا ستتعمق الابحاث العلمية والاكتشافات الادبية وتستظرف المقالة وتسمو القصيدة وتكتمل المسرحية وتنضج القصة والاقصوصة فيرتفع بذلك مجموع انتاجنا الفكري ويبلغ مدارج الكمال فتهواه النفوس ويقبل عليه القراء . اما اذا ظل ادباؤنا وعلماؤنا يتيهون في كل واد ويصيحون في كل ناد فسيبقى انتاج كل منهم خليطا يعسر الفصل بين غثه وسمينه وسقيمه وصحيحه ومزيجا لا يستطيع هضمه الا اولو العزم من القراء وسيؤول في النهاية الى هشيم تذروه الرياح لانه لن يتوفر على اساس عميق يشده الى الارض ولا على اجنحة متينة تمكنه من التحليق والارتفاع .

وعلى كل حال فقد اخذ انتاجنا الادبي يشق طريقه ويتجه الى الغاية المرجوة رغم الصعوبات التي تعترضه والعراقيل والاشواك التي تعوقه .

وسوف لا يصل هذا الانتاج الى مستوى الانتاج العالمي الا اذا اقبل رجال الفكر والعلم والادب على طبعه بطابع الاصالة الذي لن يتحقق الا بالاطلاع الواسع والاعتكاف على ممارسة الكتابة بعد الاعتكاف على المطالعة المكينة وانتهاج نوع من التخصص يسمح بتحديد اتجاه كل مجد دعته دولة القلم الى الانغمار في صفوفها والانضواء تحت لوائها .

الرباط : عبد اللطيف خالص



منذ ثلاثين او اربعين عاما ، يوم كنا تلامذة صغارا ، نميل الى الادب ولا نعرف عنه الا النزر اليسير ، يومها كنا نسمع ببعض شعراء العرب عن طريق حفظ بعض اشعارهم ومقطوعاتهم الوافية عن طريق الكتب المدرسية او معلمي اللغة العربية ، ولقد استقر بأذهاننا حينئذ ان شعراء اللغة العربية لا يزيدون على الخمسة او الستة في مصر منهم شوقي وحافظ ومطران ، وفي العراق الزهاوي والرصافي، وكما تنازع الثلاثة المصريون امجاد الشعر ومشاكله، وهكذا تنازع الشاعران العراقيان مصاعب الشعر وفخره ، وكان للزهاوي عندي مكانة خاصة لا ينازعه فيها منازع وكنت احفظ له الشعر الجميل الذي ينبع من القلب الى القلب فحين كبرت ووقفت على وجوه معاني الشعر المختلفة واتسعت نظرتي الى الفن اخذت ادرك ما عند الشعراء من عيوب خبرت بعضها بنفسي وافدت بعضها الآخر من كتبي ومن أساتذتي وكان من اجمل الشعر الذي حفظته في حياتي الادبية الاولى قصيدة الزهاوي التي القاها يوم جاء الى دمشق ودعي الى المجمع العلمي العربي فالقى هذه النفثة الحراء التي كانت خير قصيدة في موسمها ، كما كانت على ما اظن من خير ما نظم الزهاوي طوال حياته الادبية الحافلة ، واليك مطلع هذه القصيدة الخالدة وابياتا منها :

ظننت بأن الشعر يغني فما أغنى
وكم شاعر في موقفي اخطأ الظنا

لقد كان شعري يحسن اللحن ان شدا
فما بال شعري اليوم لا يحسن اللحنا

يغني فيبكي السامعين غناؤه
كذلك يشجي العندليب اذا غنى

ثم يقول :

وللشعر جسم ناعم هو لفظه
وللشعر روح ذو شعور هو المعنى

ارى الشعر بعد الوحي اكرم هابط
من الملأ الاعلى الى الملأ الادنى

ثم يقول بيته الخالد معرضا بالمستعمرين وظلمهم الفادح عقيب الحرب العالمية الاولى :

يريدون مني ان اغني باسمهم
واي هضيم باسم اعدائه غنا

ولد الزهاوي عام 1863 للميلاد في بغداد وكان ابوه موظفا دينيا ، وينتسب باسمه الى امارة مستقلة من الامارات الايرانية تدعى (زهاو) ولقد نظم الشعر منذ طفولته الاولى بالعربية والفارسية وتقلب في مناصب مختلفة في القضاء والتعليم كما انتخب نائبا في مجلس النواب العثماني ثم نائبا عن بغداد في العهد العربي وكان آخر اعماله عضوية مجلس الاعيان ببغداد . وقد انتج الزهاوي انتاجا ادبيا وفنيا غزيرا ويرجع ذلك في رايي الى طبعه الادبي الصادق وموهبته المواتية ومما لا شك فيه انه كان

يكتب بسهولة بالغة ، والادباء الذين على هذه الشاكلة تكثر ثمارهم وتتعدد نتائجهم الفنية لانهم لا يجدون صعوبة فيما يكتبون او ينظمون .

والزهاوي كان مثقفا بالنسبة لعصره ثقافة عالية ، وقد حاول ان يزيد من هذه الثقافة ولكن العلل اصطلحت عليه والسن ادركته فلم يصنع كثيرا في هذه السبيل ، يضاف الى كل ذلك انشغاله بالناس وبالدفاع عن نفسه امام الحملات التي شنها عليه رجال الدين والمحافظون في الفكر على التقاليد والاعراف فقد تشرب الزهاوي الفلسفة واغراه على ما اعتقد لقب الفيلسوف فجاهر ببعض الاراء التي لم تكن على مستوى العصر او سهلة المأخذ من نصف قرن مضى فعد الشاعر مخالفا ، واعتبر خارجا على العرف فهوجم بغير هوادة او لين ، ولقي الزهاوي من وراء هذا الهجوم عنتا كبيرا والذي اعتقده ان الزهاوي لم يفد شيئا من هذا الخلاف ولم يستفد الجيل الادبي منه ايضا الا كما يفيد الانسان من رؤية فيلم سينمائي مجرد عن الفكرة والعبرة ، فقد كان المهاجمون يدورون في حلقة مفرغة من الدفاع عن الدين ، دفاعا يتلخص في سرد الآيات القرءانية والاحاديث النبوية كما كان الزهاوي يدور في الحلقة ذاتها وان اختلفت طريقة الدوران مكتفيا بايراد ما يحفظه من نظرية دارون وما قراه في مجلة المقتطف من ابحاث فلسفية او شبه فلسفية ومقالات فلكية وعلمية ، كان يحفظها ويعرضها على الناس وقد هيأت له الحياة الادبية هنالك الايام اناسا يعطفون عليه او يستغلون عاطفة المنافسة عنده فراحوا يلقبونه بالفيلسوف والعالم والجهبذ الى ءاخر هذه الاوصاف والنعوت التي كانت بعيدة عن الزهاوي بعدا كبيرا لان الزهاوي لم يكن في حقيقة الامر الا شاعرا فحسب .

واذا اردنا التحدث اليك عن شعر الزهاوي فلا بد من تقسيم البحث الى موضوعين اولهما يتناول راي الزهاوي في الشعر ، والثاني يبحث قصائد الشاعر وجهده الفني .

اما راي الشاعر في الشعر فغريب عجيب واغرب منه ان يصدر عن شاعر كبير مارس نظم الشعر وعرف دواعيه وبواعثه وقد اثبت رايه هذا في مقدمة ديوانه وفي مقال عنوانه (نزعتي الشعرية) وقد بدا حديثه فيه بتعريف الشعر تعريفا تقليديا لا جديد فيه فحين اراد ان يقول شيئا جديدا اخفق اخفاقا كبيرا وناقض نفسه مناقضة اسفنا لها اسفا شديدا . يقول الزهاوي : (ولا ارى للشعر قواعد بل هو فوق القواعد) ولا ادري كيف اقدم هذا الشاعر المرموق على ايراد مثل هذه الفكرة التي تخالف قواعد المنطق التي يتذرع بها في بحوثه وءارائه ، وهل هنالك شيء في الوجود بلا قاعدة ، ان القاعدة تلازم كل عمل فني او علمي، وما الاوزان الشعرية والقوافي الا قواعد لا يمكن الاستغناء عنها الا تبعا لقواعد جديدة تحل محل القواعد القديمة وهل نستطيع تصور فن الرسم او النحت او الموسيقى دون قواعد . ان حذف القاعدة يعني الفوضى والفوضى لا تثمر شيئا ولا تنتج فنا اما اذا اراد الشاعر بقوله ان يحقق الحرية للفن فان الحرية قد توجد مع وجود القواعد وذلك بان نطلق للشاعر الحرية باختيار المعاني التي يريدها والاخيلة والصور التي يراها مناسبة لموضوع القصيدة او للاحساس الذي يعتلج في صدره ويتمخض عنه ضميره، الشاعر حر في ان يتصور ما يريد ولكنه مجبر على ان يضع هذا التصور في قالب له اصول وقواعد لا يجوز الشذوذ عنها او التخلص منها ، والزهاوي يناقض نفسه في قوله السابق الذي اوردنا لك نصه فيقول بعد سطور من مقدمته : (ولا يسوغ للشاعر العربي مخالفة قواعد اللغة) فهو يعترف هنا باللغة وبان هذه اللغة مرتبطة بقواعد لا يجوز للشاعر الخروج عليها مهما اوتي من حرية الفكر والراي . ان الشاعر يحس الحياة باعصابه وهذا الاحساس لا قاعدة له وهو مستغن عن القاعدة ما دام في حيز التصور فاذا اريد له ان يثبت على الورق خضع للقاعدة من لغة وعروض وقافية ونحو وصرف .

لقد اراد الزهاوي ان يجدد في الشعر وكان عليه ان يجدد دون ان (يريد) ذلك لان الارادة هنا تحمل معنى التكلف والتصنع ، وعن هذين لا يمكن ان يصدر تجديد صحيح ، ذلك ان التجديد يحدث من ذاته ولا يقصد اليه قصدا اما شعر الزهاوي ففيه الجيد البارع كما رايت في الابيات التي مرت بك في مطلع هذا الحديث واسمع هذه الابيات الرائعة ايضا من قصيدة عنوانها (الغريب المحتضر) :

اموت بعيدا عن دياري وعن اهلي
فمن يا ترى يبكي حوالي من اجلي

اموت غريبا في ربوع شبيبتي
ولا صاحب عندي يمرض او يسلي

غداة غد يا لهف نفسي على غد
يتم على الايدي الى حفرة نقلي

الى حيث لا شمس النهار مطلة
ولا الليل نظار باعينه النجل

الى جدث داقي القرارة ضيق
يجاور اجداثا بنين على تل

ففي الابيات وصف رائع لموت القريب ووصف دقيق للقبر وما يتبعه وكل ذلك بلفظ مختار وديباجة موفقة ، ولكن هذا الشعر الجميل قليل عند الزهاوي لان هذا الشاعر كان يكثر من النظم دون ان يختار الوقت المناسب او الفرصة المواتية فاذا فعل ذلك خرج شعره مهلهلا ضعيف الاسلوب بل انه كثيرا ما يخرج على قواعد العروض والقافية وربما لجأ الى المعاني الرخيصة والافكار المبتذلة كما في قوله حين يتلهف على بغداد بعد فراق لها :

ان حبي لمن افارق فيها
يتجلى في دمعي المهراق

ليس من بعد العراق مقر
غير مصر ومصر اخت العراق

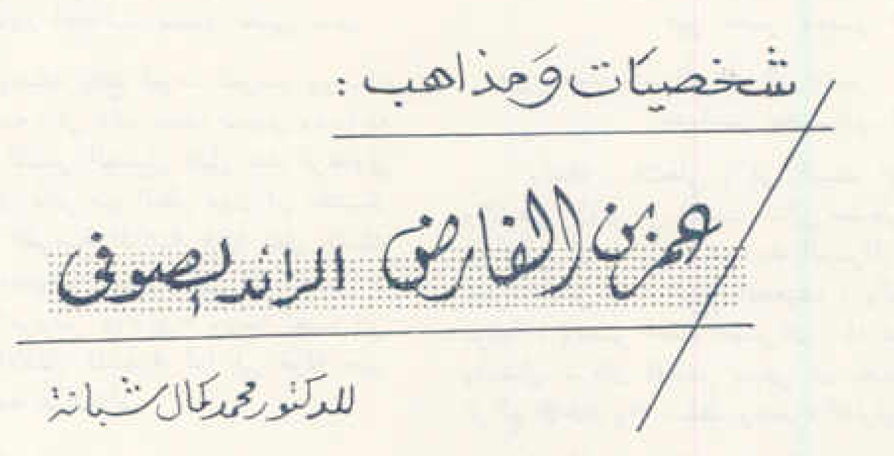
في رحيلي عن العراق الى مصر
مصابي معادل لاشتياقي

ولفظة (التجلي) في البيت الاول غير موفقة والشطر الاول من البيت الثاني مضطرب الوزن وكان يستطيع ان يقول (ليس بعد العراق لي من مقر) حتى يتسق له (البحر الخفيف) وكم اجد عنتا في قراءة (ومصر اخت العراق) لما فيها من عامية وابتذال ، فان الشعر ينبغي ان يختار له التعبير الرائع الاخاذ والا سقط وهجره القارئون .

ان الزهاوي كان شاعرا موهوبا مفطورا على الشعر والشعور كالفلسفة والفلك والدين فلم يوفق في هذه واساء الى شعره اساءة بالغة .

دمشق : احمد الجندي





هو الشيخ ابو حفص عمر بن ابي الحسن علي ابن المرشد ابن علي ، ويكنى بابي القاسم ايضا ، كما يعرف بابن الفارض ، وينعت بشرف الدين ، ويلقب بسلطان العاشقين . اما غلبة « ابن الفارض » عليه فترجع الى ان اباه كان فارضا ، اي مقررا الفروض للنساء على الرجال امام الحكام .

ولد هذا الشيخ بالقاهرة في الرابع من ذي القعدة عام 576 هـ ، وبها توفي في اليوم الثاني من جمادى الاولى سنة 632 هـ ، ولكن موطن الاسرة اصلا هو « حماه » في سوريا فهو « حموي الاصل ، مصري المولد والدار والوفاة » ، وربما انتهى نسب ابيه الى قبيلة بني سعد ، التى منها حليمة السعدية، مرضعة النبي صلى الله عليه وسلم ، على حد تقرير بعض المؤرخين ، فهو بهذا يكتسب عراقة الاصل وشرفه . نشا وترعرع في كنف والده الذى اقراه القرءان ، ولقنه مبادىء الدين وعلومه .

ولقد كان للبيئة التى عاصرها ابن الفارض اهمية تاريخية كبرى ، ترجع الى انتقال الحكم في مصر على ايامه من الفاطميين الى الايوبيين ، وبتعبير اوضح ، تحول من المذهب الشيعي الى المذهب السني الشيء الذى حدا بشيخنا الى الاشتغال بعلم الحديث، (معتنقا مذهب الامام الشافعي)، ودراسته على اعلام العصر فيه ، كالشيخ بهاء الدين ، الملقب بابن عساكر ، والشيخ الحافظ المنذري ، وغيرهما . ولما انس من نفسه ميلا الى الزهد، وتجردا عن متاع الدنيا ، اتجه الى امام التصوف يومئذ ، الشيخ ابي الحسن علي البقال ، ومن يومها وهو في ثياب الزهد والتجرد والروحانية ، لاسيما وان عصره قد زخر برجالات في هذا الميدان ، وءاخرين لهم مكانتهم العلمية ، امثال صفي الدين بن ابي المنصور، وشمس الدين الايكي ، وسعد الدين الحارثي الحنبلي المحدث ، والقاضي امين الدين بن الرقاوي ، وجمال الدين الاسيوطي ، وعمر السهروردي ، والقاضي شمس الدين بن خلكان ، وشهاب الدين بن الخيمي ، وغيرهم .

وابن الفارض قد ادرك ــ منذ مولده وحتى وفاته ــ بعض الشخصيات الاصلاحية ، وخاصة في احياء المذهب السني وهم من القادة : صلاح الدين الايوبي ، والعزيز ، والعادل ، والكامل. الذين لم يالوا جهدا في محو التعاليم الفاطمية ، واحلال التعاليم السنية محلها ، ولقد كان لهذا الاتجاه اثره البالغ في روح العصر ، واتسامه بالطابع السني في عهد الايوبيين ، فقد كان من ابرز خصائصهم .

هذا ، وتصور لنا حياة ابن الفارض ونشاته الاولى سلوكه وعلمه ، ففي جو من العفاف والصيانة والعبادة تربى في حجر والده كما اسلفنا ، وقد اكسبه ذلك ــ الى حد بعيد ــ ديانة وورعا وقناعة ، فلما شب عن الطوق اشتغل بفقه الشافعية ، واخذ الحديث عن ابن عساكر ، والحافظ المنذري ، وغيرهما ، ثم مال الى الخلاء ، وانتهاج طرق الصوفية ، فقد كان يستاذن اباه في السياحة ، ويخرج الى الجبل الثاني من « المقطم » ، حيث يأوي الى بعض المساجد المهجورة في خرابات المدافن المجاورة للجبل ، ثم يعود الى والده ، فيقيم لديه

مدة ، ثم يرجع ، وهكذا .. ومع ذلك فلم يفتح عليه بشيء كما يروى ، حتى اخبره الشيخ البقال : انه انما يفتح عليه بمكة ، فبادر فورا اليها فى غير اشهر الحج ، حيث فتح عليه بها ؛ وطال مقامه فى هذه البقاع المقدسة طيلة خمسة عشر عاما ، كانت عامرة بالايمان القلبي، والتقوى الالاهية، والاتصال الروحي، بعدها رجع الى مصر ، حيث توفى بعد اربع سنوات من رجوعه .

ولا جدال فى ان هذه النشاة العلمية الاولى من حياته ، وما تلاها من سلوك روحي ، قد كان لهما فضل التمهيد لسلوك طريق التصوف . بيد ان السيوطي يخالف هذا ، اذ يرى ان ما حمل ابن الفارض على الزهد ، ودفعه الى التجرد ، هو ان الرجل كان من الفقهاء الاعلام ، وقاضيا ولي الاحكام ، وانه دخل الجامع لصلاة الجمعة والخطيب يخطب ، فوجد شخصا يغني ، فنوى تاديبه سرا ، فلما انقضت الصلاة ، وانتشر الناس ، خرج ابن الفارض، فناداه الشخص المغني : ان اقبل ، فلما اقبل انشده :

قسم الالاه الامر بين عباده
فالصب ينشد ، والخلي يسبح
ولعمري التسبيح خير عبادة
للناسكين ، وذا لقوم يصلح

فكان هذا سبب زهده (1) .

وهي رواية قد لا تتوافر لها اسباب الوجاهة ، ومن ثم الاعتماد عليها ، وبالتالي اتخاذها اساسا لتحول صاحبنا الى التصوف ، كما انها رواية فى حاجة ماسة الى ما يوثقها ؛ لاسيما وانه ليست لدينا حتى اليوم مصادر تثبت ان ابن الفارض شغل كلا من القضاء والفتيا فى وقت من الاوقات ، واذن فرواية الشيخ السيوطي – مع التقدير العلمي والتجلة – تحتاج الى مناقشة وانها محل نظر ، ولعل ما يؤيد اتجاهنا الفرضي هذا ، هو ما لاحظناه اثناء سيرة المترجم له من نزوعه منذ صباه منزع الصوفية.

ولندع المجال الآن لابن الفارض نفسه فى هذه المناسبة ، ليحدثنا عن رحلته الى مكة ، والفتوح بها عليه ، يقول بانه حضر سياحة الى القاهرة ، ودخل المدرسة السيوفية ، فوجد شيخا بقالا على بابها يتوضا وضوءا غير مرتب ، فاعترض عليه ابن الفارض بانه وضوء مخالف للشرع ، وهنا نظر اليه البقال : وقال له : يا عمر ، انت ما يفتح عليك فى مصر ، وانما يفتح عليك بالحجاز فى مكة – شرفها الله – فاقصدها ، فقد ءان لك وقت الفتح . قال : فطلبت مكة فى غير اشهر الحج ، ودخلتها ، وجاءني الفتح حين وصلت مكة . ولقد مكث بها خمسة عشر عاما، نظم خلالها من الشعر الصوفي ما نظم ، ثم استدعاه شيخه البقال ، فعاد الى القاهرة ، ولكن الموت لم يمهل شيخه كثيرا بعد وصوله ، ومن هنا كانت حياة ابن الفارض فى الطور الاخير حياة حسرة واسى ، بوفاة الشيخ البقال ولي النعمة الصوفية والمرشد اليها ، وبقي طيلة الاربع سنوات منذ عودته الى القاهرة والحنين يعاوده الى بلاد الحجاز ، حتى توفى فدفن بالقرافة بسفح المقطم ، وبنى السلطان برقوق الناصر عليه قبة ومسجدا ، رحمه الله .

ولقد شغل ابن الفارض بقرض الشعر نحوا من اربعين سنة ، ويتميز شعره فى فترة الصبا عنه فى فترة الكهولة . وبالجملة نرى هذا الشعر يتراوح بين الفطرة والتكلف ، ويميل – الى حد الافتتان – نحو الزخرف البديعي من تورية وطباق وجناس ، كما كان ينحو فى هذا الشعر الى التصغير ، حتى لقد عد فى مقدمة شعراء العربية اهتماما بالتصغير . ويقول ابن اياس فى صدد الحديث عن معاصري ابن الفارض من الادباء والشعراء : «ان احدا من هؤلاء لم ينكر على ابن الفارض شيئا من حاله ولا من نظمه ، وانهم كانوا معه فى غاية الادب »، كما يصفه الامام شهاب الدين محمد بن عبد المنعم الانصاري بانه « قدوة فى الطريقة ، واسوة فى علم الحقيقة ، الا ان صناعة الادب عليه اغلب ، وعلم الشعر فيه ارجح » (2) . وله ديوان شعر صور فيه اشواقه واذواقه فى حب الذات الالاهية ، ومعرفة الحقيقة العلمية ، وتكاد تكون قصيدته « التائية الكبرى » من أهم قصائده ، وتبلغ ستمائة بيت ، يصور فيها ويجسم اطوار حياته الروحية ، وما عاناه خلالها من رياضات ومجاهدات ، ثم ما انتهى اليه من فتوحات ومكاشفات (3) ، ومن قصائده البارزة فى هذا المجال

---

(1) راجع : السيوطي فى « قمع المعارض بنصرة ابن الفارض » ط . دار الكتب القاهرة ص 98 .
(2) ابن الفارض فى سلسلة « اعلام العرب » للدكتور محمد مصطفى حلمي ، ص 60 (العدد 25)
(3) الموسوعة العربية الميسرة (دار القلم بالقاهرة 1965) ص 24 .

قصيدته الميمية او الخمرية ، » وقد تغنى فيها بالحب الالهي ، وانتهى منها الى مذهب وحدة الشهود » ، اما قصيدته الهمزية والفائية فانهما كذلك يدوران فى هذا المعنى ، فالاولى مطلعها :

ان النسيم سرى من الزوراء
سحرا فاحيا ميت الاحياء

والثانية مطلعها :

قلبي يحدثني بانك متلفي
روحي فداك، عرفت ام لم تعرف

وقد بذل الشراح عناية فائقة فى ديوان ابن الفارض، فبعضهم تصدى له لغويا، كشرح البوريني، والبعض اهتم به من الناحية الصوفية ، كشرح النابلسي ، ولشعره ترجمات لاتينية وفرنسية وانجليزية والمانية وايطالية ، يعكف عليه الدارسون والمستشرقون من الاوربيين ، الذين عنوا بحياته ومذهبه ، وقاموا حولهما بدراسات عديدة .

ونعود الى قصيدته الميمية التى المحنا اليها، والتى يقص علينا فيها قصة رضاه بعد العزة بالذلة، وخلا له خلع العذار بعد النسك والتقوى ، يقول فيها :

اصلي فاشدو حين اتلو بذكرها
واطرب فى المحراب وهي امامي
وبالحج ان احرمت لبيت باسمها
وعنها ارى الامساك فطر صيامي

كما نلاحظ طابع الرمزية فى عموم قصائده وخاصة القصيدة الخمرية (شربنا على ذكر الحبيب) حيث يعبر عن الذات الالاهية بالخمرة العالية ، التى تقول للشيء : كن فيكون .

واخيرا فاذا كان ابن الفارض لم ينل اهتماما بالغا من اقلام المؤرخين السابقين ، فان فى ذكره على السنة الجماهير حياة قوية ، فما تزال قصائده متعة لرواد هذا الفن ، ومنتجعي هذا المرعى ، وان اهتمام المؤلفين المشهورين بدرس ديوانه وشرحه لحياة ابن الفارض ، واي حياة !!

مكناس : د. محمد كمال شبانة





> **« .. وعلينا الا ننسى أن ادبنا طافح بالملاحم ، وطافح بالشجاعة ، والاقدام ، فلنقل اذن لمن لا يعلمنا ، او لمن يجهلنا :**
>
> **الا لا يجهلن احد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا »**
>
> من كلمة جلالة الحسن الثاني في اعضاء السلك السياسي بالمغرب في مناسبة عيد المولد النبوي الكريم 12 ربيع الاول 1390

لعلنا الآن احوج من اي وقت مضى ، لان نعقد بين جيلنا وابطالنا القدامى صلات المعرفة والذكرى ، لاسيما في هذه الايام العصيبة التي يأتمر فيها الصهيونيون على مقدسات المسلمين ، ويوالون اعتداءاتهم على الارض العربية الاسلامية ، التي كانت يوما مسرحا لحروب البطل نور الدين ، ومعرضا لانتصاراته المظفرة .

فمن هو هذا القائد ذو الصيت الذائع ؟

مولده وصفاته :

(1) هو نور الدين ابو القاسم محمود بن الاتابك عماد الدين زنكي ابن قسيم الدولة آق سنقر التركي السلجوقي . ولد يوم الاحد عند طلوع الشمس ، سابع عشر شوال سنة احدى عشرة وخمسمائة ، في مدينة حلب بالشام .

نشأ على حب الخير والصلاح، وقراءة القرءان والعبادة ، واعتاد والده على تقديمه على بقية اولاده ، متوسما فيه مخايل الذكاء والنجابة ، وكان معتدل القامة ، اسمر اللون ، واسع الجبهة ، حسن الصورة . ذا لحية خفيفة . وقد عرف عنه تقدمه اصحابه في الحرب ، وتعرضه للشهادة ، وسؤاله ربه ان يحشره من بطون السباع ، وحواصل الطير . وكان ـ رحمه الله ـ حسن الخط ، كثير المطالعة للكتب الدينية ، متبعا للآثار النبوية ، مواظبا على الصلاة في الجماعات ، عاكفا على تلاوة القرءان الكريم ، حريصا على فعل الخير ، عفيف البطن والفرج ، مقتصدا في الانفاق ، متحريا في المطعم

---

(1) اعتمدنا في هذا العرض المتسلسل لسيرة المترجم له على الاقتباس من مخطوط « الكواكب الدرية ، في السيرة النورية » للشيخ بدر الدين ابن قاضي شهبة المتوفى عام 874 هـ (دار الكتب المصرية بالقاهرة رقم 1667 تاريخ) وهو من تحقيقي مع الزميل الدكتور محمد كمال شبانة .

والمشرب والملبس . لم يسمع منه كلمة فحش قط ، لا فى رضاه ولا فى غضبه ، واشهى ما يكون اليه كلمة حق يسمعها ، او ارشاد الى سنة يتبعها ، وقد شاع عنه انه اذا وعد وفى ، واذا أوعد عفا ، واذا تحدث بشيء يقف، ولا يخالف قوله ، ولا يجري فى مجلسه الفسق والفجور ، والشتم والغيبة ، والقدح فى الناس والكلام فى اعراضهم .

قال ابو الحسن بن الاثير : قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام ومنه الى يومنا هذا ، فلم ار فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ملكا احسن سيرة من الملك العادل نور الدين ، ولا اكثر تحريا للعدل والانصاف منه . قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره ، وجهاد تجهز له ، ومظلمة يزيلها ، وعبادة يقوم بها ، واحسان يوليه ، وانعام يسديه ، فلو كان فى امة لافتخرت به ، فكيف ببيت واحد !!

ولايتــه وافعالــه :

لما توفى والده سنة احدى واربعين وخمسمائة، وبلغ اسد الدين شيركوه وفاته ركب من ساعتــه ، وقصد خيمة نور الدين ، واشار عليه بالتوجــه الى حلب، وان يجعلها كرسي مملكته ، وذكر له انه اذا ملك حلب اجتمع فى خدمته عساكر الشام ، وقال له : انا اعلم ان الامر يصير جميعه اليك ، لان ملك الشام يحصل بحلب ، ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق . فركب ، وامر ان ينادي بالليل فى عساكر الشام بالاجتماع ، فاجتمعوا ، وساروا فى خدمة نور الدين الى حلب ، فدخلها سابع ربيع الاول من نفس العام ، وجاء أسد الدين الى اسفل القلعة ، ونادى واليها ، ففتحها ، واصعد نور الدين اليها ، وقرر امره ، وسير احواله .

وعقب الولاية خرج نور الدين غازيا ، ففتح حصونا كثيرة .

قال ابن عساكر : فتح نيفا وخمسين حصنا ، وكسر « ابرنس » انطاكية وقتله ، وقتل معه ثلاثة ءالاف نفس ، واخذ من القومص ثلاثمائة الف دينار ، وخمسمائة زردية ، وخمسمائة حصان ، وخمسمائة اسير .

وقال ابن الجوزي : استرجع من ايدي الكفار نيفا وخمسمين مدينة . وكان قد عزم على فتح القدس فوافته المنية . وخطب له بالحرمين الشريفين مكة والمدينة ، وبلاد الشام ، ومصر ، واظهر السنة بحلب ، وازال البدعة التى للروافض فى الاذان ، بحي على خير العمل ، وقمع بها الروافض ، وبنى بها المدارس ، ووقف الاوقاف ، واظهر العدل ، وبنى سور دمشق ، وانشا بها المدارس والمساجد ، واصلح طرقها ، ووسع اسواقها ، واسقط جميع المكوس ، وعاقب على الخمر .

ولقد حبس الاوقاف على المرضى والمجانين ، وبنى المكاتب لليتامى ، والمارستان بدمشق ، ووقف على سكان الحرمين ، واقطع امراء العرب الاقاطيع لئلا يتعرضوا لقوافل الحجاج ، وامر باكمال سور المدينة ، واجرى اليها العين التى باحد عند قبر حمزة رضي الله عنه، وبنى الجسور والقناطر، وجدد كثيرا من قنى السبيل فى دمشق وغيرها من البلاد التى ملكها ، ووقف كتبا كثيرة فى مدارسه ، وله اوقاف دائرة على جميع ابواب الخير . وكان الجامع الاموي بدمشق قد دثر ، فولى نظره لقاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري ، فأصلح امره ، واضاف الى اوقاف الجامع المعلومة الاوقاف التى لا تعرف شروط واقفيها ، وسماها «مال المصالح» ، ورتب عليها لذوي الحاجات والفقراء والمساكين والارامل والايتام ، وما اشبه ذلك .

عدالتــه :

قال ابن الاثير : وفى الحقيقة هو الذى جدد للملوك سنة العدل والانصاف ، وترك المحرمات من المآكل والمشرب والملبس ، وغير ذلك ، فانهم كانوا قبله كالجاهلية ، هم احدهم بطنه وفرجه ، لا يعرف معروفا ، ولا ينكر منكرا ، حتى جاء الله بدولته ، فوقف مع اوامر الشرع ونواهيه ، والزم بذلك اتباعه وذويه ، فاقتدى به غيره منهم ، واستحيوا ان يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه ، ومن سن سنة حسنة كان له اجرها واجر من عمل بها الى يوم القيامة .

قال : ومن عدله انه لم يعاقب على الظنة والتهمة ، بل يطلب الشهود على المتهم ، فان قامت عليه بينة شرعية ، عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعد ، فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد فى غير ولايته ، مع شدة السياسة ، والمبالغة فى العقوبة ، والاخذ بالظنة ، وامنت بلاده مع سعتها ، وقل المفسدون ببركة العدل، واتباع الشريعة المطهرة .

ويردف ابن الاثير قائلا : وحكى لي من اثق به انه دخل يوما الى خزانة المال ، فراى مالا كثيرا ، فقال : من اين هذا ؟ قالوا بعث به القاضي كمال الدين من قابض الاوقاف . فقال : ان هذا المال ليس لنا ، ولا لبيت المال فى هذه الجهة شيء ، وامر برده واعادته الى كمال الدين ليرده على صاحبه ، فارسله متولي الخزانة الى القاضي ، فرده ايضا الى الخزانة، وقال : اذا سال السلطان عنه فقولوا له عني انه له . فدخل نور الدين الخزانة مرة اخرى فوجده ، فانكر على الخازن ، وقال : الم اقل ان هذا المال يعاد على اصحابه . فذكر له قول القاضي، فرده اليه ، وقال لرسوله ، قل لكمال الدين : انت تقدر على حمل هذا ، واما انا فرقبتي دقيقة ، لا اطيق حمله ، والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى .

قال : ومن عدله ايضا بعد موته — وهو من اعجب ما يحكى — ان انسانا كان بدمشق غريبا استوطن بها ، واقام بها لما راى من عدل نور الدين ، فلما توفى تعدى بعض الاجناد على هذا الرجل ، فشكاه ، فلم ينصف منه . فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي ، وقد شق ثوبه ، وهو يقول : يا نور الدين ، لو رايتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا . اين عدلك ؟ وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق ما لا يحصى ، وكل منهم يبكي ويصيح ، فوصل الخبر الى صلاح الدين ، وقيل له : احفظ البلد والرعية والا خرج عن يدك . فارسل الى ذلك الرجل وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه ، فطيب قلبه، ووهب له شيئا وانصفه ، فبكى اشد من الاول ، فقال له صلاح الدين : لم تبكي ؟! قال : ابكي على سلطان عدل فينا بعد موته ، فقال صلاح الدين : هذا هو الحق ، وكل ما ترى فينا من عدله فمنه تعلمناه .

قال : ونور الدين اول من بنى دار العدل بدمشق ، وسماها « دار الكشف » . وسببه ان الامراء لما قدموا دمشق فبنوا الاملاك ، واستطالوا على الناس ، وخصوصا اسد الدين شيركوه ، وكثرت الشكاوي الى القاضي ، فلم يقدم على الانصاف من اسد الدين ، فشكاه الى نور الدين ، فامر ببناء دار العدل ، فلما سمع اسد الدين بذلك احضر اصحابه واهل ديوانه ، وقال لهم : اعلموا ان نور الدين ما بنى هذه الدار الا بسببي وحدي . والله لئن حضرت بسبب واحد منكم لاصلبنه ، فامضوا الى كل من بينكم وبينه منازعة فى ملك فافصلوه ، وارضوه باي طريق امكن ، ولو اتى ذلك على جميع ما بيدي . فقالوا له : ان الناس اذا علموا هذا اشتطوا فى الطلب. فقال : خروج املاكي عن يدي اسهل علي من ان يراني نور الدين بعين اني ظالم ، او يساوي بيني وبين احد العامة فى الحكومة . ففعلوا، وارضوا الخصوم . فجلس نور الدين فى دار العدل لفصل الخصومات والحكومات ، وكان يجلس فى الاسبوع اليومين والاربعة والخمسة ، وعنده القاضي والفقهاء ، ويامر بازالة الحجاب والبواب ، فيصل اليه الشيخ الضعيف ، والعجوز الكبيرة ، ويسال الفقهاء عما اشكل عليه من الامور الغامضة ، فلا يجري فى مجلسه الا محض الشريعة. وبقي على ذلك مدة ، فلم يحضر عنده احد يشكو من شيركوه ، فعرفه القاضي الحال : فسجد لله شكرا . وقال: الحمد لله الذى جعل اصحابنا ينصفون من انفسهم قبل حضورهم الينا .

وقال : فانظر الى هذه المعدلة ما احسنها ، والى هذه الهيئة ما اعظمها ، والى هذه السياسة ما اشدها . هذا ، مع انه كان لا يريق دما ، ولا يبالغ فى عقوبة ، وانما كان يفعل هذا صدقة فى عدله ، وحسن نيته .

وحكى شاذبخت الطواشي الخادم النوري ، قال : كنت يوما انا وسنقرخجا واقفين على راس نور الدين ، وقد صلى المغرب ، وجلس وهو مفكر فكرا عظيما ، وجعل ينكث باصبعه فى الارض ، فتعجبنا من فكره ، وقلنا فى اي شيء يفكر ؟ فى عائلته ؛ او فى وفاء دينه ؟ فكانه فطن بنا ، فرفع راسه ، وقال: ما تقولان ؟ فقلنا : ما قلنا شيئا . قال : بحياتي قولا لي . فقلنا : عجبنا من فرط مولانا فى الفكر . وقلنا : يفكر فى عائلته ؟ او فى وفاء دينه ؟ فقال : والله انني افكر فى وال وليته امرا من امور المسلمين ، فلم يعدل فيهم ، او فيمن يظلم المسلمين من اصحابي واعواني ، واخاف المطالبة بذلك : فبالله عليكما — والا فخبزي عليكما حرام — لا تريان قصة ترفع الي ، او تعلمان مظلمة الا واعلماني بها ، وارفعاها الي .

وحكى انه دخل — فى ايام نور الدين الى حلب — تاجر موسر ، فمات بها ، وخلف ولدا صغيرا ، ومالا كثيرا، فكتب بعض من بحلب الى نور الدين يذكر له انه قد مات ها هنا رجل موسر ، وخلف عشرين الف دينار او فوقها ، وله ولد صغير عمره عشر سنين . وحسن له ان يرفع المال الى الخزانة الى ان يكبر الصغير ، ويرضى منه بشيء ، ويمسك

الباقي للخزانة . اكتب نور الدين على الرقعة : اما الميت فرحمه الله ، واما الولد فانشاه الله، واما المال فثمره الله ، واما الساعي فلعنه الله . وهذه الحكاية مثل من امثلة عدة ، مفادها اخذ امور الناس بالعدل في حزم ، والانصاف في عزم .

شجاعته وحسن رايه :

كان مضرب المثل في ذلك ، فقد كان اصبر الناس في الحرب ، واحسنهم مكيدة ورايا ، واجودهم معرفة بامور الاجناد واحوالهم . ويقال : انه لم ير في زمانه على الفرس احسن منه ، كانه خلق عليها ، لا يتحرك ، ولا يتزلزل . وكان يباشر الحرب بنفسه ، وكان يقول : قد تعرضت للشهادة غير مرة فلم ارزقها ، ولو كان في خير ، ولي عند الله قيمة لرزقتها ، والاعمال بالنيات .

قال له يوما القطب النيسابوري الفقيه الشافعي : بالله يا مولانا السلطان ، لا تخاطر بنفسك وبالاسلام والمسلمين ، فانك عمادهم . فلو اصبت في معركة ـ والعياذ بالله ـ لا يبقى من يقوم مقامك ، ولا يبقى من المسلمين احد الا اخذه السيف، وتؤخذ البلاد . فقال : يا قطب الدين اسكت ، فان قولك هذا اساءة ادب على الله . ومن محمود حتى يقال له هذا ؟ قبلي من حفظ البلاد ؟ ذلك هو الله الذي لا اله الا هو . فبكى من كان حاضرا .

قال ابن الاثير : ومن احسن الآراء ما كان يفعله مع جنده ، فانه كان اذا توفي احدهم وخلف ولدا أقر اقطاعه عليه ، فان كان الولد كبيرا قام بنفسه ، وان كان صغيرا رتب معه من يتولى امره الى ان يكبر . فكان الاجناد يقولون : هذه املاكنا يرثها الولد عن الوالد ، فنحن نقاتل عليها ، فكان ذلك سببا عظيما من الاسباب المقتضية للصبر في المشاهد والحروب . وما كان يكل الجند الى الامراء ، بل يتولاهم بنفسه ، ويباشر خيولهم وسلاحهم مخافة ان يقصر الامراء في حقهم ، ويقول : نحن كل وقت في النفير ، فاذا لم يكن اجنادنا كاملي العدة دخل الوهن على الاسلام .

واما هيبته ووقاره فكان كما قيل : شديد في غير عنف ، رقيق من غير ضعف . واجتمع له ما لم يجتمع لغيره ، فانه ضبط ناموس الملك مع اجناده واصحابه الى غاية لامزيد عليها . وكان يلزمهم بوظائف الخدمة الصغير منهم والكبير . ولم يجلس عنده أمير من غير امره له بالجلوس ، الا نجم الدين ايوب والد صلاح الدين يوسف . واما ما عداه كاسد الدين شيركوه ، ومجد الدين بن الداية وغيرهما فانهم كانوا اذا حضروا عنده يقومون الى ان يامرهم بالقعود. وكان مع هذه العظمة ، وهذا الناموس ـ اذا دخل عليه الفقيه او الصوفي يقوم له ، ويمشي بين يديه ، ويجلسه الى جانبه ، كانه اقرب الناس اليه ، وكان اذا اعطى احدهم شيئا يقول : هؤلاء لهم في بيت المال حق ، فاذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا . وكان مجلسه كما روي في صفة مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم : حلم وحياء ، لا ترين فيه الحرم . هكذا كان مجلسه لا يذكر فيه الا العلم والدين ، واحوال الصالحين ، والمشاورة في امر الجهاد ، وقصد بلاد العدو ، ولا يتعدى هذا .

وكان معتنيا بحفظ أصول الديانات ، ولا يمكن احدا من اظهار ما يخالف الحق ، ومتى اقدم مقدم على ذلك ادبه بما يناسب بدعته . وكان يبالغ في ذلك ، ويقول : نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق ، والاذى الحاصل منهما قريب ، افلا نحفظ الدين ، ونمنع عنه ما يناقضه ؟! قال : وحكى ان انسانا بدمشق يعرف بيوسف بن ءادم ، كان يظهر النسك والزهد ، وقد كثر اتباعه ، اظهر شيئا من التشبيه ، فبلغ خبره نور الدين ، فاركبه حمارا ، وامر بصفعه ، وطيف به في البلد ، ونودي عليه : هذا جزاء من اظهر في الدين البدع . ثم نفاه من دمشق، فقصد حران واقام بها الى ان مات .

ـ يتبع ـ

القاهرة ـ د. عبده اسماعيل الطهطاوي

مستشرق إسباني يعلق على نشر كتاب "المن بالإمامة"

(كتب الدكتور جوان فيرنيت Juan Vernet مقالا بالاسبانية في حوليات الدراسات في العصر الوسيط Barcelona 1967 عن الكتاب التاريخي الهام كتاب « المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة » الذي نشره الاستاذ السفير عبد الهادي التازي في بيروت ، وقد احببنا ان نعرب المقال لفائدة قراء المجلة) :

عبد الملك بن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين . المنشور اصالة من مخطوط اكسفورد من الاستاذ عبد الهادي التازي . دار الاندلس بيروت 1964 \ 1383 ، 624 صفحة وخريطة واحدة .

هذا المؤلف لابن صاحب الصلاة ، مهم لمعرفة وجود (تأسيس) الموحدين في الاندلس ، وقد استفاد منه المؤرخون (المدونون للاحداث التاريخية) المسلمون الذين اتوا بعد ، والذين اشار اليهم الاستاذ التازي في المقدمة صفحات 69 — 86 اولئك هم :

ابن القطان — ابن خلدون — ابن عبد الملك — ابن الخطيب — ابن الابار — الجزنائي والمقري ، وفي عصرنا هذا اهتم به المستشرقون امثال :

دوزي — ليفي بروفنال — م. انتونيا — ا. غارسيا غومز — وخاصة هويس . وهكذا : فان مخطوطة اكسفورد تحتفظ بالجزء الثاني الذي يؤرخ الاحداث الجارية من سنة 554 \ 1159 حتى 569 \ 1173 ، أما الجزءين الاخرين الاول والثالث من المن بالامامة السابقة واللاحقة للتواريخ المذكورة قد ضاعا . وابن صاحب الصلاة هو وزير للموحدين ، وفي خدمتهم تجول في الغرب الاسلامي . ازداد حوالي 537 \ 1142 والمعلومات حول حياته قليلة : حيث خصص له ابن الابار بعض السطور القليلة ، ومهما كان الحال فان ذلك يسمح لنا بالاطلاع على امام عالم واسع الالمام بالاسلام (متمسك بدينه) ، كما يبين ذلك عنوان كتابه ، المقتبس من آية قرآنية 5 \4ر28 « ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم المة ونجعلهم الوارثين » تقلد منصب وزير الاوقاف (صاحب الصلاة) « انظر صفحات 15 — 11 من المقدمة، حيث يشير الاستاذ التازي الى المناصب الادارية الموجودة في المغرب حيث وردت كلمة صاحب » ، وقد مات حوالي 594 / 1182 كما هو معروف .

في المن بالامامة ، تتواجد كل الاحداث وتشير الى الوثائق الرسمية ، وتعطي تواريخ حول انشاءات الموحدين ، وتذكر نصوص ادبية وشعراء مثل حربون؛ وتسجيل الكوارث الطبيعية مثل الزلزال الذي دمر الدوخار Andujar في سنة 565 \ 1169 .. الخ.

فالمؤلف يكون قد بدا حوالي سنة 571 \ 1175 ، ومن جزئه الاول الذي يكون قد احتفظ بتشابه مع كتاب آخر لابن صاحب الصلاة ضائع اليوم .

وهذا المؤلف الاخير هو الذي ذكر تمرد ابن قسي والمريدين ضد الموحدين والنص كما نعرفه الان له فائدة كبيرة بحيث حدثنا عن حياة ابن مردنيش ضد الموحدين كما رآها ورواها شاهد عيان ، قد خبر بالحوادث التي تذكر تواريخها حسب الكتب المسيحية والمسلمة ، اضافة الى ان تاريخه يختلف . احيانا مع المؤرخين الاخرين مثل عبد الواحد المراكشي .

وملاحظات الناشر الكثيرة منها والخاصة به ، كان عملا عظيما بنير الموسوعة الشرقية ـ هناك الشعر لابراز تاريخ آثار محددة ـ والجزء الثاني من النص المنشور ، اى ابتداء من صفحة 368 (خبر حول فرناندو ، كلاجيء سياسي بين الموحدين 563 \ 1167) يعطي اهمية كبرى للعلاقات مع اسبانيا المسيحية ، ولقد جلب انتباهنا الكتابة الظريفة حول مطاحن الهواء الموجودة فى جبل طارق (صفحة 62 من المقدمة ، 142 من النص) اذا لم نكن مخطئين ، فان هذه المساله ترجع الى وقت سابق ، والاشارة فى الاسلام نفسه الى خبر المسعودي حيث التعرض لمقتل « عمر بن الخطاب » ومن الرد الذي اورده « كارو باروخا » Caro Baroja فى « مجلة الدياكتولوجية والتقاليد الشعبية » 8 ـ2 ـ 1952 وفى نفس ترتيب الافكار ، تجب الاشارة الى الفقرة 4 من صفحة 64 الذي يذكر النظام (الترتيب) الميكانيكي المستعمل لتركيز المقصورة Maqsûra او التعاليق حول انشاءات اشبيلية ، التي يتبع فيها الجانب الاكبر ماشور انتونيا M. Antuna فى اشبيلية وآثارها العربية .

حقيقة انه جزء هام من المقدمة خصص لشرح التنظيم الاداري للامبراطورية الموحدة ، حسب ما يلاحظ من نص ابن صاحب الصلاة ، الملاحظات الوارده حول الخدمة الرسمية للبريد (صفحة 64 من المقدمة و 129 من النص) تبقى واضحة جدا (ص 162 من كتاب مكي) ولكنه قد تكون كاملة بالتواريخ الظاهرة فى وثائق جنيزا Geniza (القاهرة) التي عرضت من قبل س . د . كورتين ، ونشير فى الاخير الى ان فى الصفحات 411 ـ 417 يظهر فى قصيدة Casida ابن طفيل المدروس من قبل اميليو غارسيا غوميز فى « Riel » 1 (1953) والتي يشار فى آخر الصفحة التي اقرها استاذ العرب الاسبانيين .

جوان فيرنيط



لحظات مع ابن مالك

للأستاذ محمد بن تاويت

كان ابن مالك احدى الشعل العلمية التي ظهرت في العصر الموحدي ، وبرزت في علوم اللغة خاصة ، ابتدات بابن مضاء القرطبي وتوسطها ابو موسى الجزولي وابن معط الزواوي تلميذه ، وانتهت بابن مالك فابن ابي الربيع الاشبيلي .

لقد هاجر ابن مالك عن وطنه ، بعدما شاهد الحال الذي انتهى اليه الاندلس ، وقد مني بموقعة العقاب المشؤومة التي دارت رحاها على الموحدين قرب مدينته «جيان» ، وهو في سن التاسعة او دون ذلك ، فغادر وطنه ، عالما من العلماء وفقيها مالكيا ، كما يذكر اصحاب التراجم ، وانتقل الى الشام التي كانت آنذاك تجذب نحوها رجال المغرب والاندلس ، من مثل ابن معط وابن عبرون ، اللذين كان لهما شأن مع ابن مالك كما سيأتي .

وكان ابن مالك يمثل الفكر الموحدي المتحرر ، فهو في نحوه يخرج عن مدارس البصريين والكوفيين ويجتهد حينما يرى ذلك حتما لازما ، وهو في مذهبه الفقهي يتخلى عنه ، وينتقل الى المذهب الشافعي ، حينما راى ذلك واعتقده فكان كالشافعي المتحرر من مذهب الى مذهب ، وكابن حزم كذلك ينتقل من مذهب الى آخر ، ولكنهم جميعا ، لا ينتقلون الا والراى قد املى عليهم هذا الانتقال والشخصية الذاتية المكتملة قد تحولت بهم من مجرى الى غيره . كل ما هنالك ان الشافعي وابن حزم انتهيا الى مذهب استقلا به ، بينما ابن مالك لم يكن مؤهلا لهذا الاستقلال ، فانتهى عند الاختيار دون الابتكار .

وعلى كل حال فيهمنا التحرر في اللغة والنحو ، وهو ما نعنيه من ابن مالك ، وما عناه هو كذلك ، ولم يدع غيره ، مطلقا .. ولم يكن ابن مالك من أولئك المكثرين من الاخذ عن الشيوخ . ففي الاندلس خاصة ، لا نعرف ممن اخذ عنهم فيها ، الا رجلا اشتهر بالقراآت ولم يشتهر بالنحو ، وان كان هذا شديد الاتصال بها ، وهو ثابت بن خيار او ابن حيان . اما الذين اخذ عنهم بالمشرق فلا يتعدون ثلاثة ، احدهم اندلسي الاصل ، وهو ابن عبرون السالف الذكر ، واثنان مشرقيان ، هما ابن يعيش وابن الحاجب .

ويبدو ان ابن مالك ، لم يكن من تلاميذ هؤلاء بالمعنى الدقيق ، وكل ما هنالك انه اخذ عنهم بعض المسائل ، ولهذا نجده ينعت بعضهم ، وهو ابن الحاجب ، بكون هذا قاصرا في النحو وانه لم يأخذه عن المبرزين فيه ، كما سترى ...

وعليه يكون ابو حيان على حق حينما يدعي ان ابن مالك لم يكن له من الشيوخ من يعتد بهم ، وان كان الناس قد انتقدوا ذلك عليه ، ومن اوائلهم ابن رشيد السبتي .

لقد كان ابن مالك كثير القراءة عظيم الحفظ ، فهو مكب على هذه القراءة ، حتى ولو كان في نزهة مع اصحابه ، وهو اعجوبة في حفظه ، لا ينقطع عنه الا بانقطاعه عن هذه الدار ، التي ودعها بحفظ بضعة ابيات ،

من الشعر ، لفظ اثرها انفاسه الزكية ، وهو مع هذا وذاك منقاد اليه النظم مطواع له ، فينظم في سؤال بسائله ، منظومته « لامية الافعال » مجيبا صاحبه في الحين ودون أن يفترق عنه .

ويعتني بانتاج معاصريه ، فيشرح الجزولية ، بعد ما يدرسها ويتفهم مغازيها ، ويقرأ الالفية المعطية، فيحذو حذوها ، ويعترف بالفضل لصاحبها ، ويؤلف وينظم ، ثم يعود الى بعض ما الفه او نظمه فيشرحه .

وقد عدت تآليفه بالعشرات وقاربت الاربعين ، نظمها بعضهم كما في « بغية الوعاة » ، واهتم بذكرها اصحاب التراجم والتواريخ العربية والتركية . ومن هذه الاخيرة كتاب « اندلس تاريخي » المؤلف للسلطان العثماني عبد المجيد الاول ، والمنشور ما بين عام 1279 و 1280 .

ومن الغريب ان يذكر في هذا الكتاب ، ضمن مؤلفاته مؤلف يحمل اسم « الف ليلة وليلة » ، وسنقف عند هذا بعد .. لقد حظي ابن مالك في حياته ، بكثير من الاعظام والاجلال ، وهو كل ما حظي به في حياته ، اما بعد الممات فقد حظي بالخلود ؛ الذي طغا على غيره، ونسخ بكتبه كل آثاره ، سواء منها ما كان بالمشرق وما كان بالمغرب . ففي المشرق هذه الشروح للالفية بالخصوص صارت عمدة النحاة وعلى راسهم ابن هشام بكتابه أوضح المسالك ، وفي المغرب ، هذا المكودي، يدرس « الكتاب » لسيبويه ، بمدرسة العطارين ، فيحضر درسه طالب بربري ، يحمل اليه الالفية ، وعليها شرحان ، من المشرق ، لابنه والمرادي ، فلا ينظر اليها المكودي ، حتى تبهره فيسرع الى وزير الوقت ويطلعه على هذا الكنز ، فيشير عليه هذا بشرح الالفية ، فيشرحها شرحين ، ويكب عليها ، فيكون آخر عهده بالكتاب لسيبويه بل يكون آخر عهد المغرب به ، كما كان آخر عهد المشرق به .

ومن الغريب ايضا ، أن يكون قاضي القضاة بدمشق ومفتيها ، ابن خلكان ، من هؤلاء المعظمين لابن مالك والذين كانوا في بعض الاحيان ياخذون بيده فيصحبونه ـ وقد أم بهم في « العادلية » ـ الى بيته ثم يرجع ، تعظيما له ، ومع هذا لم يترجم له في الوفيات ، واحسن من ترجمه السيوطي ولم يذكر احد من اصحاب التراجم العربية ، له « الف ليلة وليلة » فالغالب أن المترجم التركي التبست عليه الالفية بذلك، او انه ربما اطلع على « الف ليلة وليلة » اخرى ، لا نعرفها مطلقا ؛ فبالاحرى ان نعرفها لابن مالك ، الذي لم يكن هذا الميدان من ميادينه ، ان كان الذي فيها هو ما في « الف ليلة وليلة » الشهيرة من موضوع ..

ومهما يكن فان ابن مالك ، كان حظه من الدنيا قليلا ، ولهذا قيل فيه : « خرج من الدنيا ولم يتعلق باغراضها ولا ترطس سهمه في أغراضها » ؛ بل يقال انه لم يتمتع ببرور اولاده جميعا، فكان بدر الدين ابنه من المعترضين عليه ، حتى قالوا انه عناه مذكرا اياه بالبنوة ، في البيت من الفيته :

نحوله علي الف عرفا
والثاني «كابني انت حقا صرفا»

وانه عبر عن اله بآخر يليه فقال :

كذاك ذو التشبيه بعد جملة
« كلي بكا بكاء ذات عضلة »

ولكن هذا بعيد ، اذا علمنا انه الف الفيته لابنه تقي الدين اسد ، فيكون اذن هو المتبادر في الخطاب ، وكان اسد هذا مرضيا عنه محبوبا عند والده ، ولذلك الف له المقدمة التي نسبها اليه باسم « الاسدية » . ثم اننا نستبعد ان يكون اختلاف النظر في المسائل العلمية مدعاة للعقوق أو عدم البرور ، وان كان هذا يختلف باختلاف الازمان والاشخاص .

ولا يفوتنا بعد هذا ان نذكر ان ابن مالك تأثر ببعض نحاة المغاربة ، فقد شرح الجزولية للامام الجزولي المراكشي ، كما تعقب تلميذه ابن معط الزواوي الجزولي ، ولا يكون هذا التعقب ، بدون ما يكون له او به تأثر ، وهو نفسه يعترف بذلك فيقول :

وهو بسبق حائز تفضيلا
مستوجب ثنائي الجميلا

وفيما يتصل بمنظوماته ، فقد كانت له منظومات قصار في بعض المسائل ، لم تذكر بين آثاره العديدة التي وردت في كتب التراجم ، ومن هذه المنظومات القصار ، منظومة له ، في الفعل المعتل الفاء واللام ، في حالة الامر ، وهي :

اني اقول لمن ترجى شفاعته
ق المستجير قياه قوه قي قينا

وان صرفت لوال شغل آخر قل
ل شغل هذا لياه لوه لي لينا

وان وشى ثوب غيري قلت في ضجر
ش الثوب ويك شياه شوه شي شينا

وقل لقاتل انسان على خطأ
د من قتلت دياه دوه دي دينا

وان هم لم يروا راي اقول لهم
ر الراى ويك رياه روه ري رينا

وان هم لم يعوا قولي اقول لهم
ع القول مني عياه عوه عي عينا

وان امرت بواى للمحب فقل
ا من تحب اياه اوه اي اينا

وان اردت الونى وهو الفتور فقل
ن يا خليلي نياه نوه ني نينا

وان ابى ان يفي بالعهد قلت له
ف يا فلان فوه في فينا

وقل لسان قلبي ان سواك به
ج القلب مني جياه جوه جي جينا

واخيرا فقد عد ابن مالك من البؤساء ، ولهذا ترجمه الشهاب احمد بن علي الدلجي ، بين هؤلاء في كتابه « الفلاكة والمفلكون » كما ترجمه معاصر من المصريين ، في كتاب سماه « البؤساء » ، لا اذكر اسم المؤلف ، وان كنت ما زلت محتفظا ، بما ذكره له من مناجاة يقول فيها :

« اللهم لا اله الا انت ، سبحانك انت الفعال لما تريد ، لقد اسبغت نعمتك على قوم ، واوصدت باب رزقك في وجه آخرين ، لا اعتراض في حكمك ، ولا تبديل لكلماتك ، اللهم لقد اصبحت جميع مشاغل الحياة نافرة مني ، نازحة عني ، حتى صارت في نظري كالعدم ، بل هي والعدم سواء ولولا الامل الغريزي في الطبائع الانسانية : لما ذقت لذة العلم ، ولا ادركت سبيله ، ولكني تاقت نفسي لحب الرفعة ، فخسرت الراحتين معا ، ابتغي الدار الآخرة ، اللهم ارزقني نعمة الصبر ، واكتبني مع الشاهدين » .

هكذا يثبت صاحب البؤساء ، هذه المناجاة لابن مالك ، والعهدة عليه ، لان في اسلوبها ما يجعلنا نقف وقفة شاكة في نسبتها بنصها اليه .

توفي ابن مالك ، سنة 672 ، اي في السنة التي ولد فيها ابن آجروم شيخ النحاة في العصر المريني ، ورثاه بعضهم بشعر ذكر بعضه صاحب البغية ، كما ذكر آخر ابن رشيد في رحلته ، رحم الله الجميع ورضي عنهم .

تطوان : محمد بن تاويت





إفريقيا ... القارّة المسلمة

للأستاذ زين العابدين الكتاني

افريقية قارة المستقبل .. هذه هي القاعدة التي ينطلق منها الصراع الاستعماري منذ ان انتهى عهد الاستعمار ، واقرت الانسانية ضرورة محوه ، والقضاء على الاستعباد والاستغلال بصورة من الصور .. ولم يكن لهذا الاعتبار مكانته ، والمستعمرون يوقنون وثائق انتصار الشعوب الافريقية في معركة الحرية والتخلص ، في حين ظهر اعتبار آخر هو ان افريقية ستصبح قارة الاسلام ومنطلقه ...

وقد يكون ظهور هذا العامل عاديا بالنسبة للمسلمين من بعض الجوانب ، ولكنه مفزع لدول الاستعمار وحلفائها .. ولذا فان عددا من الباحثين الذين كرسوا حياتهم لدراسة الاسلام في افريقية وما يتصل به كانوا في الحقيقة يرون دائما ان الاسلام الذي قضى في فجر الدعوة الاسلامية على كل الخلافات والحروب القبلية وذوب كل الفواصل التي كانت تؤثر على الحياة العامة سيستطيع ان يخلص الافارقة من كل ما اصابهم من الاستعمار .. وسيخلصهم اليوم لانه ربط شعوبهم بشعوب العالم الاسلامي ، ولا بد ان لهذا الارتباط من اثر هام في حياتهم الفكرية والاقتصادية والاجتماعية .

ولهذا فان الشعور الذي تحسه افريقية اليوم وهي تواجه مشاكل مختلفة ومتنوعة ومن صنع عقلية واحدة ، وتعمل لهدف واحد ، هذه المشاكل وان كانت تبدو على مستوى الاحداث الدولية كانها احداث وقتية وتتسم بصورة من الصور فهي احداث في الحقيقة اذا ما اضفناها وحللنا اهداف مخططيها ، فاننا نجدها واضحة في العمق ، وتستقطب هدفا واحدا ، وتتحرك لغاية واحدة ... ومن هنا نجد ان هذه الاحداث هي همزة الوصل التي بقيت امام الاستعمار والاستغلال للاتصال بما كان يسميه بالامس بمراكز الانطلاق الامبراطوري .. وتلك هي سرية الوضوح الذي نلمسه في هذه المعارك .. ومن خلال احداثها وهذا ما يجعل قارتنا الثائرة ، المنطلقة نحو التخلص والحرية ، وهي تعيش في صراع يندر ان يوجد مثله في جهة اخرى من العالم في وقت توجد فيه منظمات دولية للحفاظ على السلم العالمي ، والتوازن الدولي ، واذا كان هذا الصراع الذي تعيشه اوربا هو في الحقيقة وليد حرب قائمة بين المعسكرين : الشرقي والغربي تستهدف الاولى كسب عطف هذه الدول ودخولها في اتجاهها الاديولوجي ، فان الثانية تستهدف الحفاظ على المكاسب الاستغلالية التي استولت عليها بالامس والاسواق الخارجية لدولها ، وذلك سر هذا الوجه المنحرف الذي تظهر به افريقية كل سنة ، ولهذا فان الصراع الذي تشهده البلاد الاسلامية هو صورة واضحة لهذا الصراع .. ويتجلى ذلك اكثر واوضح في القارة المسلمة الافريقية ..

واذا كانت الاحداث التي تعيشها افريقية هنا وهناك مصدرها الصراع الذي تشترك فيه المعسكرات والمنظمات التبشيرية العالمية التي تعتبر الاسلام الخطر الاكبر الذي يواجهها في افريقية بل اعنف من الشيوعية ، فذلك ما يجعل الاسلام والمسلمين يعيشون

هذه المعركة فى جميع نقط افريقية واليهم توجه اغلب هذه الثورات المعاكسة .. الشيء الذي يلتقي ايضا مع الصراع « الشرقي الغربي » فى حرب تهدف سلوكا معينا وهو ما يجعل الزمام يفلت للملاحظين والمعلقين والمتتبعين ، وما الاحداث التي عاشتها كثير من الدول الافريقية التي شهدت انقلابات خطيرة مضادة ومعاكسة فى الجوهر والعمق وخاصة منذ أواخر سنة 1964 لم الانقلابات المعاكسة لم تكن كما لم تسفر فى ظاهرها وعمقها الا انها صورة للصراع القادر .. ويتمثل ذلك اكثر وضوحا وابرز فى الاحداث التي شهدتها نيجيريا والتي انتصرت فيها الوحدة وهو شعار الاسلام بالنسبة لهذه الدولة .. باعتبارها عاملة فى نطاق الدعوة الاسلامية .. ومن اجل بناء الوحدة الافريقية بعيدة عن التيارات العابرة والخطط المرتجلة .. وتلك هي مصيبة هذا البلد حتى الان وهي تصارع دعوة الانفصال التي كان يرتكز عليها الاستعمار بالامس القريب عندما كان يحاول اطفاء شرارات الثورة الاستقلالية التي حولت الستراتيجية الغربية وقوضت الامبراطورية الاستعمارية .

واذا كان الاسلام هو دين افريقية الاول بل دينها المفضل .. الذي اختارته وانسجم معها ومع واقعها .. فان الذين درسوا الاسباب والعوامل الخفية التي ترتكز عليها الاختيارات التي جعلت من الاسلام الاختيار التلقائي والمنسجم مع افريقية من جهة ومع عقلية الافريقي من جهات متعددة ، سواء منهم المسلمون او الاجانب ممن لهم علاقة بالكنيسة من الذين لهم اهتمام زائد بنشاط البعثات الدينية المنظمة .. لحساب المسيحية على اختلاف مشاربها ..

وترتكز هذه العوامل فى :

1) ان الاسلام دين تلقائي لا يصارع النزعات ، ولا يواجه بالعنف واللف والقوة .

2) ان الاسلام كان دائما دينا متحررا سواء عندما هاجم المستعمرون افريقية ، او عندما انطلقت تقوض ركائز الامبراطورية، او عندما انطلقت الاتجاهات الاستعمارية الجديدة الضاربة فان الاسلام كان دائما هو الاختيار التلقائي الذي يضع حدا لكل حركةمناقضة.

3) كما كان الاسلام العنصر البارز والعامل القوي فى التقارب والتمازج الذي وقع بين افريقية الشمالية وافريقية الغربية. وهكذا وبالقياس الى النواحي السياسية والتجارية فان الجانب الديني يطغى وتتضح مؤثراته اكثر من الجانبين الاخرين ومن غيرهما .

لقد عبرت الجيوش المسلمة الاولى الصحراء الغربية من مصر الى داخل شمال افريقية فى عام 647 ميلادية ، اى بعد ست سنوات من فتحهم لمصر لا غير ..

ويبدو ان الحملات الاولى كانت مكونة من الجماعات القبلية التي دعمتها وحدات عسكرية منظمة من الجيش المسلم وبعد ان ضعفت قوة مقاومة البيزنطيين امام الفتح الاسلامي اخذوا يتوسعون فى تنفيذ خططهم التي كانت تتسم بشيء كبير من الطموح والانطلاق بالايمان والتوحيد .

على ان حركة الفتوح الاسلامية فى شمال افريقية ترتبط عادة باسم عقبة بن نافع الذي كان قد عين قائدا للجيوش العربية فى هذه المنطقة عام 663 م ، وفى الحقيقة فقد استطاع هذا الرجل ان يؤسس فى عام 680 م مدينة القيروان فى تونس .. المدينة التي ظلت العاصمة الادارية والعسكرية للانطلاق فى شمال افريقية خلال فترة فتوحات التوحيد .

فمن هذه المدينة تمكن المسلمون من فتح تونس، ثم مدوا نفوذهم ناحية الغرب لشمالي افريقية او بلاد المغرب لوقوعها الى الغرب كما كانوا يسمونها وقتا طويلا ومجهودا جبارا ، فقد كانوا يصادفون فى كل خطوة يتقدمونها كثيرا من الصعوبات لا لمقاومة البيزنطيين لهم ، فقد كانوا قد انزاحوا من المسرح امام قوة الفتح ولم تعد لهم قوة تخشاها الجيوش الاسلامية ، ولكن هذه الصعوبات كانت تأتي من البربر سكان البلاد الاصليين .

غير ان هؤلاء البربر بعد ان اختاروا الاسلام انضموا الى الفاتحين فى الحركة التي قاموا بها فى اسبانيا .

وعلى الرغم من انهم قد ظلوا محتفظين بشيء من نظمهم الاجتماعية الا انهم لم يدخلوا فى صراع مع اخوانهم فى الدين من العرب الذين قادوا حركة الفتح وبدا العرب بعد ذلك يتدفقون من الشرق فى اعداد ضخمة هائلة .

بل وكانت كل ثورة فاشلة يقوم بها البربر تؤدي دائما الى وجود المزيد من الامدادات البشرية العربية، وكان هؤلاء القادمون الجدد اما من القبائل التي وفدت من الجزيرة العربية او من الجيوش المرابطة فى كل من مصر وسورية والشرق .

وقد كان القادمون من هؤلاء يستقرون في القيروان وفي غيرها من المدن الاخرى التي اصبح العرب يمثلون فيها معظم السكان والتي اصبحت تشكل مراكز صبغ ابناء شمالي افريقية بالروح الاسلامية الصرف .

وكانت اللغة العربية لغة الحكومة والتجارة ، وهذا ما اضفى عليها الاهمية والاحترام فقد كانت كذلك لغة الدين ، ولغة القرآن ، الكتاب الذي حمله الفاتحون الى افريقية ومع انتشار الاسلام السريع في افريقية انتشرت لغة كتابة وتعاليم دينهم ، ولم يكن كل العرب الذين جاءوا الى شمال افريقية من الجنود والاداريين بل كان بعضهم من رجال الدين رحلوا الى هذه المناطق ليشرحوا للبربر تعاليم الدين الجديد واهدافه .. فيما جمل عدد هؤلاء الدعاة ابتداء من القرن الثامن فصاعدا يتزايد يوما بعد يوم بشكل ملحوظ ، كما اخذ نشاطهم يحرز نجاحا واسعا للغاية.

على ان هناك عنصرا آخر بين هؤلاء الفاتحين لا يصح اغفاله هنا ، واعني به عنصر التجار كان شمالي افريقية خلال الفترة الاولى من الحكم الاسلامي ، ولم تكن في الواقع سوى ولاية تابعة للامبراطورية العربية في الشرق نستطيع ان نتعرف فيها على النماذج المعروفة للجنود والاداريين ورجال الدين والتجار . ولقد وفد العنصر الاخير واعني به التجار من سورية والعراق وفي بعض الاحيان كان يفد ايضا من بلدان منطقة آسيا الوسطى ، وكانت التجارة التي يشتغلون بها تشمل كثيرا من السلع المختلفة ، وتتحدث بعض المصادر العربية الاولى في شيء من الاعجاب عن الغابات الواسعة لاشجار الزيتون التي كانت موجودة يومذاك في شمال افريقية كما يتحدث بعضها الاخر عن الجياد الاصيلة والابل القوية في هذه المنطقة ..

وكان الذهب من اهم صادرات هذه البلاد الى الشرق ، فقد كان يأتي من غربي افريقية وبالذات من المملكة التي كانت تقع عاصمتها يومذاك الى الشمال من نهر النيجر ، وكان التجار المسلمون الذين يفدون من بلاد ساحل البحر الابيض المتوسط يسافرون عدة شهور لكي يصلوا الى المراكز التجارية الكبرى في الجنوب حيث يحضرون الذهب من هناك .

ونستطيع ان نقف على كل شيء من معرفة مدى ما كانت عليه التجارة من ضخامة في هذه المراكز مما ذكره الرحالة العربي الشهير ابن حوقل الذي زار اودغشت في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي، واندفع التجار المسلمون ناحية الجنوب الى غربي افريقية ولم تأت الفترة الاولى من القرن الثامن الميلادي حتى كان هؤلاء التجار يسافرون فعلا بل ويستقرون كذلك ــ اما على انهم عملاء واما على انهم مشترون في مراكز الاسواق التجارية التي تقع جنوب الصحراء الكبرى ، فكانت الدعوة الاسلامية تدخل الى هذه المناطق في ركاب هؤلاء التجار العرب ، الا اننا لا نستطيع ان نغفل هنا التذكير الى ان البربر بعد ان دخلوا الاسلام كانوا انشط في نشر الدعوة الدينية في هذه المناطق ، وتركيز رسالة التوحيد .

وهذا ما يعني العلامة هو بيرديشان في كتابه : « الديانات في افريقية السوداء » حيث يقول : « **بأن جمهرة الدعاة كانوا من المغاربة** » وهو يعني بذلك القبائل المغربية التي انطلقت مع الفاتحين المغاربة الذين تحركوا في جميع نقط القارة من الفتح الادريسي الى عصر الدولة العلوية الشريفة ...

أضواء على المسلمين في افريقية

وحسب ما ذهب اليه العلامة هو بيرد ديشان فانه « لا يمكن ان نحدد بالضبط عدد المسلمين في اقطار افريقية » لان هذا العدد يزداد كل يوم لسببين :

دخول الوثنيين على شكل مجموعات كبيرة في الدين الاسلامي واقبالهم على مبادئه وانسجامهم مع بساطتها .

توالد المسلمين السود بشكل يدهش المعنيين بالدراسات البشرية خصوصا وان وسائل الوقاية تنتشر فيما بينهم بسهولة ..

واذا اعتمدنا على الاحصاءات التقريبية التي ظهرت في بداية عام 1960 نجد ان عدد المسلمين في افريقية هو كما يلي :

1) يبلغ عدد المسلمين في افريقية حوالي 117 مليون نسمة موزعين كالآتي :

ا ــ في افريقية البيضاء : 57 مليون نسمة .

ب ــ في افريقية السوداء : 60 مليون نسمة .

واذا عرفنا ان عدد سكان افريقية يبلغون 220 مليون نسمة نجد ان نسبة المسلمين تكون في المائة اكثر من نصف سكان القارة ، وهم لا يكونون هذه الاكثرية بالعدد فقط ، ولكن حتى بالنسبة للتوزيع

الطبيعي .. سواء بالنسبة للمسيحية او بالنسبة للديانات الاخرى الموجودة فى افريقية .. ومن الجدير بالملاحظة ان سكان هذه الاقطار وقوتهم فى الواقع لا تتمثل فى هذا العدد الضخم دائما ، وانما فى عصبيتهم وتكاتفهم ، تلك العصبية التي تظهر على شكل تنظيمات قبلية .

وبذلك يكون هذا الموقف قويا فى اساسه ، وعلى شكل طوائف صوفية .. فى تنظيماته دائما ..

ومما لا شك فيه ان الاستعمار عبر عن وعى الدولة المسلمة الذي كان يحتل الى امد قريب جل هذه الدول ، وقد عمل على ابعاد المسلمين عن الحياة السياسية واهل لذلك — بالطبع تحت عوامل شتى — عددا من الاشخاص غير المسلمين وغير الذين يمثلون هذه الاغلبية وهذه القوة..وهذا — كما يقول غير واحد من الزعماء المسلمين بافريقية — انوجه الحقيقي لاستمرار قيام حرب صليبية ضد الاسلام والمسلمين.

ولعل السبب فى نجاح هذه التجربة الاستعمارية المضادة هي ان المسلمين فى افريقية بصفة عامة وفى افريقية الغربية بصفة خاصة ارتكز اهتمامهم — وهذا بالوراثة — بالتنظيمات الصوفية التي ترتكز على الدعوة الاسلامية ، وخدمة التوحيد .. اكثر من اهتمامهم بالتنظيمات السياسية والاجتماعية التي انصب عليها المستعمرون القدماء والجدد وحتى المذاهب الفازية التي تسابق الاستعماريين فى افريقية قد ارتكزت على هذا المخطط كما نلمس ذلك فى تجربة اتحاد طنزانيا(1) وجنوب غرب افريقية .

جدول بيانـي

البلـد	السكان	المسلمون	المسيحيون
سيراليون	2.439.000	65 %	6 %
ليبيريا	1.200.000	18,5 %	7 %
ساحل العاج	3.010.000	55,5 %	12 %
الداهومي	2.505.000	60 %	19 %
مالي	4.745.000	90 %	1 %
فولتا العليا	4.054.000	55 %	اقل من 1 %

وعلى الرغم من كل هذه العوامل وغيرها — كما يقول العلامة سيتون (2) — فقد استطاع المسلمون فى افريقية ان يحافظوا على عقيدتهم الروحية ، بل ليس هذا فحسب وانما اخذ عدد المسلمين يتزايد بفضل ما تنطوي عليه تعاليم الاسلام من البساطة والمبادىء الانسانية السامية وهذا ما صرح به رجال التبشير انفسهم (3) فى حين يرى العلامة هو بيد ديشان (4) ان الاسلام كان له دور بعيد المدى جعله يرتكز على اسس قويمة وهذا ما يجعلنا نلمس اثرا واضحا فى تشكيل حياة الناس الاجتماعية والفكرية وفى احداث نوع من التطور الشامل الذي تجلت ابسط مظاهره فى خلق امبراطوريات قامت من غرب ووسط وشرق افريقيا وادت دورها فى طبع حياة الافريقيين بالطابع الحضاري المزدهر بل واتاحت لهم الفرص الكريمة للاتصال بالعالم الخارجي على قدم المساواة ، ولولا ان اطل الاستعمار بوجهه الكريه فى القرن الخامس عشر على افريقية على ايدي البرتغاليين والصليبيين ثم بقية شعوب اوربا بعد ذلك لكان للاسلام فى افريقية اليوم وضع غير الوضع الذي هو عليه الان ، ذلك لان الاسلام دين سمح بسيط يخلق فى اتباعه روح العزة والكرامة ، ويدخل فى حياتهم معنى الديمقراطية الاجتماعية الحق التي لا تعترف بتفاضل بين فرد وآخر الا على اساس من التقوى والعمل الطيب ، فليس للون ولا للحسب والنسب ولا للثراء المادي ولا للعنصرية ، ليس لكل هذه الاشكال فى نظر العقيدة الاسلامية ادنى اعتبار من اجل هذا ومن اجل غيره احب الافريقيون الاسلام كما احبته شعوب اخرى غيرهم واتخذوا من تعاليمه وقواعده اساسا لتنظيم حياتهم الاجتماعية .

وقد تحدث احد رجال الدين المسيحيين فى مجلة «الكريستيان سيانس مونيتور» فأوضح ان من سر العوامل التي ساعدت على انتشار الاسلام ومواصلة انتشاره حتى يومنا هذا تلقائيا وبالرغم من الجهود الجبارة التي يبذلها المبشرون المسيحيون ، وبالرغم ايضا من كل هذه الاموال الطائلة التي تنفق على حركة التبشير فى افريقية فان مسلمي افريقية يمثلون اليوم جزءا هاما من العالم الاسلامي وهم يتطلعون بعد ان تحرروا والقوا عن كواهلهم كابوس الاستعمار الاوربي الكريه يتطلعون الى اخوانهم فى كل مكان تطلعا منهم

1) كتاب « الديانات فى افريقية السوداء » .
2) طانجانيقا وزنجبار .
3) كتاب « شعوب افريقية الاسلامية » للدكتور حسن محمود .
4) صاحب كتاب « الديانات فى افريقية السوداء ».

الاسهام بدور ايجابي في مجال التعاون الاسلامي العالمي بالخصوص .

الى اين يسير الاسلام فى افريقية ؟

لا نبالغ اذا قلنا ــ وهذه هي الحقيقة ــ ان الدين الاسلامي يعيش فى افريقية ظروفا متناقضة للغاية ، ويتمثل هذا التناقض فيما يلي :

اولا : انه الدين الذي تحيط به المكاره من كل جهة ، وتعمل المسيحية ــ بكل اسف ــ حتى الان على منافسته ومصارعته وهو الاعزل فى كثير من الجهات التي كان ينبغي ان يكون له السلطان فيها ، وهي القوية فى كثير من الجهات التي لا يمثل فيها معتنقوها الا بنسبة ضيئلة قد لا تصل الى تسعة فى المائة ..

ثانيا : انه ابتلى فى ابنائه بمن تمذهبوا بمذاهب سياسية يضيفون بمواقفهم المتناقضة الى الحملات الاستعمارية ضد الاسلام حملات عقائدية جديدة .. تخدم خصوم الاسلام والمسلمين .

ثالثا : الارتكاز من طرف الخصوم على ان الاسلام ينطلق تلقائيا فى مختلف جهات افريقيا فيكون بذلك صراعا حادا للمبشرين ومن على شاكلتهم .

واذا كان الاسلام كما يقول الدكتور فيليب رفلة هو الدين الذي ينتشر بسرعة وقوة ، فى غرب افريقيا اكثر من اى دين آخر فانه ينتشر كذلك فى سائر القارة الافريقية وذلك راجع الى ان الاسلام دين سهل ميسر وهو لم يصل الى افريقيا عن طريق غزاة مستعمرين . هذا الى ان احكام الاسلام سهلة ترئم الحضارة الانسانية مع البساطة ودون تعقيد .

والاسلام دين تشريع ودين معاملة فضلا على انه يحض على المساواة وييسر فى تعاليمه فهو له تشريع فى الزكاة والتوريث والزواج والطلاق مما يتلاءم واحوال الافريقيين ونظمهم الاجتماعية ، وكما يتواءم مع القبائل التي تعيش على الفطرة ، يتواءم مع سكان المدن واصحاب الحضارات على السواء ..

والحقيقة ان المسلمين قد امتزجوا مع السكان الاصليين وتصاهروا معهم فكان الاختلاط اندماج وامتزاج ، وليس اختلاط استغلال واستعلاء مما جعله مدعاة الى تقوية الوحدات السياسية وتطور الحضارة ، الامر الذي كان يخيف المستعمر الاوربي فيعمد الى الدس والتفرقة ، وامام هذه العوامل الطبيعية والمؤثرات التلقائية التي تنسف كل الخطط المدبرة والقواعد المبثوثة هنا وهناك يندهش خصوم الاسلام سواء منهم رجال الدين او الاستغلاليون الذين احسوا منذ 1964 ان التحالف الاستعماري الصليبي اصبح ضدهم هم انفسهم . وهذا ما جعلهم يعتقدون دائما وجود الاسلام فى افريقية معناه **وجود الحضارة فى افريقية مما يهدم ادعاء بعدم وجود حضارة فى افريقية سابقة على استعمارهم** والسبب كما لمسوه بسيط وهو ان الاسلام قد انتشر لانه يتسم ببساطة الوحدانية كما انه دين يتفق مع نزعات التحرر والمساواة فلا تفرقة عنصرية ، ولا فضل لاحد على آخر الا بالتقوى، وكان الدين سبيلا الى الوحدة ضد الاستعمار ، وكان انتشار لغة القرءان باعثا على ايجاد وسيلة للتفاهم ، فلا خلت المفردات العربية فى اللهجات الافريقية كما فى لغة السواحيلي ولغة الهوصه ، وكان اداء فريضة الحج ، عاملا للربط والتفاهم ، فكان الحاج يمر بشمال افريقية او شرقها فيتعرف على اهلها ويتفهم تيارات الفكر الديني ، فانتشر فى غرب افريقيا كما انتشر فى سواحلها الشرقية والغربية والشمالية والجنوبية وبين دولها وقبائلها .

وكان للاسلام فضل كبير فى توحيد كثير من القبائل ، وفى اذابة كثير من الحدود العنصرية ، وفى القضاء على عدد عديد من الخلافات التي عاشت دهورا وازمانا . وها هو اليوم الاسلام يخوض معارك ضد الانفصال والعنصرية ، وضد التجارب العرقية التي تقوم بها دول استعمارية خطيرة فى موزنبيق وانغولا مثلا ..

ولقد جند المستعمرون على اختلاف اتجاهاتهم جيوشا من الخبراء والعلماء والباحثين فتأكد لهم ان الاسباب المباشرة لاعتناق الاسلام فى دول افريقية ترتكز على اعتبارات طبيعية تدهش حتى الدعاة المسلمين انفسهم . وهذه الاعتبارات تؤكد ان :

1) قيام التعاليم الاسلامية على مبدا المساواة بين الناس .

2) محاربة هذه التعاليم للاسترقاق وعدم تفرقتها بين الابيض والاسود .

3) بساطتها .

4) كون الدول التي تعتنقها ليست دولا استعمارية او اوربية .

ولذلك فهم يجمعون على ان انتشار الاسلام على الشكل الذي يجري الان يعني قيام حضارة فكرية اسلامية حقيقية ، لان اكثر الافارقة ضعيفو الاطلاع

على التراث الاسلامي ، وهم يفهمون الدين كشعائــر وتقليد فقط .

ومهما يكن فان القبائل الافريقية لا زالت تدخل كل يوم في الدين ، وان الاســلام يزحف بقوة نحــو الجنوب ، وقد اسلمت مثلا قبيلــة ــ ديــولا ــ في الســودان منذ سنوات قليلة وهي تضم اكثر من 200 الف نسمة ، اما قبائل ــ المحاروصا والبهــل ــ في نيجيريا التي يبلغ عددها اكثر من عشرين مليون نسمة فقد اسلمت في القرن الماضي ، اما قبائل ــ ايــو ــ فهي تدخل الان في الاسلام تباعا بعد ان كانت تخاصمه بالامس القريب .

ويعمل الدعاة الساكتانيــون على التبشيــر بالديانة الاسلامية في جنوب نيجيريــا وغانــا الا في المناطق التي تتكلم اللغة الانجليزية ، بينما يبشر به مشايخ الطرق من المناطق الاخرى بصورة تنطلق معه كل يوم حركة جديدة .

ومن المهم ان نذكر بان هذه الطرق هي الحركة الناجحة لتنظيم المجموعات المسلمة بكل بساطة ..

ولكن ينبغي الانتباه الى حركات الاصلاح الدينية وخاصة في غينية ــ هذه الحركات التي تهدف الى ان يكون الدين عمليا وتطوريا وسلوكيا ، وهذا يشبه ما شهده الشرق عند ظهور الحركة السلفية منذ اكثر من ثلث قرن .

وتجد هذه الحركة خصومات متنوعة ، والسبب في ذلك انها تنطلق تحت شعار وطني ..

ومن خلال عدد من التجارب التي سبق الاطلاع عليها ، ومن خلال متابعة التطورات السياسيـــة في افريقيا وخصوصا بعد الصراع الجديد القائــم على اليمين واليسار . تأكد ان الحركة الاسلامية الجديدة في افريقيا مطالبة اليوم بستراتيجية جديدة ارى انها الضعف الذي يحسه الداعون الى التوحيد ، وهـــذه الستراتيجية يجب ان تقوم على :

اولا : مزج التنظيمات الاسلاميــة بالحيــاة الاجتماعية والسياسية والفنية .

ثانيا : ان يصبح الاسلام شعارا طبيعيا لكــل حركة يومية ، لان الاسلام ليس دين كهنوت بقدر ما هو سلوك يومي واخلاق ومعاملة .

ثالثا : يجب ان لا نكتفي بالدعوة الى الاسلام في المسجد وبالسبحة ، لان المجتمع لم يعــد مجتمــع البيت والعمل ، هذا بالاضافة الى مشكلة ما اصبــح يسمى اليوم بالوقت الثالث .

رابعا : ضرورة رهن امكانيات العالم الاسلامي وطاقاته في اطار الاسلام .. وقد اكد انعقاد اول مؤتمر للقمة الاسلامي ان الاسلام صالح ومتفق ، ويستطيع يواجه كل التحديات ، وله من القابلية والمرونة ما يضع حدا للقلق الذي يسيطر على الفكر الانساني الان، نتيجة الصراعات المختلفة .

جــدول تقريبــي

وفيما يلي جدول تقريبي لنسبـــة المسلمين في بعض دول افريقية اليوم باستثناء الدول العربية ودول المغرب العربي .

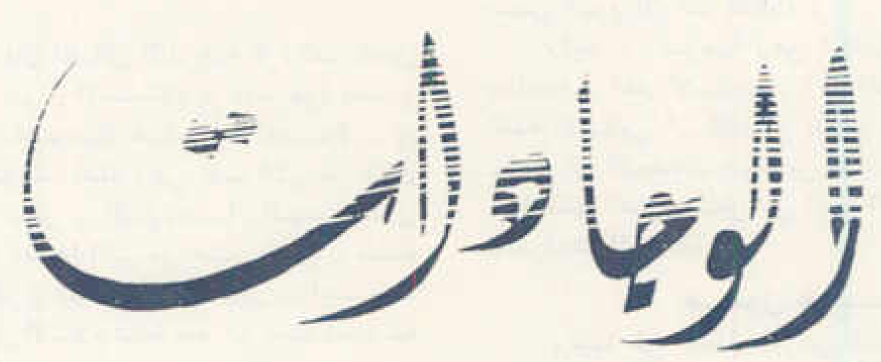
حاولنا بكثير من الدقة ان نستخرجها معتمدين على كثير من المراجع المهمة في الموضوع .

وهذه النسبة هي كما يلي :

البلــد	السكــان	نسبة المسلمين
السينغــال	3.670.000	٪ 95
غامبيــا	343.010	٪ 84
مــالــي	4.745.000	٪ 90
غينيــة	3.702.000	٪ 95
غــانــة	6.700.000	٪ 33 (1)
ليبريــا	1.207.000	٪ 31
سيراليــون	2.439.000	٪ 65
فولتا العليا	5.054.017	٪ 55
ساحل العاج	4.010.000	٪ 55
الداهومــي	2.505.000	٪ 60
الحبشــة	23.457.000	٪ 60
الصــومــال	2.660.127	٪ 100
التوجــو	1.724.300	٪ 61
نيجيــريــة	61.450.000	٪ 75
النيجــر	3.546.000	٪ 89
التشــاد	3.410.000	٪ 85
افريقيا الوسطى	1.459.000	٪ 60
الكاميــرون	5.470.000	٪ 55
الجــابــون	550.000	٪ 29
كينيــا	6.450.000	٪ 19,5
تنجانيقــا	12.173.000	٪ 61
زنجبــار	304.000	٪ 59

سلا : زين العابدين الكتاني

(1) الاحصائية ماخوذة من احصائيات الامم المتحدة باستثناء كينيا والكابون وزنجبار وغانا .



للأستاذ : عبد القادر زمامه

244 — الكنبوش ... ! والمنقوش .. !

وجدت في كناشة احد العلماء . وهو من تلامذة الشيخ ابي عبد الله محمد بن المدني كنون . يقول عن شيخه المذكور :

« وكان رحمه الله كثيرا ما ينشدنا في دروسه متمثلا بقول سيدي الصالح بن المعطي رحمه الله :

والحب للكنبوش والمنقوش
يبدي عيوب المدعي المغشوش

« ويعني بالكنبوش النساء .. ! وبالمنقوش الدراهيم والدنانير » .

245 — جسد له خوار ... !

ووجدت فيها ايضا في هجو شاعر ... !

وشاعر صك المسامع صوته
وسرى له في الخافقين خمار
ان قيل صفه اقول فيه مشبها
فكأنه جسد له خوار .. !

246 — بما في يدي غيره ... !

وفيها ايضا :

وقالوا فلان جواد كريم
وان المكارم من طبعه
فقلت صدقتم . ولكنه
يجود بما في يدي غيره .. !

247 — جئته بما ليس فيه ... !

وجدت في مخطوطة كتاب « الوافي » لمؤلفه الشاعر الاندلسي صالح بن شريف الرندي :

« ومن المثل السائر . من مدحته بما ليس فيه فقد بالغ في هجوه .. ! وفي معناه قلت :

ما جوابه لمن مدحت بشعر
فجزاني جزاء وغد سفيه
اترى علة لذاك الا انني
جئته بما ليس فيه .. ! »

248 — في اعذار امير ... !

ووجدت في كتاب « الوافي » لصالح بن شريف الرندي ... قصيدة يمدح بها المؤلف ملك غرناطة . ويذكر فيها اعذار ولده الصغير ... ! وكان الاعذار يتم بعمل احد الذميين الذين كانوا مشهورين باحتراف ذلك في الاندلس ... ! وقد جاء في القصيدة :

« ايها الذمي الذي يعذره
أو ما ترهب بطش الاسد ... !
ويك غمض عندما تقطعها
قطعة احسبها من كبد ... !

وتأخر هيبة فانما الشـ
ـبل في المجز مثل الاسد

اترى المقراض يدري انه
فعله في الجلد لا في الجلد .. !

249 — فضح الغزالة .. ! و ... و ... و .. !

ووجدت في المخطوطة المذكورة ... انشد صالح ابن شريف لنفسه :

ومهفهف طاوي الحشى
خنث المعاطف والنظر

ملأ العيون بصورة
تليت محاسنها سور

فاذا رنا . واذا شدا
واذا سعى . واذا سفر

فضح الغزالة والحمامة
والغمامة . والقمر .. !

250 — بلغنا المنى ... !!!

وجدت في كتاب زاد المسافر لصفوان بن ادريس ... من شعر ابي بكر بن مغاور الشاطبي ... يصف احد قضاة زمانه ... بالاندلس ... ! ص 39

الحمد لله بلغنا المنى
لا حد في الخمر ولا في الغنا .. !

قد حلل القاضي لنا ذا وذا
وان شكرناه احل الزنى .. !

251 — الحكم والنقض ... !

ووجدت في زاد المسافر ايضا ... من شعر ابن مغاور الشاطبي المذكور (1) :

« لا تظنوا ابن بيش
في قضاه يرتشي ... !

انما الشيخ هلهل
فهو يصحو ويتنشي ... !

فترى الحكم غدوة
وترى النقض بالعشي ... ! »

252 — فاعجب لقوس جابري ... !

وجدت في كتاب كشف الحجاب لابى العباس سكيرج رحمه الله في الترجمة التي كتبها لعبد الحق الجابري ... وهو من الموسقيين المشهورين بفاس اواسط القرن الثالث عشر الهجري .. (2) وكان يعزف على « الرباب » ومن اجل ذلك قال فيه الشيخ حمدون ابن الحاج رحمه الله هذين البيتين :

« ان السماع لمقلة
انسانها في الجابري ... !

جبر القلوب بقوسه
فاعجب لقوس جابري ... ! »

253 — ... من سهام الحدق .. !

فيدرة الحجال لابن القاضي . في ترجمة محمد ابن قاسم التياني من اهل المرية ... قوله في نبات (القلقاس) (3)

اقلقاسة الروض هل تعلمي
لما انت مخلوقة كالورق

فقالت : خلقت لأرض الربى
اقي زهرها من سهام الحدق .. !

254 — يحتمل ... !

في درة الحجال : (4)

« سعيد المعروف بيحتمل ... ! ابو عثمان الفقيه القاضي بمكناسة ... ! عرف بيحتمل ... ! لكثرة تردد ذلك على لسانه ... ! »

---

1) انظر زاد المسافر ص 39 . وانظر عنوان الدراية ص 66 من الطبعة الاولى بالجزائر ...
2) كشف الحجاب الطبعة الحجرية ص 244 .
3) درة الحجال ج 1 ص 180 .
4) درة الحجال ج 2 ص 471 .

255 — يذهب نورها بالمغرب ... !

وجدت فى كتاب تعريف الخلف : (5)

« قال ابو اسحق الشاطبي فى انشاداته : حدثنا شيخنا الاستاذ العالم النظار ابو عبد الله الزواوي اكرمه الله .. ! قال : قدم شيخنا الامام الشهير ابو عبد الله المقري على مدينة فاس ... فى بعض المسائل ... ! فلما خرج بقصد الاياب . شيعه جماعة من فقهائها وادبائها ... وسألوه ان ينشدهم شيئا من شعره .. ! فارتجل هذا البيت الفذ ... !

شرق لتجلو عن فؤادك ظلمة
فالشمس يذهب نورها بالمغرب .!»

256 — كلما زاد انكماشا حلا ... !

وجدت فى مخطوطة محاضرة النديم للشاعر ابى عبد الله غريط فى وصف العناب « الزفزوف »

ابهج بعناب على الـ
ـشمرجان فى الحسن علا

ضد العجوز كلما
زاد انكماشا حلا

257 — اى معنى للاعادة ... !

وجدت هذين البيتين وهما من شعر العدل سيدي عبد المجيد العراقي المتوفى بفاس سنة 1338 هـ بما امره القاضي ابو عبد الله محمد الفلاق القرباوي القاضي بفاس الجديد ... ان يجعل (كناشا) لتضمين الشهادات ...

فلق الفلاق قلبي
بكنانيش الشهادة ...

فاذا كنا عدولا
اى معنى للاعادة ... !

258 — من لمزات ابن الخطيب ... !

وجدت فى احدى الكناشات هذين البيتين منسوبين للوزير لسان الدين ابن الخطيب ... وقد انشدهما بمدينة فاس ... ! التي آوته حيا وميتا ..!

لا تلمني على الدناءة انه
ما لقي قد سكنت الجزيرة .. !

ومررنا ببيتة ذات يوم
وشربنا مع الفويسي الحريرة

259 — صيد وقيد ... !

ووجدت فيها ايضا :

ومما انشد الامام سحنون لبعض تلامذته :

« العلم صيد والكتابة قيده
قيد صيودك بالحبال الموثقة

ومن الجهالة ان تصيد حمامة
وتدعها مع الاوانس مطلقة »

260 — حقه ان يسكتا ... !

وفيها ايضا :

ولابي عثمان الميورقي ... !

النحو زين للفتى
يكرمه حيث اتى

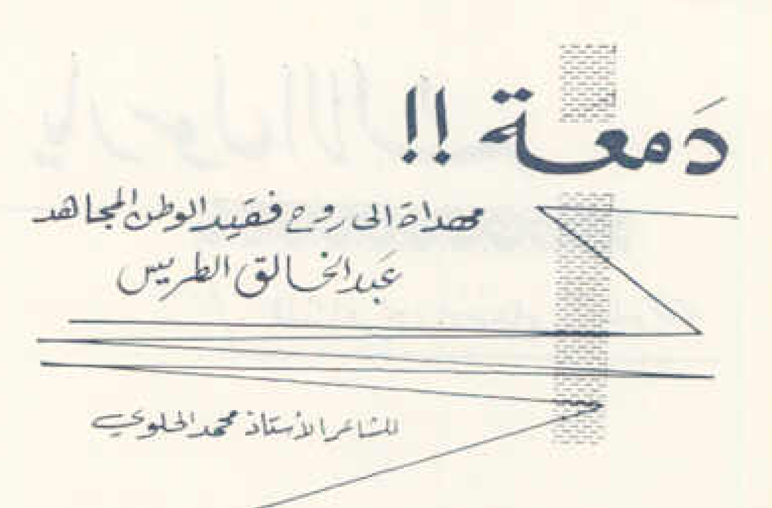
من لم يكن يحسنه
فحقه ان يسكتا ... !

فاس : عبد القادر زمامة

---

5) انظر ص 555 — الجزائر 1906 م .

ديوان المجلة



اسالوا الموت هل درى من اصابا ؟ ... اسالوه لو يستطيع جوابا

هل درى انه اطاح بعملا ... ق واردى طودا يداني السحابا ؟

نعيه كان للعروبة ماسا ... ة ويتما وللبلاد مصابا

اضرم الحزن فى القلوب واجرى ... كل عين وانساب فى الحلق صابا

فقد الشعب فيه ليثا هصورا ... عرك الدهر واستطاب الصعابا

والخطيب الذى اذا قال اما ... بعد هز القلوب والالبابا

والاديب الاصيل والصحفي الحر ... والقائد الذى لا يحابى

لكانني اراه يهدر كالرعد ... خطيبا يزلزل الاعصابا

والجماهير حوله هاتفات ... تنثر الورد والاغاني العذابا

قادها فى الشمال للنصر فانقا ... دت شيوخا وفتية وشبابا

ذعر الغاصبون يوم راوها ... خلفه ثائرات اسدا غضابا

اقسمت ان تخوض معركة النصر ... وءالت ان تطرد الاذنابا

يا عزيزا قد عز فى فقده الصبر ... وابكى الاعداء والاحبابا

ابلغ القول فيك ما كان ايجا ... زا ولمحا ولم يكن اطنابا !

انت دنيا يتيه فى افقها الشعر ... ويغري جمالها الكتابا

يا ضجيع التراب ! لم تبق من بعد ... ك الا خرائبا وترابا !

وحياة مليئة بالمآسي ... وانحلالا ، وردة ، وخرابا

سوف تبقى ذكراك فى كل قلب ... مثلا عاليا ، وعطرا مذابا

تطوان ـ محمد الحلوي

يارسول الاله

للشاعر محمد بن علي العلوي

نسخ الصبح بالسناء الدجيا … وطوى الفجر صفحة الليل طيا

اعباب من الاشعة اضحى … يغمر الكون دانيا والقصيا ؟

ام شفوف من الروائع نفت … بيهاها البديع كونا دجيا ؟

ام يد الفن حاكت النور ثوبا … من خيوط النضار تكسو العريا ؟

اهي الشمس مدت النور تحبو … منظر الكون رونقا وحليا ؟

ام بهاء من الغزالة القى … فوق دنيا الانام نورا وضيا ؟

ام تجلت كما العروس ذكاء … بسماها تجر ذيلا بهيا ؟

ام هي الشمس للهداية اضحت … تتخطى مدارها الفلكيا ؟

انها الشمس بالرسالة جاءت … تنشر النور والبها والرقيا

كم اراحت عن العقول سحابا … حجب الفكر ان يشاهد شيا

وازالت غشاوة عن عيون … ودنت للنفوس تجلو الصديا

البست امة العروبة مجدا … من بهاها ورونقا ابديا

يا لها من ذكاء عم سناها … واضاء القلوب يشفي الدويا

قد اطلت على الخلائق لما … شاءها الله ان تكون النبيا

قال كوني محمدا ورسولا … مرشدا هاديا سراجا مضيا

وانتقى للانام افضل هاد … واصطفى للرسالة العبقريا

فدعا القوم للاله فلبى … من هداه الاله نهجا سويا

واستجابت الى البشير قلوب … ،لانها هداية الله ضيا

يوم جاء الامين يدعو اناسا … حسبوا النصح والهداية غيا

واستلدوا جهالة وجحودا   واستطابوا ضلالة وحميا

عبدوا الصخر والحجارة جهلا   واطاعوا هواهم الوثنيا

واماتوا الوليد خشية فقر   واحلوا القمار والبابليا

كم فتاة كطلعة البدر حسنا   وادوها وما جنت قبل شيا

اقبروا غصنها الفتي كان لم   يك ذاك الدفين ينبض حيا

واراها قساوة القلب اولى   من يربها حنانه الابويا

اسكونها اللحود قبل وفاة   واذاقوا الحمام غصنا فتيا

يا لها من جهالة قد محاها   سيد الانبياء بهدي القويا

يوم جاء الورى باكرم دين   ينشر النور والاخا البشريا

فراى البغض والعداوة ممن   جاء يهديهم الصراط السويا

انكروا الشمس فى الضحى واداروا   لسانها القفا غباء وغيا

واباتوا لاشرف الخلق بغضا   واعدوا السيوف والسمهريـ

زعموا انه الذي يتقن السحـ   ـر وينشي القريض غضا طريا

فاذا الحق يصرع البغي لما   جرد البغي فى الوغى المشرفيا

ومحا الحق ظلمة الشرك لما   نشر المصطفى من الوحي ضيا

لم يكن سيد الخلائق الا   مرسلا بالهدى ينير الدجيا

لم يكن كاهنا ولا كان يوما   من سما الشعر يستمد الرويا

انما كان منذرا وبشيرا   وسراجا من الاله مضيا

قد اتى الناس بالديانة تسمو   بنفوس الورى مكانا عليا

يا لها من ديانة سوت النا   س فلا ميز بينهم عنصريا

كن كما شئت فالديانة سوت   عربي الانام والعجميا

انما الفضل للذي يتقي اللـ   ـه ويخشى عقابه الابديا

يا رسول الاله خلفت فينا   سنة بالرشاد تشفي الدويا

وتركت الكتاب يزخر بالنصـ   ـح ويهدي الورى صراطا سويا

قد تركت الذي اذا ما اقتفينا   نهجه نبلغ السماك العليا

ونشد الرحال خلف فضاء   ونزور السها ونرقى الثريا

اي داع عن العقول فولت   عن طريق الرشاد تتبع غيا

يا رسول الاله امتك اليو   م تعاني تقهقرا خلقيا

قد غزتها مذاهب ليس فيها   ما يضاهي طريقك النبويا

زودتها بها الاجانب تبغي   ان تراها تقدس الاجنبيا

فاحاطت بها مكايد قوم ... لم يريدوا لها من الخير شيا
نشروا الفسق والضلال وبثوا ... بينها اللهو والخنى والحميا
وغدت فى الشوارع الغيد تكسو ... نصفها دون ما حياء (منيا)
وأتتها من (الخنافس) أفوا ... ج تبث التدهور البشريا
علموها تقاعسا وسواها ... يجلب الصخر والثرى القمريا
اي شيء اصابنا فهجرنا ... منهج الحق والمنار السنيا ؟
أو نرضى البصيص والوحي فينا ... يبعث الرشد والضياء القويا ؟
قد تركنا من الحضارة لبا ... وافتتنا القشور نبغي الرقيا
ونبذنا مواعظ الدين نقفو ... محدثات الامور جهلا وغيا
ورأينا مفاتن العصر تغري ... فاستبقنا نقلد الاجنبيا
وابتعدنا عن المحجة نجني ... من سوانا تخنثا و (منيا)
فاكتسبنا ميوعة وانحلالا ... وحسبنا الرقي غنجا وزيا
ليت شعري أتستقيم عقو ... ل اطفات نورها كؤوس الحميا
قد ضللنا طريقنا بخضم ... والمنار المضيء ينشر ضيا
لو تبعنا هداه جاءت الينا ... امم الارض تستمد الرقيا
لو تبعناه ما سطا الذئب بالقد ... س ولا دنست خطاه الثريا
لو تبعنا سبيله وهداه ... لم نضيع تراثنا العربيا
لو تبعناه ما تفرق قوم ... رفعوا للانام راسا عليا
يا مليكا رأى التفرق داء ... اورث المسلمين ضعفا جليا
فدعاهم لوحدة الصف ينشي ... لعلى المسلمين صرحا قويا
وغدا مثل جده يجمع الشمـ ... ـل ويهدي العقول نهجا سويا
قد رأينا وفود قمة مجد ... لرباط العلى تحث المطيا
ورأينا بهمة منك جمعا ... برباط الفتوح ينشر ضيا
فعلمنا بأن فجرا جديدا ... اشرقت شمسه تنير الدجيا
يابن خير الورى تحية قلب ... يضمر الحب والوفا الابديا
هزه الشوق يوم مولد طه ... فغدا ينثر الجمان البهيا
يسأل الله ان تدوم وتحيا ... لحمانا كما تشاء قويا
عش مليك الحمى لامتنا العظـ ... ـمى تقوي رباطها الاخويا
وصلاة على المبشر تترى ... ما توالى الصباح يقفو العشيا

فاس : **محمد بن علي العلوي**

ذكرى وحي المولد المحمدي الشريف

للشاعر حسين شمس الدين
مفتي جباع

غمر الورى بالنور هذا المولد ... وسناه في هذا الوجود مخلد

نور اضاء الكائنات بأسرها ... لله مصباح الحياة الاوحد

اين الظلام واين آلهة الهوى ... قالوا اطل على الوجود (محمد)

يا خير مولود واكرم مرسل ... يا رحمة الله التي لا تنفذ

صدقت كل الانبياء بما أتوا ... وختمتهم دينا فانت السيد

عيسى ابن مريم قال عنك مبشرا ... بعدي لدين الله يأتي (احمد)

صدق المسيح وجئت نورا للورى ... هذا كتابك بالهدى يتوقد

اخرجت فيه العرب من ظلماتهم ... بعد الشقاء بهدي دينك اسعدوا

وبعثت من تلك الصحاري قادة ... نشروا حضارة عزة تتمجد

العدل والعلم الصحيح عمادها ... والحق في عرش الخلافة (ابجد)

في الشرق قد رفعوا منارات العلى ... والغرب في فردوسهم يستشهد

حتى اذا مالوا عن الخط الذي ... خط الرسول عن القيادة ابعدوا

تركوا شريعتك الطهورة وارتضوا ... شرع الهوى فهووا به واستبعدوا

نبذوا مباديك التي خلدتها ... وعلى مبادي شائنيك توسدوا

سقطوا من العلياء صرعى جهلهم ... وتفرقوا شيع الهوى وتبددوا

فاذاقهم سوء العذاب عدوهم ... فاستعذبوا عيش الهوان واخلدوا

هذي فلسطين السليبة تشتكي ... لله والزعماء لم يتوحدوا

والمسجد المحروق يصرخ اهله ... والمهد يبكي والخليل مهدد

وبنات صهيون الرواقص بالحمى   في مهبط الانجيل بئس المشهد

دايان والمائير في اقداسنا   داسوا الكرامة والشعائر افسدوا

اعطاهم الغرب الحقود سلاحه   والعرب في حل السلام تقيدوا

السلم عند الغرب نصر المعتدي   والحرب عند العرب سلم ارشد

من نام عن رعي القطيع وحفظه   فالذئب يفتك بالقطيع ويحصد

— ◆ —

يا امة الضاد الشهامة طبعكم   ادوا الفداء الحق لا تترددوا

عار صهاينة اليهود تذلكم   يا عرب للشرف الرفيع تجندوا

هبوا من التاريخ هبة خالد   وتذكروا (يرموككم) لا تقعدوا

بالامس في العرقوب من لبناننا   عشنا وقلنا نصرنا متأكد

وحدتم الصف الذي دحر العدا   فرح ابن مريم والنبي محمد

لكنه نصر صغير عابر   مهما خطبنا او تغنى المنشد

النصر كل النصر يوم هجومنا   حتى بناصرة المسيح تزغرد

هيا الى الزحف المقدس اخوة   للقدس توا واللواء موحد

والفتح عاصفة الفداء طليعة   تحي الكنيسة يومها والمسجد

حسين شمس الدين

مفتي البقاع

تحية جمعية المحافظة على القرآن الكريم

بمناسبة مضي أربعين سنة على تأسيسها

للأستاذ الشاعر أحمد بن شقرون

جمعية رشدت في الاربعين لها … بارشادها في الرشد برهان

يعينها الله والاسلام في عمل … وفي مساندة حب وشكران

ونية حسنت في جمع اسرتها … وسنة غرفوا منها وقرءان

محافظين عليه في تلاوته … وهم به وله في الجمع اركان

وفي المساجد سادات غطارفة … بالله قد وثقوا ، لله قد صانوا

هذا الكتاب يحاكي لفظه عسلا … وهم له مثل نحل فيه ادمان

ارواحهم علقت بالله فانجذبوا … لنوره ، فهم في الله اخوان

قدام جمعهم عقدا (1) وثانيه … للاربعين مضوا في : حيثما كانوا

في كل ليلة قدر يسهرون على … ذكرى الكتاب وهم في الحق اعوان

في همة ونشاط يعملون بما … يرضي الاله وفي التجويد فرسان

مدا وقصرا واخفاء ومظهرة … امالة ووقوفا فيه ارنان

ان خففوا برعوا وادغموا سطعوا … ترتيلهم بنير العلم ريان

— ◆ —

هو الكتاب عزيزا (2) معجزا وله … جواهر جمعتها فيه اكنان

بشرى (3) وصدق (4) ونور (5) جد مبلج … ذكر (6) وموعظة (7) روح (8) وفرقان (9)

---

(1) اول العقد من الاعداد : العشرة فالعشرون واخره التسعون

(2) وانه لكتاب **عزيز** ، فصلت : 41 .

(3) هدى **وبشرى** ، النمل : 2 .

(4) والذي جاء **بالصدق** اي القرءان : الزمر : 33 .

(5) وانزلنا اليكم **نورا** مبينا ؛ النساء : 174 .

(6) وهذا **ذكر** مبارك انزلناه : الانبياء : 5 .

(7) قد جاءتكم **موعظة** من ربكم ، يونس : 57 .

(8) وكذلك اوحينا اليك **روحا** من امرنا ؛ الشورى : 52 .

(9) «تبارك الذي نزل **الفرقان** على عبده» ، الفرقان : 1 .

هو الكتاب (10) كلام الله (11) تذكرة (12) ... بصائر (13) وبيان (14) فيه ايمان (15)

هو الشفاء (16) وحبل الله (17) حكمته (18) ... هو البلاغ (19) هو التنزيل (20) يزدان

واحسن القصص (21) الهادي لمتعظ ... اعظم (22) به نبأ يتلوه اقران

والقول فصلا (23) وحق (24) عروة (25) وثقت ... على الهدى والتقى والبر معوان

هو الصراط (26) قويما والهدى (27) قبسا ... والوحي (28) يجمعه للناس عثمان

هو البشير (29) وامر الله (30) يسعدنا ... هو النذير – وعلم (31) وفيه عرفان

هو الحديث (32) واحسن رحمة (33) وله ... في قلب قارئه روح وريحان

اسماؤه كثرت ، تسمو بقيمته ... كانها في حلى الاسماء عقيان

آياته (34) حسبت في الالف سادسه ... ونصف سابعه . عدا له شان

وبعده مائة والعشر تتبعها ... وستة ، فهو للتالين ميدان

وفي سنى «جمع» كالعيد زاهرة ... يدعو لمجتمع الخيرات ايذان

---

(10) حم **والكتاب** المبين ، الدخان : 1 – 2 .
(11) حتى يسمع **كلام الله** ، التوبة : 6 .
(12) وانه **لتذكرة** ، المدثر : 54 .
(13) هذا **بصائر** للناس ، الجاثية : 20 .
(14) هذا **بيان** للناس ، النساء : 138 .
(15) سمعنا مناديا ينادي للايمان ، ءال عمران :. 193 .
(16) وننزل من القرءان ما هو شفاء ، الاسراء : 82
(17) واعتصموا بحبل الله جميعا ، ءال عمران : 103 .
(18) حكمة بالغة ، القمر : 5 .
(19) هذا بلاغ للناس ، ابراهيم 52 .
(20) وانه لتنزيل رب العالمين ، الشعراء : 192 .
(21) احسن القصص يوسف : 3 .
(22) عن النبأ العظيم ، النبأ : 1 – 2 .
(23) انه لقول فصل ، الطارق : 13 .
(24) ان هذا لهو القصص الحق ، ءال عمران : 8 .
(25) فقد استمسك بالعروة الوثقى ، لقمان 22
(26) وان هذا صراطي مستقيما ، الانعام : 153.
(27) هدى ورحمة للمحسنين ، لقمان : 3 .
(28) انما انذركم بالوحي ، الانبياء : 45 .
(29) بشيرا ونذيرا فاعرض – فصلت : 4 .
(30) ذلك امر الله، الطلاق : 5 – 22 .
(31) ولئن اتبعت اهواءهم بعد ما جاءك من العلم ، الرعد : 37 .
(32) الله نزل احسن الحديث ، الزمر : 2 .
(33) قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ، يونس : 58 .
(34) اخرج ابن الضريس من طريق عثمان بن عطاءعن ابيه عن ابن عباس قال : جميع ءاي القرءان ستة آلاف ءاية وستمائة وستة عشرة ءاية ، (6616) الاتقان : ج 1 ص : 69 .

فيسرع المسلمون الصالحون الى ... فلاحهم ، وهم فى الله اخدان
وكلما سكت الجم الغفير وفي ... فم المجود ترتيل واتقان
رفت ملائكة الرحمان وانفتحت ... من القلوب مغاليق وشطئان
وانصت الناس فى فهم وقد سمعوا ... آي الكتاب لها فى الذوق امعان
اذا بدوا فى بيوت الله يجمعهم ... حب وعطف وتوفيق واحسان
سمت بهم همة الله فى مقة ... وكلهم باقتباس الخير جذلان
ووثقت « سجدات » كل متصل ... بربه ، قلبه بالله يقظان
وقد دعا فى خشوع طالبا فرجا ... وقد تقرب ـ والمطلوب ديان
وعاد بعد سجود سامعا كلما ... لم يستطع مثله فى السبك انسان
فشع فى عقله نور ، وفى فمه ... نور ، وفى قلبه نور ، وايمان
وجاذبت سور القرآن موعظة ... من مومن ، همه صفح وغفران
وعانقت فى سبيل الله اخوتها ... مثالهم يحتذى فى الفضل سلمان
وصافحت نفحات الطهر مشرقة ... وكلها للرضى المرجو عنوان
لم يجمع الناس فى بيت الاله سوى ... مآذن فوقها للحق « سحبان »
قفص باطنه بالمومنين وفى ... رحابه ازدحمت للخير ابدان
وكلهم للهدى ساع ليربحه ... وقصده هدف سام ورضوان
عقيدة رسخت فى قلب معتنق ... فلاح يظهرها للناس جثمان

— ◆ —

ان جلجل الصوت يتلو آي زازلة ... وساعة ، سال فى الآماق هتان
او آي مرضعة تنسى وليدتها ... او آي ربة حمل فيه خسران
تبلد الطبع خوفا من مؤاخذة ... ودون سكر كان الكل سكران
او آي موعظة تتآى بسامعها ... عن العناد ، الان الطبع اذعان
او آي تقوى تحض المومنين على ... خوف الاله . نزا فى القلب بركان
او آي ميزان اعمال تلابسها ... توقدت فى كيان الجمع نيران
او آي خوض الربى للربح عن عجل ... بدا لمرتكب منع وحرمان
او آي نبذ صلاة عد تاركها ... من الجناة ، سما بالسبك تبيان
او آي شارب خمر ليس يشربها ... فى جنة ، حلقه بالكلح ظمآن
او آي مظلمة للناس شائنة ... لم يعمل للمعتدي قدر ولا شأن
وجاء يوم حساب الناس مكتئبا ... وحظه من لباس الفوز عريان
لانه لم يكن للرفق مهتديا ... بل كان يعجبه سفك وطغيان

يعذب الله يوم الفصل من سفلت ... طباعه ، وهو للاخيار رحمان

من ساخ فى حمأة الويلات مرتطما ... قد كان فيه لكف الشر امكان

بأحسن الخلق الميمون طالعه ... قد شرفت برسول الله عدنان

وزارة عنيت « بالوقف » فازدهرت ... بغرسها فى بطاح « الوقف » اوطان

وفى مساجدها ما شئت من سعة ... كأنها لتقاة الناس بستان

تسعى لاصلاح ما قد رث جاهدة ... وسعيها لخلود المجد عمران

وللمساجد تشييد بناحية ... بها لقصد بيوت الله قطان

والامر من ملك جم العلا حسن ... لانه فى بحار الخير ربان

بمصحف الحسن الثاني وورنقه ... وخطه حسنا يمتاز سلطان

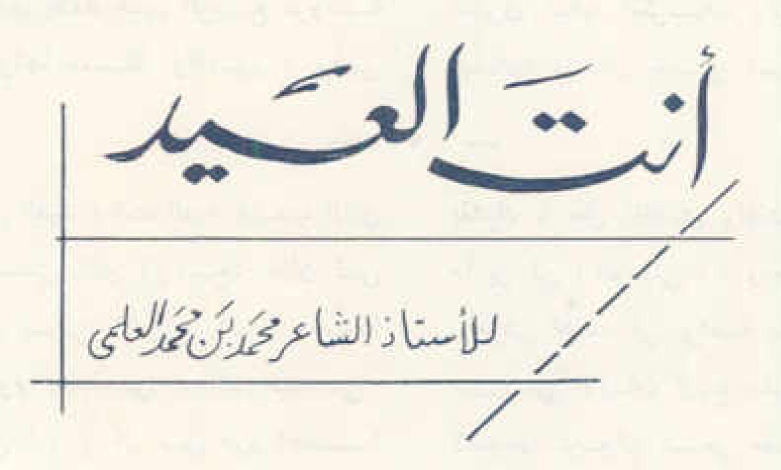
ادامه الله للعلياء يسندها ... وشبله ولي العهد الذى زانوا

خريدة رفلت فى الوشى رائعة ... قد صاغ مسبوكها فى العصر «حسان»

وصاحب العرش فينا مفرد علم ... ترنو له فى دفاع الشر تيجان

فاس ــ الحاج احمد ابن شقرون





ماذا عساني ان اقول لسيدي ... في عيده الزاهي البهيج الاسعد ؟
اني احبك ، والمحبة شرعتي ... وجلال تسبيحي ، وقبله معبدي
(حسان) عرشك ليس يكتم عشقه ... بل كان اسبق شاعر ومفرد
فالحب سلطاني المتوج بالهدى ... ولغيره ما كنت اسلس مقودي
والحب للعرش المجيد عقيدة ... فينا ، لغير ولائه لم توجد
وروائع الذكر الحكيم محبة ... والسنة البيضاء ذخر المهتدى
والحب صهبائي الحلال ونشوتي ! ... بالله يا نفسي بكاسك عربدي !

— • —

دين ودنيا في حماك توحدا ... والخير عنوان المليك الامجد
في كل شبر من بلادي ثورة ... بناءة ، وتلاوة في المسجد
في ملة الاسلام عشنا، اقويا ... ء ، ونحن لا نصغي لقول الملحد
(حسن) لانت من العباقر اول ، ... وهواك ملء قلوبنا والاكبد
ان الامانة والامامة دائما ... في سيد ، من سيد ، ولسيد
انت انفردت بما وهبت لامة ... من فضلك المتنوع المتعدد
ما انت الا نفحة قدسية ... هبت روائعها من الروض الندي
من جنة الهادي الامين تضوعت ... لتكون عنوانا لاشرف محتد
و (الخامس) الحر العظيم رعاك في ... نهج الهدى ، وحباك اعظم سؤدد
فعلى يديه تحررت أوطاننا ... وبدا للاستقلال أجمل مولد

هذي بلادك في ظلالك جنة   تزهو بولدان ، وغيد خرد
هذي بلادك في الربيع عروسة   تشري ثياب المكرمات وترتدي
وترابها مسك وكافور ، وفي   جنباتها ما فاق حسن العسجد

— ◆ —

في العيد ، انت العيد للشعب الذي   بفديك ، جل المفتدى والمفتدي !
الهمتني الفن الرفيع، فكان لي   ما بز فن (الموصلي) (ومعبد)
في برزخ الارواح كنت مفردا   بالعرش اهتف في براعة منشد
واليوم تسبقني لذاك طبيعتي   قاري من الآيات أروع مشهد
اني اود لو ان لي درر الفضا   لاصوغها ديوان شعر مفرد ،
في مدح عاهلنا الكريم وشكره ،   فالشعر في الابطال اعذب مورد
عطش القلوب بحبها متزايد   والعود فاح معطرا في الموقد !
ان التجاوب في انسجام قلوبنا   من حول عاهلنا ، فيا دنيا اشهدي!
والعرش توامنا ، ومصدر عزنا   والحصن ضد المفتري والمعتدي
والعرش جوهرنا البديع ، بفضله   نسعى الى العيش الاعز الارغد
والعرش يهدي خطونا بتبصر   في الحاضر الزاهي ، لنسمو في الغد
والعرش شرفنا لدى امم الورى   حتى تسابقتنا لارفع مقعد
والعرش حرر عقلنا وضميرنا   شتان بين محرر ومقيد !
نحيا في الاستقرار، في نعمائه،   ونعيش عيش تفتح وتوحد
في الشرق والغرب استحلت منارة   والناس بين معاضد ومؤيد
جددت عهد الراشدين، وكنت في   مجد على مر الزمان مؤبد
في نزل (هلتون) ، وبين رحابه   قد لحت في الاحرار احسن فرقد
تهدي العروبة نحو سامق عزها   وتعز في الآنام دين محمد
ان انس لا انسى (بجدة) ندوة   نزعت من الافكار كل تعقد
فاسال بباريس السياسة والحجى   لما تفتح كل باب موصد
واسال عواصم هذه الدنيا ، فما   فيها لعاهلنا سوى متودد
تلك العناية لن يحل بأوجها   الا عزيز في الجلال السرمدي
واسال بتازة او بوجدة امة   صاغت من الاخلاص اروع مشهد
واسال تلمسان التي بربوعها   قد طاب للاخوان نهج توحد
والمغرب العربي صان اخوة   للشرق في كسب المصير الامجد

انا نؤيد كل حب خالص   ونعاف كل شوائب العيش الردي

فى حضن دين الله نحن عشيرة   بالاؤها ابهى من الفجر الندي

خفقات افئدة العروبة كلها   تمتد فى الكون الفسيح الاوحد

وهداية الاسلام اوثق عروة   سدنا بها ، والدين دين محمد

— ◆ —

هذي (فلسطين) السليبة تشتكي   فى (القدس) بين مقتل ومشرد

(صهيون) غش واغتصاب صارخ   فاحت مخازيه بما لم يحمد

(صهيون) نازية تقلص ظلها   واهالها صوت الفداء المرعد

تلك القذارة مجها الاحرار فى   كل الشعوب ، وبئس نهج تمرد !

والبغي مرتعه وخيم فى الردى ،   والله ليس يحب سعي المفسد

مهما تطل للمعتدي من جولة   فبقاؤه بالظلم غير مؤكد

لا عز الا للاله ودينه   فى عدله المتمكن المتوطد

و(المسجد الاقصى) اذا ما احرقو   ه ففى العروبة غضبة المتوعد

فى دولة الاسلام جرح ثائر   فى ذلك الهول المقيم المقعد

للبيت رب قد حماه بجنده ،   والفتح مقترب لشعب مبعد

لابد من يوم الرجوع الى الحمى   بالرغم من غدر به متشدد

ما ضاع حق من ورائه طالب   يحمي حماه بالسلاح وباليد

فالسيف لم يغمد ، ليطلب ثاره ،   والنار تحت رمادها لم تخمد

هذي (فلسطين) الابية دينها   دين السلام الحق لم تتهود

ما النصر الا للفداء واسده ،   ولواؤه لسواهمو لم يعقد

— ◆ —

بك فتح الله البصائر فانجلت   وحباك مفتاح الطريق الموصد

لقد انجلت عنا العوائق فانبرت   منا العزائم للكفاح الابعد

ولنحن لا ننحاز ، اذ منهاجنا   تنمية فى حكمة وتجرد

وسياسة الاحرار ، سادت دائما   بتفاهم وتعاون وتودد

حسن الجوار عليه قد اوصيتنا   فلانت للاحرار اعظم معهد

يا حامي الدين الحنيف لانت فى   اوطاننا اوفى واصدق مرشد

لله درك فى الرعية كلها   من منعف لشؤونها متفقد

ترعى البلاد بهمة علوية ... وتشيد صرح المكرمات فتقتدي

علمتنا معنى الثبات وكنت في ... مسعاك رمز شجاعة وتجلد

في كل تصميم مسيرة امة ... للافيد الساعي لنيل الاجود

ومهارة الملك المكافح آية ... تسعى الى الانماء دون تردد

(فالى الامام، الى الامام!) شعارنا ... والويل للمتقاعس المتجدد

(من رام وصل الشمس حاك خيوطها) ... فاذا تخاذل عزمه لم يصعد

ان الضعيف مقامه في غربة ... بشقي يعيش في العذاب مهدد

وارى القوي لقد تقوم امره ، ... شتان بين مقدم وملهد

بالمعجزات لقد اتانا عرشنا ... ومثيله بين الورى لم يعهد

ولقد اتتنا البينات وهذه ... ءالاؤها (ربوعنا) لم تجحد

روح (ابن يوسف) اصبحت مسرورة ... جذلى هنا ، فكانه لم يفقد

في شبله تجد الكفاية دائما ، ... اكرم بعقد للكرام منضد

شهداؤنا (الابرار في جناتهم ... حمدوا المغبة بالنماء الجيد

والصبح اشرق في رياض بلادنا ... والليل ادبر بالقناع الاسود

— ◆ —

يا عاهلي عفوا اذا ما لم يكن ... شعري بتبليغ المشاعر مسعدي

عجز البيان فلم يحط بعواطفي ، ... فالعرش اصبح كعبتي وتعبدي :

علم واخلاق وحسن سياسة ، ... في حكمة وطهارة وتهجد

واذا بدت في العرش احسن قدوة، ... مضت الرعية في الطريق الارشد

يا ايها الملك الهمام تحية ... من قلب شعب مخلص، ياسيدي !

وخطاب عرشك في الصراحة والجلا ... ء كصارم جم المضاء مهند

وضع النقاط على الحروف، ولم يدع ... سرا خفيا في النضال المجهد

لله درك فالبلاد فخورة ... بذكائك المتوهج المتوقد

لك خصص التاريخ ملحمة ، فقد ... يروي لعهدك الف الف مجلد

ان المشاريع التي انجزتها ... كانت لهذا **الشعب اصدق موعد**

هذي المدارس كالرياض، ونشؤنا ... فيها يروح الى العلوم ويغتدي

وقلوبنا قد فجرت طاقاتها ، ... تزهو بعزم شبابنا المتجند

وسدودنا خيراتها لا تنقضي ... ببلادنا في خصبها المتجدد

(مليون هيكتار) وما ادراك ما ... تصميمها الساعي لاحسن مقصد !

حتى تعم بلادنا تنمية ... كبرى ، اليها بالبصائر نهتدي

فضل الفلاحة والسياحة والصنا ... عة والتجارة كان غير محدد

وبكل مضمار تضاعف جهدنا ... لنفوز بالحظ العظيم الاحمد

انا ، وقد وضح السبيل امامنا ... لا ننتهي ، بل نحن دوما نبتدي

ونرى فى الاستمرار سرا رائعا ... يرعى مكاسبنا بسعي سرمدي

عش يا مليكي للبناء ، منميا ... الشعب ، ترعاه بجفن مسهد

والله صانك للبلاد ومجدها ... واقر عينك بالامير محمد

وحمى بعرشك هذه الاوطان فى ... عز وامن ، فى السلام مخلد

الرباط ــ محمد بن محمد العلمي

حب الملوك

للشاعر المدني الحمراوي

بها قرت العينان وانشرح الصدر   فماذا رای من لم یر السحر فی «صفرو»

بدائع من حسن الحیاة کأنها   بشائر ءامال ، بها حصل البشر

نسیت بها همي ، ونلت من المنی   عرائس افراح بها یحلم العمر

وعشت بها یوما ویوما وثالثا   علی بها قد جاد ـ اذ اسعف ـ الدهر

فیا لیتها کانت زمانا مخلدا   ولم تنصرم فورا مباهجها الغر

فواها لایام عرفت صفاءها   هناك ، مجالیها منعمة خضر

تفیض بسلسال المسرة سائغا   تمازجه راح المحاجر والعطر

وتبدو بها للعین والقلب صورة   یروعهما منها بفتنته السحر

جمال الحسان والربیع قد استوی   تحییه أزهار ، وتشدو له الطیر

تعانق ذاك الحسن فی منظر زها   ورق کما رقت واشرقت الخمر

فورد خدود حول ورد حدیقة   وسحر جفون ظل یلحظه الزهر

وحسن ثغور درها متلالیء   یضاحکها فی کل منعطف نور

وسوق واعضاد فواتك بالحجی   ولا کنحور خیف من سحرها نحر

وجو ضحوك الوجه طلق کأنما   یخامره من راح بهجته سکر

ولیل کأن الشمس فیه مضیئة   اضاع به سلطان دولته البدر

مصابیحه بحر من الضوء غامر   کأن وجوه الغید فی قعره در

حیاة بها صار الزمان جمیعه   نهارا ، فلا لیل هناك ولا فجر

وجمع الوری من کل صوب کأنما   اطل بهم نشر ، ووافی بهم حشر

الى موسم الافـراح هبت وفودهـم   كما هب حجـاج ، وجد بهم سيـر

وبين حناياهم حنين وصبوة   الى متع عنها قد انعدم الصبر

توافوا الى الملقى جموعا غفيرة   يضيق بهم بر ، ويعيى بهم حصر

خلائق من اقصى بلاد اتى بهم   هيام ، واشواق لها فى الحشى جمر

دعتهم الى ارض الجمال صبابة   لها فى روابينا واطلسنا سر

مناظر من سحر الطبيعة لم تزل   يحبذها قطر ، ويحسدها قطر

وتنعتها دنيا تهيم بحسنها   وينقلها نثر ، ويرسمها شعر

هي السحر فى عين ، وفى الاذن نغمة   هي البرء من داء يضيق به الصدر

هي الراح فى اعصاب كل متيم   ولكنها شهد ، وليس لها عصر

مروج ، وغابات ، جبال ، شواطىء   صحارى ، وارياف ، واودية كثر

يطوقها بحران غربا ويسرة   وتكلاها شمس غلائلها تبر

— ◆ —

بلادي بها فخري على الناس كلهم   محاسنها غر ، مآثرها زهر

جمال وامجاد ، نعيم ، ومتعة   وشمس ، وثلج ، والمدائن ، والقفر

ولا كهواء فيه للنفس راحة   بطيبه راق الشط والسهل والوعر

وفاكهة للقلب فيها دواؤه   و«حب الملوك» فيه قد جمع الخير

لذيذ ، بهيج ، راق ذوقا ومنظرا   وتسطع كالياقوت حباته الحمر

جواهر تيجان ، فصوص خواتم   قلائد ان يظفر بها يسعد النحر

نفيس بأعلاق الملوك مشبه   له رتبة عليا تسامى لها قدر

فسبحن من سواه حسنا ونعمة   يذاع لها فضل ، ويغمرها شكر

تتيه به «صفرو» ، ويفخر اهلها   وحق لها تيه ، وحق لهم فخر

مواسمه فيها مواسم شهرة   لمغربنا ، ذاعت ، وطار لها ذكر

وصارت بها «صفرو» مباءة فرحة   وعيد بها يحيى وينتعش الفكر

تحج جموع الخلق نحوه كلما   ربيع الزمان الحلو وافى به شهر

فيا هائما بالحسن هيا ، فاته   بصفرو له دنيا يموج بها بحر

مناظر تستهوي عقولا فتنتشي   بفتنتها ، فى كل عام لها دور

الرباط ـ المدني الحمراوي

تهنئة صاحب الجلالة الملك المعظم
الحسن الثاني أيده الله
بمناسبة ازدياد مولوده السعيد

للشاعر محمد بن محمد العلمي

طالع السعد بالمنى وافاكا ، الف بشرى ! فالله قد اعطاكا

فرح الشعب كله بوليد شع يمنا ، مقبلا يمناكا

والاناشيد والزغاريد تترى والنوادي قد رددت بشراكا

والايادي ممدودة لعناق تنثر الزهر عاطرا بحماكا

والتهاني فاحت بطيب الاماني من شعوب الدنيا تؤم رباكا

والمصابيح فى جميع الحنايا قد اضاءت وهزت الادراكا

انت نور لنا ، وهدي وخير ونماء ، فنحن دوما نراكا

فى صميم الوجدان تبعث صوتا ابويا ، فنقتدي بخطاكا

يا زعيما وقائدا واماما فى بلاد للنصر تمضي وراكا

انت ارضيت من وفائك شعبا بمكين الولاء قد ارضاكا

انه الحب بين عرش وشعب آية منك اشرقت بسناكا

يا سليل الامجاد ، يا باني العز ، لقد فقت فى السمو السماكا

هذه درة تضاف الى العقد ، وتاج الاشراف قد واتاكا

عترة المصطفى اجل واسنى قبك ، والله فى الجلال رعاكا

انت شبل (للخامس) المرتضى من في ظلال القرءان قد رباكا

فانظر اليوم شبلك الغض فينا وهو عطر ونفحة من نداكا

واستمرار الاحفاد فى سيرة الاجداد عز تصونه علياكا

انت تزداد فى الخلود خلودا بنماء تزهو به دنياكا

فهنيئـــا بقـــرة العيـــن يا خيـــ ـــر مليك فى الظهر يحكي ملاكـــا

دم لمجد الاســـلام والعرب طـــرا ولتعش ، اننـــا جميعـــا فداكـــا

لو سالت القلوب منـــا لقالـــت : نحن نهـــواك ، هاهنـــا مثواكـــا

حفظ الله بيننـــا (ولـــي العهـــ ـــد) ، وللمجـــد دائمـــا ابقاكـــا

وحمى عرشك المجيـــد المفـــدى وبرضـــوانـــه الجميـــل كساكـــا

الرباط : محمد بن محمد العلمي



أثر الثقافة الدينية والأدبية في شعر الجراوي

للأستاذ محمد بن عبد العزيز الدباغ

ولد ابو العباس الجراوي بمدينة فاس سنة 528 هـ فتاثر بالبيئة الثقافية التى كانت تمثلها هذه المدينة فى بلاد المغرب حيث كانت تجمع بين الاتجاهين الادبي والديني فاعتنى بحفظ القرءان والحديث واهتم بدراسة التاريخ الاسلامي والسيرة النبوية وولع بحفظ الشعر والخطب والامثال واستفاد من من النهضة العلمية والادبية التى كانت ناتجة عن امتزاج الحضارة المغربية بالحضارة الاندلسية ءانذاك .

ولقد شاهد الانقلاب الخطير الذى اودى بدولة المرابطين فانسجم مع الاتجاه الجديد الذى يمثله الموحدون واصبح بسبب ذلك شاعرهم الذى يسجل بطولاتهم ويصور مواقفهم ويظهر محاسن خلافتهم وقد عرف عبد المومن بن علي قيمته فخاطبه فى جبل الفتح بقولته المشهورة : « انا نباهي بك اهل الاندلس يا ابا العباس ».

ان المنافسة الادبية بين المغرب والاندلس كانت محتدمة ايام المرابطين ثم زادت احتداما ايام الموحدين والسبب فى ذلك راجع الى الظروف السياسية التى كانت تمثل هذه الحقبة فان المغاربة كانوا يشعرون بنوع من التعالي الحكمي على الاندلسيين سواء عند تغلب يوسف بن تاشفين على ملوك الطوائف او حين تغلب الموحدين من بعده ولكن هذا التعالي الحكمي كان يقابل بتعال ثقافي من قبل الاندلسيين فلم يجد المغاربة بدا من العمل على خلق نشاط ثقافي داخل بلادهم يحاولون به اظهار قدراتهم الفكرية وكفايتهم الادبية وكانوا يستمدون طابعهم الخاص من شخصيتهم الواضحة التى تعتمد على الجانب البطولي من جهة وعلى الجانب الديني من جهة اخرى ودفعهم ذلك الى الاقتباس من مختلف الاتجاهات الادبية والفكرية سواء كانت شرقية او اندلسية او مغربية محضة . وكان الجراوي فى الحقيقة من اصدق الممثلين لهذا الاتجاه واصبح ادبه مرءاة تعكس صورة المجتمع المغربي وتبدي مناحيه الفكرية كما تصور الاتجاه العقائدي الذي كان يؤيده الموحدون ويومنون به .

وكان هذا الشاعر يمثل الطابع الديني فى تصويراته وخيالاته ويرهق شعره بالاستدلالات التاريخية والاشارات العامة التى تمثل ثقافته . وكان حريصا على ابراز عظمة الموحدين فخورا بالانتماء اليهم . ويظهر انه كان صادقا فى عاطفته لا يستغلها لاغراض سياسية اوانتفاعية وهذا هو السبب فى كونه ظل وفيا لآرائه رغم اعتدال يعقوب المنصور فيما بعد .

ومن اهم الخصائص التى تمثل الجراوي فى حياته قوة شخصيته فى الميدان الفكري والميدان السياسي معا ولو تتبعنا شعره لرأينا انه لا تتضاءل شخصيته امام ممدوحيه فهو فى ذلك شبيه بالمتنبي الشاعر الطموح كما لا تتضاءل عاطفته ازاء افكاره وءارائه بحيث تبدو قوية صادقة مؤثرة رغم مرور الزمن وتداول الايام .

ان الجراوي فى شعره الذى يصف فيه الفتوحات يحس بنشوة الظافر وبلذة المنتصر وتسمو روحه حتى يجد نفسه متصهرا مع الخلفاء الفاتحين كانصهار حسان ابن ثابت مع الرسول فى فتوحاته فلنستمع اليه يقول وهو يهنيء يوسف بن عبد المومن ببعض الفتوحات :

عن امركم يتصرف الثقلان
وبنصركم يتعاقب الملوان

وبما يسوء عدوكم ويسركم
تتحرك الافلاك فى الدوران

جاهدتم فى الله حق جهاده
ونهضتم بحماية الايمان

وتركتم ارض العدا وقلوبهم
فى غاية الرجفان والخفقان

وغزاهم الدين الحنيفي الذى
كتب الظهور له على الاديان

كتب الاله لكم فتوحا فى العدا
هذا لها وسواه كالعنوان

هذا مقام المصطفى يا فوز من
حاز النيابة فيه عن حسان

من يعرف الرحمن حقا يعترف
بحقوقه لخليفة الرحمن

ومن هذه القطعة الصغيرة يمكننا ان نلمح القوة فى شعر الجراوي كما يمكننا ان نحس بالشعور الديني القوي الذى يربط هذا الشاعر بحياة الرسول وايامه الغراء فهو قد جعل نفسه امام الخليفة بمثابة حسان امام الرسول صلى الله عليه وسلم يسجل فتوحاته ويكبت اعداءه ويرفع معنوية الجيش ويزين فى قلوبهم الاستشهاد .

وهذه القطعة فى الحقيقة تدلنا على ان الخليفة الموحدي لم يكن يكتفي بتهدئة الحروب الداخلية وانما كان يسعى الى الفتوحات القوية لنشر الدين الحنيفي فيدخل الرعب فى قلوب الاعداء ويتركهم فى غاية الرجفان والخفقان .

ومن ثم يمكننا ان نقول : « ان شعر الجراوي يعد مصدرا تاريخيا يمثل حياة الموحدين ويسجل مواقفهم الحاسمة فى تاريخ المغرب والاندلس ».

ان شعره يمثل لنا اهداف الدولة الموحدية اصدق تمثيل وهو صورة حية لطموح الموحدين ولرغبتهم فى خلق امبراطورية اسلامية لا تكتفي بالمغرب والاندلس وانما تضيف اليها دول الشرق عامة وقد تقدم لنا فى دراسة خاصة عن يوسف بن عبد المومن الاشارة الى ذلك حينما خاطبه الجراوي بقوله :

ستملك ارض مصر والعراقا
وتجري نحوك الامم استباقا

ونحن اذا درسنا رائيته التى هنا فيها المنصور الموحدي بانتصاره فى وقعة الارك لشعرنا باصالة الروح الاسلامية وبموقف المسلمين البطولي امام اعدائهم ولتصورنا الرعب الذى اصيب به الاسبانيون آنذاك حتى افقدهم وعيهم فتناثر سلك جيشهم وفر رئيسهم تاركا من ورائه ابطال جيشه فى ميدان الحرب صرعى .

وقد صور لنا محاولة انتقام الجيش الاسباني من رئيسه الفار الهارب وهو فى كل هذه الصور يبعث فى نفس المغربي روح العزة ويذكي فيه روح المقاومة ويقوي معنويته ويجعله مؤمنا بالجهاد راغبا فى الانتصار .

واذا كان الجانب الموضوعي غالبا على هذه القصيدة فان الجوانب الذاتية قد تكون هي نفسها ممتزجة بالشخصية العامة للجراوي ، تلك الشخصية التى كونتها عوامل كثيرة يرجع بعضها الى بيئته وبعضها الى تقدير الموحدين له وبعضها الى استعداده الفطري وذكائه الحاد ولكن جزءا كبيرا منها انما نشأ عن طريق ثقافته العامة وظهر ذلك فى اسلوبه واقتباساته واستغلاله لعناصر هذه الثقافة .

ان ملامح هذه الثقافة لا تكاد تخفى على جميع من يقرا للجراوي بل اننا يمكننا ان نقول ان شعره لا يفهمه فهما تاما من يفقد الاصول الثقافية التى كونته تكوينا ادبيا دينيا فى آن واحد .

ويظهر ذلك فيما يلي :

اولا — فى الثقافة القرءانية

لم يكن يخلو شعر المغاربة عامة من استغلال الآيات القرءانية فى الايحاء البطولي او الحكمي والزهدي سواء فى عصر الجراوي او فى غيره فلو اخذنا مثلا شعر مالك بن المرحل فى عصر المرينيين وقرانا بعض شعره الزهدي لسمعناه يخاطب ابنه بقوله :

بني ايك لي ان البكا يبعث البكا
وليس جوابي منك غير وجيب

بحارا ركبناها بغير سفائن
غرورا فان نهلك فغير عجيب

برتني يوما اية في براءة
فان ضحكت سني فضحك مريب

فان ايحاء هذا البيت الاخير لا يكون له تاثير على القارىء ووقع فى نفسه الا اذا كان يعرف الاية التى يشير اليها ابن المرحل وهي قوله تعالى فى سورة التوبة (1) : « فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون » فان هذا التخوف هو الذى جعله يضطرب فى هذه الحياة ويخشى ان يكون مصيره كمصير هؤلاء المعذبين . واذاقه هذا التخوف مرارة الحرمان وجعله قلقا مضطربا مرتجفا .

ونفس الاتجاه القرءاني يبدو عند الجراوي فى قصيدته الرائية حينما اراد ان يعبر عن فرار القائد الاسباني من المعركة وتركه جنوده الذين دفعهم الى الحرب بنفسه فهو بعمله هذا كان شبيها بالميس الذى غر المشركين حتى اذا اساقوا الى الحرب ضد الرسول لم يجدوا منه نصيرا وتبرا منهم قال الجراوي :

لقد اورد الادفنش شيعته الردى
وساقهم جهلا الى البطشة الكبرى

حكى فعل ابليس باصحابه الاولى
تبرا منهم حين اوردهم بدرا

ويذكر المهتمون بشعر الجراوي ان هذين البيتين يوحيان بموقف ابليس مع المشركين فى غزوة بدر ويعبران عن الاية الكريمة التى تقول : (2) « واذ زين لهم الشيطان اعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس واني جار لكم ؛ فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال اني بريء منكم اني ارى ما لا ترون اني اخاف الله ، والله شديد العقاب » .

ومن هنا يتضح لنا ما قلناه من ان الادب المغربي يحتاج فى فهمه الى ثقافة دينية عامة تعين على سبر غوره ومعرفة ابعاده بحيث يتعذر على الذين يفقدون هذه الثقافة ان يحسوا بنفس الاحساسات التى كان يعبر عنها ادباؤنا الاقدمون .

(1) الاية 82 من سورة التوبة .
(2) الاية 48 من سورة الانفال .

ثانيا ـ فى الثقافة التاريخية

وهذه الثقافة تبدو واضحة ايضا فى شعر الجراوي وتتجلى فى قصيدته الرائية حينما اشار الى الخنساء واخيها صخر فهو يقول عن النصارى الذين كانوا يحاربون الموحدين والذين غلبوا وانهزموا بان نساءهم كن كالخنساء يبكين الابطال الصرعى فى القتال كما ان ابطالهم كانوا كصخر فقدته قبيلته واصبح فى خبر كان .

حكت اخت صخر فى الرزايا نساؤهم
كما قد حكى ابطالهم فى الردى صخرا

ومن المتداول المشهور ان صخرا اصيب بجروح ادت الى قتله حينما كان يحارب بني اسد انتقاما لقبيلته ولمقتل اخيه معاوية فبكته اخته الخنساء التى كانت ترى فيه املا للعزة ورمزا للبطولة فاقترن بكاؤها على صخر ببكاء المتحسرات المتالمات المتفجعات واصبح الشعراء يستغلون هذا الحدث التاريخي ويلونونه حسب انفعالاتهم وءارائهم . ولقد احسن الجراوي حينما اراد ان يعبر عن كون القتلى من الاعداء كانوا كثيرا وانهم كانوا ابطالا خلفوا الاحزان فى دولتهم وتركوا من يبكي ويتالم وربما يكون فى هذ البيت اشعار بان جيش المسلمين لم يكن يتوجه الى الضعاف من الرجال او الى الشيوخ والاطفال والنساء وانما يقتل من الاعداء من كان صالحا للتصدي والمقاومة ومن كان شبيها بصخر فى فتوته وصموده .

وهكذا لو تتبعنا شعر الجراوي لوجدنا فيه ايحاءات متعددة تربط ادبه بتاريخ الاسلام فى الشرق والغرب .

ثالثا ـ فى الثقافة الادبية

وتظهر واضحة فى الاقتباسات العامة للمعاني المعهودة المتداولة فى الادب العربي العام سواء فى الادب الجاهلي او الادب الاسلامي .

وربما يكون هذا التاثر ناتجا عن اعتناء الجراوي بالشعر ودراسته وعن تذوقه واختياره حتى انه قام بعمل قام ابو تمام بمثله فاختار اشعارا متداولة عرفت فيما بعد بالحماسة المغربية وسماها صفوة الادب ونخبة ديوان العرب .

ومن المعلوم ان صورا في الادب العربي لم تندثر بمرور زمانها وانما بقي لها نفس التاثير رغم تداول الحدثان وتغير الازمان

ومن ذلك صورة الحرب عند الجاهليين الذين يربطونها بالرحى التي تطحن رؤوس الاعداء فتجعلها هشيما فقد قال عمرو بن كلثوم في معلقته :

متى ننقل الى قوم رحانا
يكونوا في اللقاء لها طحينا

وقال الجراوي :

الوف غدت ماهولة بهم الفلا
وامست خلاء دورهم منهم قفرا

ودارت رحى الهيجا عليهم فاصبحوا
هشيما طحينا في مهب السماهدري

يطير باشلاء لهم كل قشعم
فما شئت من نسر غدا بطنه قبرا

وعلى ذكر هذا البيت الاخير يمكننا ان نستحضر قصيدة المتنبي في وصف معركة الحدث قال يمدح سيف الدولة :

يفدي اتم الطير عمرا سلاحه
نسور الفلا احداثها والقشاعم

وما ضرها خلق بغير مخالب
وقد خلقت اسيافه والقوائم

ان المتنبي يرى ان سيف الدولة جعل النسور تستغني عن مخالبها لانه كفاها مؤونة البحث عن الرزق، فباسلحته القوية يسقط الاعداء صرعى ويجعل جثثهم طعاما لهذه النسور .

لكن هذه الصورة اوحت الى الجراوي بصورة اخرى جعلت بطون النسور قبورا لهذه الاشلاء وهي صورة ابدعها بعض شعراء الخوارج قديما فهذا الطرماح بن حكيم الطائي يقول :

واني لمقتاد جوادي وقاذف
به وبنفسي العام احدى المقاذف

لاكسب مالا او أؤول الى غنى
من الله يكفيني عدات الخلائف

فيارب ان حانت وفاتي فلا تكن
على شرجع يعلى بخضر المطارف

ولكن قبري بطن نسر مقيله
بجو السماء في نسور عواكف

وامسي شهيدا ثاويا في عصابة
يصابون من فج من الارض جالف

فوارس من شيبان الف بينهم
تقى الله نزالون عند التزاحف

اذا فارقوا دنياهم فارقوا الاذى
وصاروا الى ميعاد ما في المصاحف

فهذه الصورة التي تجعل بطن النسر قبرا صورة واضحة و مطروقة في الادب العربي القديم وهي التي استعملها الجراوي في قصيدته ولكن رغم وضوحها فان الذين اعتنوا بطبع شعره غفلوا عنها فارتكبوا خطا في لفظة قبر وكتبوا الباء فاء وقالوا :

يطير باشلاء لهم كل قشعم
فما شئت من نسر غدا بطنه قفرا

وفي هذا التحريف افساد للمعنى من جهة مع تكرار القافية مباشرة من جهة اخرى وبعد ذلك ابطاء لا يستسيغه الذوق الشعري ولذلك ينبغي التنبيه الى هذا الخطا خصوصا في الكتب المدرسية المقررة في اقسام البكالوريا المغربية والتي لها دور فعال في تلقين الثقافة المغربية (3)

ونحن في الحقيقة لو تتبعنا شعر الجراوي لوجدنا انه يقتبس اكثر معانيه من الادب العربي القديم ولا يرى في ذلك ضيرا ما دام يرى ان هذا الاقتباس قد يعيد الذهن الى مواقف اخرى تعين المستمع على تذوق الشعر الجديد وتدفعه الى التاثر بمعانيه فنحن لا نستطيع ابدا ونحن نقرا مطلع قصيدته الرائية التي استدللنا ببعض ابياتها ان ننسى قصيدة ابي تمام في فتح عمورية فابو تمام يقول :

---

(3) وقع التحريف في مقال الاستاذ محمد الفاسي نشره بمجلة المغرب عن الجراوي سنة 1943 بالاعداد التالية من السنة الاولى وهي العدد الخامس والعدد السابع والعدد الثامن وبه يوجد النص. كما وقع التحريف في كتاب النبوغ المغربي الجزء الثالث صفحة 680 بالطبعة الثانية ووقع ايضا بكتاب الادب العربي والنصوص المؤلف وفق مقررات البكالوريا المغربية .

فتح تفتح ابـواب السمـاء لـه
وتبرز الارض فى اثوابها القشب

فتح الفتوح تعالى ان يحيط به
نظم من الشعر او نثر من الخطب

ولكن الجراوي يقول :

هو الفتح اعيا وصفه النظم والنثرا
وعمت جميع المسلمين به البشرى

فاختصر المعنـى فى شطـر بيت واضاف فى الشطر الثاني شعور المسلمين بهـذا الفتـح حيثمـا عمتهم البشرى لا فرق بين المغاربة وغيرهم وفى ذلك اشعار بعظمة الموحدين وتصوير للامال التى ينتظرهـا المسلمون جميعا من انتصار هذه الدولة المكافحة التى تحقق النصر والظفر فى احرج المواقف .

ومن هنا يتضح لنا ان الاقتباسات انمـا هـي تقوية للنفوس وتذكير بالمواقف العظيمـة الموحيـة بالعظمة ايضا بحيث لا ينسـى الشـاعر المغربي وهـو يصف فتح الخليفة الموحدي وانتصاره فى وقعة الارك تلك المعاني التى اقتبسها الشعراء من قبله فى وصف معركة الحدث او فى فتح عمورية ولهذا لم تغب عن ذهنه صور المتنبي وابـي تمـام فصـار يستوحيهـا استيحاء لا يتنافى مع شخصيته القـوية ولا مـع المواقف البطولية التى كانت تمثلها الدولة الموحدية فى عصره . ومن هنا اصبح ادبه متاثرا تمـام التاثـر بمختلف المعاني والصور التى استعملها الشعراء من قبلــــه .

فاس ــ محمد بن عبد العزيز الدباغ





المديح النبوي في الشعر المغربي الحديث

للأستاذ حسن الوراكلي

لعل القراء يذكرون انني نشرت ، منذ سنـــة ، على صفحات هذه المجلة الزاهرة ، حديثا موجزا عن المديح النبوي ، تصدت فيه الى رسم الملامح العامـــة لهذا الغرض الشعري في ادبنا العربـــي : مشرقيـــة ومغربية ؛ ومنذ ذلك الحين وانا اتمنى ان اجـــد من الوقت فسحة انصرف فيها الى درس ما اسهم بـــه المغاربة في هذا اللون الشعري ، قديمـــا وحديثـــا ، وتفصيل القول فيه على نحو يستوفيه حقه من البحث والعلاج ، لا يعجلني عنه ، خلال ذلك ، شغـــل ، ولا يصرفني عنه صارف .

وعلى اية حال فها انذا اعود الى هذا الموضوع ، على عجل ايضا ، للالمام بجانب من جوانبه ، الا وهو اسهام شعرائنا المحدثين وعطاءاتهم في هذا الغـــرض الشعـــري .

واذا كان المديح النبوي في شعرنا المغربي قديما قد ظهر بعناية الشعراء واستاثر باهتمامهم ، فاكبـــوا على معالجته والاكثار من القول فيه حتى أصبـــح من الثراء والغزارة بحيث يسترعى انتباه الباحث ويلفت نظره ، اذا كان الامر كذلك بالنسبة لشعرنا القديـــم ، فان ما يثير الدهشة واللوعة معا ان تكون « بضاعة » شعرنا الحديث ، في هذا الغرض متواضعة جدا ، ونحن نفهم ، ان يكون الشعر العربي ، ومنه المغربي بطبيعـــة الحال ، قد الغى من حسابه وشطب من قائمته غرض المديح بمفهومه التقليدي ، ولكن الذي لا نفهمـــه ولا نحسب أننا « سنوفق » الى فهمه هو أن تشمل هذه العملية الجريئة « مدح » أو بعبارة اخرى اقرب الى « العصرية » : ابراز الابعاد الفكرية والخلقية والعقدية الشخصية فذة ، عظيمة ، هي شخصية محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، وانه لمن السذاجة الفكرية ان يحسب شعراؤنا الشباب ان ما يمكن ان ينشئوه من شعر في شخصية رسول العدل والخير والحرية ليس الا ضربا من المديح بمفهومه التقليدي .

اننا لا ننكر على طائفة من هؤلاء الشعراء اجادتهم فيما يبدعون وبراعتهم فيما ينظمون ، ولسنا ننكر ، ايضا ، اكبارنا لما يعالجون من مضامين في عطاءاتهـــم الشعرية ، يجلون بها واقع الانسان العشريني في عالم استعمرا او استعمرات له فئة ضالة ان يمارس حياته في ظل شريعة الغاب ،، لسنا ننكر ، اذن ، اكبارنا لهـــم حينما يقبلون على معالجة مثل هذه الموضوعات في غير افتعال وفي غير اعتســاف ؛ ولكن الامر الذي ننكره على هؤلاء الشعراء هو ان يغفلوا او يتغافلوا — لست ادري— ماضي امتهم في وقت تطرح فيه للمناقشة والحوار ، اخذا وردا ، قضية تراثنا في الماضـــي على مختلـــف جوانبه وشتى واجهاته ، وما كتبه ابطال هذه الامة من صفحات مشرقات ، بهيات ، تحكي عن بطولـــة نادرة القرين في كل مناحي الفكر وشعاب الوجـــدان ؛ واذا ذكرنا بطولات اجدادنا في الفكر والراى والعقيدة وما الى ذلك جميعه تبادرت الى الذهن سلسلة اسماء ، يتقدمها اسم : لا ابهى ولا اجمل ، هو اسم رسول الخيـــر ، الرحمة المهداة ، محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام،

وما اعجب لشيء بقدر ما اعجب لانصراف هؤلاء الشعراء عن القول في شخصية محمد صلى الله عليه وسلم ، وتهافتهم ، بشكل فيه حظ غير يسير من التقليد الصبياني الساذج ، على التغني ببطولة «لومومبا» و « تشي غيفارا » وغير لومومبا وتشي غيفارا من ثوريي ايامنا ، ولكن : أليس من الحق ان ننظر في احوال مجتمعنا ومدى التزامه للاسلام ، عقيدة ورايا ، قبل ان نفرط في كيل اللوم وتوجيه العتاب لشعرائنا الشباب ، وتحضرني ، هنا كلمة الشاعر صلاح عبد الصبور علقت بالذهن من قراءتي « حياتي في الشعر »؛ يقول عبد الصبور : (... ان العمل الفني ، شانه شان كل مظاهر الحياة المادية ، يخضع لصورة المجتمع، فاذا كان المجتمع بورجوازيا فلن ينتج الا فنا معبرا عن المجتمع الراسمالي ...) وهذه كلمة حق بصرف النظر عما اريد بها ، وعلى ضوئها يجب ان « نقتصد » في لوم شعرائنا الشباب على خلو شعرهم من « الرؤية الاسلامية » ؛ ذلك ان مجتمعنا بابتعاده عن روح الاسلام في السلوك والمعاملة ، يصبح طرفا في الوضعية ؛ بل يمكن القول بانه المتهم الاول في قضية انصراف هؤلاء الشعراء عن الاسلام فكرا ورايا ، وعقيدة ومذهبا فيما ينشئون من آثار : ليست تعكس ، باعتبارها اعمالا فنية – بعبارة عبد الصبور – شانها شان كل مظاهر الحياة المادية تخضع لصورة المجتمع ، الا صورة مجتمع لم يوشك الا يبقى له من الاسلام غير شعارات الاسلام النظرية .

على انه برغم ذلك ؛ اي برغم ان الفن صورة المجتمع وبرغم ان مجتمعنا يوشك الا يحتفظ من الاسلام غير الشعارات ، فليس لهؤلاء الشعراء كل العذر في افتقار شعرهم الى روح اسلامية ، فالشاعر اي شاعر معاصر ، يفترض فيه انه انسان مثقف يملك القدرة التامة للاطلالة على عوالم الفكر المختلفة وآفاقه المتنوعة، وشعراؤنا الذين لا شك انهم يملكون بعضا من تلك القدرة ، بدليل ما تطالعنا به اشعارهم من صور لتبعية عمياء لمقروءاتهم في مذاهب شاعت وراجت في العقود الاخيرة ؛ يستطيعون اذن ، ان يقبلوا ، بحس المثقف، على الاسلام درسا وفهما ، يتزودون ، بواسطتها ، من تراث الاسلام بخير زاد ، يثري رؤيتهم الشعرية ويوسع رحابها ويمد في آفاقها ؛ ولسنا ندعو بهذا الى شكل او آخر من « التوقع » ، فللفن قدسيته وحرمته، ومن مظاهر احترامها عدم محاصرته وتضييق الخناق عليه ؛ لان من طبيعته الحرية والانطلاق ، فهو ليس يعرف ما اصطلح الناس على تسميته بالحدود « والجوازات » ؛ ذلك هو الراي عندنا في الفن ؛ ولكننا مقتنعون ، ايضا ، بان اصالة الفن واصالة الفنانين يشكلان مطلبا يعسر تحقيقه ما لم يوفق الفنانون الى ابراز شخصيتهم المتميزة الكيان ، المستقلة الذات ، المحددة السمات ، فيما يبدعون من فن ، ولسنا نشك في أن شخصيتنا ، كفنانين نعيش في مجتمع نفرض انه مسلم في حيز النظر والتطبيق انما تستمد مقومات حياتها من تراث الاسلام ومبرراته وتقيم ركائز قوتها على ارضيته ، ويوم يعي شعراؤنا الشباب هذه الحقيقة ويعمقون النظر في ابعادها سيدركون أن « الرؤية الاسلامية » الشاملة للوجود ومن في الوجود لن تكون عائقا يحول بينهم وبين التقدمية او « شوكا » يعثر خطواتهم في طريق الثورية ، فالبشرية عبر تاريخها الطويل ، الموغل في القدم ، لم يسبق لها ان رات عقيدة اكثر تقدمية وثورية من الاسلام ، كما لم يسبق لها ان ابصرت او سمعت او قرات عن انسان اكثر تقدمية وثورية من محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام .

* * *

بعد هذا وذاك ، تعال نصغ الى اصوات في شعرنا الحديث ، تغنت بمدح سيد البشرية ومنقذها من ليل قلقها وحيرتها الدامس ، وصورة ، بالكلمة الموسقة والخيال المجنح ، حبا ملأ على اصحابها اقطار نفوسهم واضاء لهم شعاب الحياة ومهامها ..

* * *

ا) محمد بن موسى :

لا شك عندي في ان المؤرخ « المنتظر » للشعر المغربي الحديث سيضع شاعرنا بن موسى على راس الشعراء الذين سعوا الى النهوض بهذا الشعر شكلا ومعنى ؛ والحق ان هذا الشاعر نفح شعرنا ، خاصة ناحية الشكل ، بنفحات جزالة العبارة وجودة السبك واشراقة الديباجة (ورغم هذا المنحى الاتباعي فان شعره يحتضن حرارة عاطفية وذوب شعور وانسياب احساس) وانا لنقرا شعر ابن موسى الذي يعالج فيه موضوعات تقليدية من مدح ووصف ورثاء وغزل في لغة جزلة وعبارة رصينة وصور آسرة ، نقرؤه فنلقى فيه انفاسا من الفن الرفيع عدمه شعرنا منذ ايامه الزاهرات ، المشرقات : في المشرق والاندلس ؛ ومن ثم كان ابن موسى في راينا رائد المجددين عندنا وزعيمهم بلا منازع .

عالج شاعرنا في جملة ما عالج من اغراض الشعر المديح النبوي ؛ ويتميز شعره في هذا الغرض

بكلاسيكية تطالعك في مبناه وتطالعك في معناه ، فهـو يفتتح شعره في هذا الغرض بالغزل على عادة القدامى . فاذا افرغ من الافتتاحية الغزلية تخلص الى مدح النبي عليه الصلاة والسلام ، لكنه لا يفرد هذا الغرض ببقية القصيدة ، ذلك انها تنشد بين يدي الخليفة السلطاني يومئذ في ليلة عيد المولـد ، فهو مدعـو ، اذن الى تخصيص ابيات في مدح الامير يختم بها قصيدتـه . وكانموذج لهذا الغرض الشعري عنـد ابن موسـى قصيدته التي نظمها عام 1335 : يبداها صـورا ما ينتلج في فؤاده من وجد ، اصبح معه في يم من واكف الصبابة وفي نطاق من لافح الجوى ، فيقول :

هل لحب اشفى من الوجـد راق
عيل صبرا فجفنـه غيـر راق

تدريه من المحاسـن اشـر
اك فيهفو الى وميض التلاقـي

فهو من واكف الصبابـة في يـ
ـم ومن لافح الجوى في نطـاق

حذرته العذال من خفـة الحلـ
ـم فاغراه وجـده بالشقـاق

وراوا كتم ما بـه ومـن اللهـ
ـو غـرام مموه بنفـاق

كيف تخفي جوانح الدنف الصـ
ـب لهيبا ترفض منه الماقـي

ما رعى طرفه ذمـام التصابـي
ان كبار زند غربـه في السبـاق

ثم يمهد لمديح النبي صلى الله عليه وسلم بأبيات اربعة ، يبدع فيها صورا طريفة تروع القارىء :

سار اهل القباب من جانب الجـ
ـزع فهاجوا بلابـل الاشـواق

رحلوا فالكرى مع الركـب ماض
راحل والسهاد في الجفن بـاق

ما عليهم لو انهم عرجـوا فـي
سيرهـم بالمولـه المشتـاق

يـا فريقـا تحملـوا بفـؤاد
رازح دون حمل عبء الفـراق

وبرغم ان معاني ابن موسى في مدح الرسول معان مالوفة ، لا تكاد تعثر فيها على معنـى مبتكـر الا ان « الاطار » التي صيغت فيه يثير الاعجـاب ، حقـا ، بطلاوته واشراقته :

يعسفون السرى الى بقعة ضمـ
ـت سراج الهدى ونور الحداق

بلغوا عاطـر السـلام زكيـا
لشفيع العباد يـوم المسـاق

اكرم المرسليـن طـرا واعـلا
هم مقاما في حضـرة الخـلاق

خير من وسـع الانـام بهـدي
واضـح من مكـارم الاخـلاق

من تجلت به معانـي المعالـي
فاطمانت لـه متـون الطبـاق

جاء بالمعجـزات والشـرك داج
تنتحيه من صبحهـا بانفـلاق

فجلا حالـك الضـلال بنـور
اشرقت منـه سائـر الآفـاق

حبذا ليلـة تفـرى دجاهـا
عن سناء من وجهها في انبثـاق

طبقت سائـر العوالـم نـورا
منه ما في القلـوب والاحـداق

ثم يتخلص الى مدح الامير وتهنئته بليلة المولد، يشفع ذلك بالتصلية على الرسول وآلـه وصحبـه . وبهذا يختم قصيدته .

وما احب ان نترك شاعرنا ابن موسى قبـل ان اقفك على انموذج آخر من شعره في هذا الفـرض ، تقدمه لنا قصيدته الرائعة التي يبداها بقوله :

واها لعهد بأكناف الحمى سلفـا
لم استطب ، اسفا ، من بعده خلفا

الوى فما جذوة الاشواق كاتمة
وجدا ولا الدمع في اخمادها وقفا

يحدو به من زفير الشوق مضطرم
بين الجوانح ان صبر به هتفـا

وبعد ان يستنفذ في « الافتتاحية » نحو اربعـة عشر بيتا يشرع في مديح الرسول عليه الصلاة والسلام فيقـول :

محمد خير من قر الكمال بـــه
عينا فلم يحط من عين الهدى هدفا

ارقى النبيين اخلاقا واحسنهـــم
خلقا وافضل من صلى ومن عكفا

ثم يقول مرددا معاني طالما ساقها الشعراء فيما قالوا من المديح النبوي :

ماذا يخوض لسان الحمد من لجج
في فضله ويراع المدح ان وصفا

والبحر أعجز من يحصي عجائبـه
ولو قضى العمر في احصائها لقفا

ويختم مديحه في الرسول بقوله :

قائم الكمال لاعلى الرسل قاطبة
شأنا واقربهـم من ربـــه زلفــا

من خط بالعزم والبرهان واضحة
بيضا ولولاه ما خط الهدى الفا

وهكذا نلاحظ ان ما وقع من هذه القصيدة في مدح الرسل ، وهي في ثلاث واربعين بيتا ، ليس يتجاوز ابياتا سبعة ، على حين ضمت قصيدته السابقـــة ، وهي تقع في تسع وثلاثين بيتا ، ثمانية ابيات في الغرض الذي انشئت من اجله ؛ غير ان ما يلفت النظـــر في القصيدة الاخيرة هو ان الشاعر لم ينته فيها الى مدح الامير الذي ينشدها بين يديه الا بعد ان يمهد لذلـــك بستة أبيات ، يتغنى فيها ، باحساس صادق وعاطفة متقدة ، بمدح من تعاقب على حكم المغرب من آل البيت « اشبال فاطمة الزهراء وعترتها » ؛ ولنا ان نتنسم في هذا المقطع من القصيدة روح شعراء ابدعـــوا في آل البيت روائع لا تبلى من امثال الكميت ودعبل وغيرهما:

لم تخش غيا ومن اعلامنا فئـــة
من وارثيه حموا اعلامها حنفـــا

اذا مضى علم منهم بـــدا علـــم
وان بدا علم منها كفى وشفـــى

مكفولـــة ببهاليـــل غطارفـــة
شم العرانين من ابنائه الشرفـــا

اشبال فاطمة الزهرا وعترتهـــا
والانجم الزهر ان طرف الرشاد غفا

الوارثين طرافا كـــل سافـــرة
من المكارم والبانين مـــا سلفـــا

ما زال فيهم تليد المجد بين يـــد
ينمو بها وبد ترعـــى بها نصفـــا

ثم يتخلص لمدح اميره وولي نعمته :

حتى تخلص مرفوع الذرى ليـد
ترعى، الهدى والندا والعز والشرفا

ان صر في الغرب في قرطاسها قلم
ارنى صداه قاصي الشرق وانعطفا

الباسط الفضل ان غاضت مناهله
والناشر العدل ان ادنى وان صرفا

وليست تفوتنا الاشارة الى ان ابن موســـى لا ينسى وهو يمدح الامير ان يذكره بشعبه ، فيدعوه الى النهوض به وتجديد « صرح مجد كان عدتـــه » حين يجول وحين يصول ؛ وتلك التفاتة نحمدها لشاعرنـــا ابن موسى :

دم للمعالي سراجا يستضاء بـــه
في النائبات وبدرا يكشف السدفا

وانهض بشعب بشيم النجح مرتقبا
من وجهك الباسم الوضاح ما الفـــا

جدد له صرح مجد كان عدتـــه
ان جال او صال يوم الروع او وقفا

حتى تصير بلاد جـــاد قاحلهـــا
من عين عزمك روح روضة انفـــا

تزداد بالعلم نورا والرفاه يـــدا
والجد جدا وحفظ الواجبات شفا

ثم يختم قصيدته بتهنئة الامير والصـــلاه على رسول الله وآله وصحبه على نحو ما فعل في قصيدته الاولـــى :

واهنأ بها ليلة بالمصطفى حملـــت
الى العوالم من امـــداده تحفـــا

تمت عليه صلاة الله ما نسجـــت
أيدي الغمام على هام الربى قطفا

وآله ومن استكفـــوا بخالقهـــم
من صحبه فحباهم فضله وكفـــى

* * *

ب) علال الفاسي :

يخيل الي ، احيانا ، ان علال الفاسي ، خلق ليكون

شاعرا قبل ان يكون زعيما ثائرا او عالما متبحرا او مفكرا رائدا ، ولذلك عندي مبررات ، اكثرها دلالة : رونق الفن ونصاعته فيما انشأ من شعر منذ ان جاشت نفسه به وهو بعد فى ميعة صباه الى يوم الناس هذا . وبالرغم من ان علال الفاسي الشاعر تناول فى شعره موضوعات شتى واغراضا متعددة ، الا ان موضوع الوطن استأثر باهتمامه اكثر من اى موضوع آخر ؛ والحق ان الباحثين فى تاريخ المغرب الحديث سيجدون فى شعر علال الفاسي يوم يطبع ديوانه ، ونحن نرجو ان يتحقق ذلك قريبا ، ما يلقي لهم الاضواء الكاشفة على مغرب الحماية ويعكس لهم جهاد المخلصين من ابنائه فى سبيل الحرية والاستقلال ، فلقد كان علال الفاسي ، على مدى السنين الطويلة التي عاشها وطننا رازحا تحت عبء الاستعمار ، خير معبر ، بشعره عن وجدان شعبنا ، واحس من صور ، بالشعر ايضا ، شجون هذا الشعب وشئونه، وتطلعاته وامانيه، ولولا الخشية من الاستطراد لمضيت اضرب لك الامثال من شعر الوطن والمعركة والتحرير عن هذا الرجل الذي انفق حياته فى خدمة هذا الوطن ؛ ولكننا نبحث فى موضوع آخر ، لا نريد ان نتجاوزه الى غيره .

وليس يخفى على احد ايمان الاستاذ علال الفاسي بـ « الفكرة الاسلامية » وما بذله من جهد وسعي ملحوظين فى سبيل بث هذه الفكرة فى النفوس وتشبيثها فى الضمائر ، تعكس لنا هذه الحقيقة نتاج علال الفاسي فى الخطبة والمقالة والبحث والشعر ؛ وما اظن قارئنا قرا ذلك النتاج او بعضه بحاجة الى ان ادلل له على صحة هذا الراى . وفى مجال الشعر ، بخاصة ، قدم لنا علال الفاسي الشاعر عطاء ثرا ، يبرز فيه ، تارة نبل « الفكرة الاسلامية » وصفاءها ، واخرى ، يستعرض فيه لقطات من تاريخ امة الاسلام حين كانت خير امة اخرجت للناس ، وثالثة ، يتغنى فيه بالبطولة المتنوعة لعظاء الاسلام وفى طليعتهم محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، وفى كل شعر علال الديني أو الاسلامي نجد شاعرنا يصدر عن عقيدة راسخة وايمان عميق وغيرة شديدة وعاطفة جياشة ، ولعل مولدياته او قصائده فى ذكرى المولد ومدح الرسل خير ما يمثل هذا اللون من الشعر عنده ، وسنجتزىء فى هذا الحديث بتقديم انموذج واحد من شعر علال الفاسي فى مدح الرسول ، وهو قصيدته البائية التي القاها بين يدي جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه ليلة عيد المولد لعام 1378 هـ ، وهو يبدأها بقوله :

يجيش الشعر فى نفسي وتأبى
قوافيه لدعوته جوابا

وتكمن منه فى صدري معان
هي التبر الذي يأبى انسكابا

ورب مخاطب أورى بنفسي
وافصح فى مناجاتي خطابا

وبالرغم من جيشان الشعر فى نفس شاعرنا واختلاج صدره بمعان «هي التبر الذي يأبى انسكابا»؛ بالرغم من ذلك يتهيب الخوض فى مدح الرسول ويعترف ، فى اسلوب من الفن رفيع ، بتصور ما يبدع من قول عن تصوير شخصية النبي الكريم ومدحها ؛ او ليست :

حدود اللفظ اضيق من مداها
واضعف أن تكون لها قبابا

ان اعتراف شعراء المديح النبوي بعجزهم عن استيفاء القول فى مدح الرسول من المعاني المكرورة التي اخذها خلفهم عن سلفهم ، حتى أصبحت تشكل ما يشبه « تقليدا فنيا » فى هذا الكون من الشعر ؛ ولكن ان يقدم هذا المعنى فى مثل الصور البديعة الطريفة ، التي قدمه لنا بها شاعرنا علال الفاسي فذلك امر يكسبه نوعا من الجدة ، يصبح معها حقيقيا باثارة الاعجاب ؛ فلنسمع اليه :

وهبني صغت هذا الشعر درا
نضيدا وانتقيت له الكعابا

ونظمت النجوم لها عقودا
وكان البدر وسطاها انتسابا

وصغت من الطبيعة كل لون
جميل يسحر النفس التهابا

وطاوعني البيان بكل لفظ
بديع زان منطقه وطابا

ولبتني القوافي عامرات
وهبت فى مطارفها طرابا

فصغت فنونها فنا ففنا
وحزت فصولها بابا فبابا

ايوفي ما اقول لفيض سر
هو المعنى فما ترضى انتقابا

حدود اللفظ اضيق من مداها
واضعف أن تكون لها قبابا

وما بلغ الحقيقة ذو بيان
وان ملك الاعنة والركابا

جمال القول والمعنى لديها
ينطق الله حين برى الرقابا

وحين دعا البرية فاستجابت
وحملها فحملت الصعابا

يعاقدها الالاه فترتضيه
وتترك من مراميها الرغابا

ثم يمهد بهذا البيت :

رايت الرسل الفاظا حسانا
امهدتها وآيات عذابا

لمدح الرسول ، وهو مدح اضفت عليه العاطفة الصادقة التي املته تدفق حياة وانراع حركة ، فلكانما الابيات التي صيغ فيها مشاهد تبصرها العين وينفعل بها الفؤاد :

رايت محمدا فينا كتابا
وقد أملى من الوحي الكتابا

سلوا عنه العروبة في رباها
لان أدى الرسالة والخطابا

سلوها حين قام بها ينادي
وقد ملا الخوافض والهضابا

سلوا البطحاء حين اوى اليها
ابيا ان يضام وان يصابا

لقد أصغت له فرات عجيبا
وشامت خلقه فرات عجابا

رات قرآنه فيه تجلى
فما استطاعت لرؤيتها ارتيابا (1)

وكان محمد فيها امينا
تحكمه وترضى ما اصابا

وكان محمد فيها وفيا
تعاهده فيوفيها الثوابا

وكان محمد فيها كريما
وحمالا اذا ما الدهر نابا

وكان محمد فيها حكيما
سديد الراى يستجلى الغيابا

وبعد ان يلمح الى حياة العرب قبيل البعثة والى فساد عقيدتهم :

وفي بطحاء مكة كان قومي
يسامون المذلة والعذابا

وحسب الشعب سوءا حين يلقى
رؤوسا لا تعير له حسابا

وان الدين عند الله رشد
وبر يملأ القلب احتسابا

وهم جعلوا الديانة عبء شعب
راى الاصنام واسطة فخابا

يعرض لجهاد الرسول والذين آمنوا معه فى سبيل نشر الدعوة الاسلامية :

فلما قام عبد الله يدعو
وكشف عن جهالتهم نقابا

وسفه رايهم وقضى عليهم
بحكم يملأ الارض عتابا

وكسر آلهة البغي ضربا
وما اسطاعت لفعلته عقابا

ومال على رؤوس الشر يرمي
معاقلها وصيرها خرابا

ابى الطاغون وائتمروا عليه
وحاصوا حيصة الحمر اكتئابا

وهموا بالذي لم يلقوه
ورد الله كيدهم اضطرابا

ولاقى المؤمنون به صنوفا
من التعذيب واحتسبوا الثوابا

وهاجر للمدينة فاستنارت
به أرجاؤها وعدت حرابا

وكان آذانه فى الخلق نورا
وفى الآذان رحمى وانجذابا

وهب البائسون بكل ارض
يلبون النداء المستطابا

1) فى البيت اشارة الى حديث السيدة عائشة رضى الله عنها حين سئلت عن اخلاقه فقالت : « كان خلقه القرءان » .

وسار هداته في الارض طـرا
يجوبون الصحاري والقصابا

وبذلك قامت دولة الحق ، وهي دولة :

يسود بها البناة اذا استقاموا
على الشورى وما آلوا ارتقابا

وليس يسودها من ضيعوها
ولا من قصروا عنها ضرابا

ومن فسقوا عن الايمان جورا
ومن جعلوا النساء لهم مثابا

مدينة احمد طهر وعدل
وحسبك ثان شمراثا رغابا

ومن طلب الحضارة في سواها
كما الضمآن يحتلب السرابا

ثم يمضي الشاعر الى تصوير ما كان لامة الاسلام من امجاد في الماضي قبل ان يتسرب اليها الضعف ويسعى اليها الوهن ؛ ولكنها ، اليوم ، قد افاقت من سباتها وما عادت تستمرئه ، والشاعر مؤمن بان مجد هذه الامة سيبعث من جديد ، وليس لها من سبيل ، حينذاك ، غير سبيل الحق والصدق ، وهو السبيل الذي خططه رسول الله « وضاحا لا اعوجاج ولا انحدابا » :

سنبعث مجدنا رغم التحدي
ونمنع قومنا ظلما وعابا

وان سبيلنا حق وصدق
وما زاغ السلوك بها وخابا

رسول الله خططها سبيلا
وضاحا لا اعوجاج ولا انحدابا

وان يكفر بها قوم ففينا
هداة يرجعون لها الشبابا

اعادونا الى الرشد ارتجاعا
وردونا الى الحق اجتذابا

ومن هنا يتخلص الى مدح العاهل العظيم قدس الله روحه :

وهذا عاهل الوطن المفدى
واعظم من رعى وهدى الصوابا

امير المؤمنين به استعدنا
وجودا مشمخرا وانتصابا

حدانا للجهاد وكان شهما
فخاض بنا المصاعب والعقابا

ويتميز هذا المديح بالحاح الشاعر فيه على اثارة قضايا وطنية كتحرير بقية الاراضي المغتصبة والوقوف بجانب الشقيقة الجزائر التي كانت يومئذ ، تخوض معركة الجهاد والتضحية ، وما الى ذلك من قضايا ، لا يكتمل استقلال لنا ، في راى علال الفاسي السياسي والشاعر معا ، الا بالتغلب عليها .

ويختم الشاعر قصيدته بابيات ، يتوجه فيها الى ربه بالدعاء في تأثر عميق وشعور رقيق :

الاهي يا رحيم ومن اليه
يرجى المرء في الخطب المآبا

ومن بيديه ناصية البرايا
ومن يجزي على الخير الثوابا

سالتك دعوة من عمق نفسي
وانت امرت ان تدعى احتسابا

الى ان يقول :

الاهي انني بك مستجير
وحسبي انني بك قد اهابا

اتيتك مذنبا ورجوت عفوا
اذا نوقشت في البعث الحسابا

فحظي بالعناية في فعالي
وزدني في محبتك انجذابا

وان زلت خطاى فلا تكلني
الى نفسي وما تأتي اختلابا

وثبتني على الايمان وامنع
ذنوبي ان تمل بي العقابا

تقع هذه المولدية في ثلاث وأربعين ومائة بيت ، والشاعر مولديات اخرى تقع في نحو ذلك العدد من الابيات مما يدلنا على نفسه الطويل المتدفق ، وأهم ما يتميز به هذا النفس ان صاحبه لا يجتر فيه نفس الافكار او « يستهلك » نفس الصور التي تطالعنا في شعره ؛ بل هو يملك القدرة على تنويع الافكار تماما كما يملك القدرة على ابتكار الصور ، وهو يستطيع الى هذا وذاك ، ان يشيع في افكاره ومعانيه صفاء ينبض ، وفي صوره وظلاله اشراقا يختلج .

اما القول بأن روح شوقي في « سلوا قلبي غداة سلا وتابا » التي يبكي فيها شبابه وهواه ، كانت تحلق على شاعرنا حين انشأ مولديته هذه ، فهو قول لا يقوم للبحث العلمي ، وانه ليس يكفي ان ينظم شاعران في بحر واحد وعلى قافية واحدة حتى تستطيع الزعم بأن روح سابقهما كانت تحلق على روح لاحقهما .

ج) محمد بوخبزة :

عاشت في تطوان قبيل الاستقلال وبعده جماعة من الشباب ، كانت في شيء غير قليل من الجد ، وفي شيء غير قليل من الاخلاص ، تعمل على ارساء اسس نهضة ادبية وشعرية ، وفي المجلات والصحف التي كانت تصدر ، يومئذ ، في هذه المدينة ، تتاح لهؤلاء الشباب ، يعكس لنا ، جهدهم في العمل ، واخلاصهم في السعي ; وعلى حين ظلت طائفة من هذه الجماعة تشق الطريق وتغذ السير ، لاذت اخرى بالصمت وآثرت العزلة او بتعبير رجال الاقتصاد : آثرت الاستهلاك على الانتاج ; ومن هذه الطائفة شاعرنا محمد بوخبزة ، فلقد كان هذا الرجل منذ نحو خمسة عشر عاما او يزيد حركة لا تهدا ، وشعلة لا تخمد : ينشيء القصائد ، ويدبج المقالات ، ويسهم في تحرير الصحف، ويحمله تحمله للفكر والادب والشعر على اصدار مجلة يسميها « الحديقة » يحرر معه فيها جماعة من الشباب المتحفز ، المتطلع ; وبين عشية وضحاها تعتر الحركة ، وتخمد الشعلة ; وتسال او اسال : هل هو نضوب في الاحساس عن منشيء «الحديقة» ام هو ايثار للاستهلاك على الانتاج ؟ اما ان احساس شاعرنا قد نضب فهو امر لا سبيل الى القول به ; ذلك ان احساس هذا الرجل ، الجاد الساخر ما يزال كما نعهده ، عارما ، قويا ، فياضا ، واما انه ايثار للاستهلاك على الانتاج فهو امر نميل الى ترجيحه ، فمحمد بوخبزة من اكثر الناس تعلقا بالكتاب واقدر الناس على التهامه مع الافادة و «الهضم» الجيدين ، واذن فهو رجل مستهلك غير منتج ، آخذ غير معط ; وهذا يشكل في راينا انانية فكرية وادبية لا نحمدها له كما لا نحمدها لكل من هو على شاكلته قدرة على الاخذ والعطاء ولكنه يكتفي بان ياخذ دون ان يعطي .

نشا شاعرنا محمد بوخبزة ودرج في حضن اسرة متمسكة بالاسلام ، محافظة على مبادئه وقيمه ، يحرص على رعايتها في ذلك والد فقيه ، كان يتولى القضاء ; وهكذا وجه شاعرنا منذ نعومة اظفاره توجيها اسلاميا في تعليمه ودراسته وسلوكه ، فلما تفجرت ينابيع الشعر في وجدانه تدفق هذا الشعر يعكس هذه التربية الاسلامية وذلك التوجيه الديني ، وكان اكثر شعره تصويرا لذلك مدائحه للرسول عليه الصلاة والسلام ; ومنها قصيدته « نفحات البردة » ، وهي منشورة بجريدة « النهار » يبداها بالنسيب على الطريقة الكلاسيكية :

هل آذن النور ان يمحو دجى الظلم
وهل راى الوصل ان يقتص من سقمي

وهل لكم رقية للقلب تنفعه
فانه ، اليوم ، مقهور من الالم

غزاه سيف بسحر اللفظ مشتعل
وهو الذي بسهام الجفن قبل رمي

وتستغرق افتتاحية القصيدة حديث الشاعر عن حبه وشوقه وضيق فؤاده وقلق باله ، وذلك في نحو احد عشر بيتا ، يتخلص منها الى مدح الرسول بقوله:

لو كان يهوى سعادا او شبيهتها
لقال قائلنا : قد كان في القدم

فكيف والحب يهوى من به سعدت
وشرفت امم الاعراب والعجم

ومن به ضاءت الاكوان وازدهرت
ومن بجسمه طابت تربة الحرم

ومن فضائله تاج تحلى به
راس الزمان واضحى غنية الامم

ومن مفاخره جلت عن العد
اعيت جلالتها قدما ذوي الهمم

ومن له دونت كتب مطولة
وقال شاعرها : ها فاصل الكلم

(فان فضل رسول الله ليس له
حد فيعرب عنه ناطق بفم)

يا سيدا ليس في الدنيا لسان ولا
قول يفي بصفات العلم والحكم

يا سيدا ادهشت قوما مناقبه
واعجزت حاملي القرطاس والقلم

يا سيدا شرف الدنيا بطلعته
آياته طهرت للقدم والفهم

تبسم الدهر للمختار وانقشعت
بمولد المصطفى سحب من القمم

وبشرت بسناه الجن هاتفة
والنجم اهبط للبشرى بذي النعم

واهتزت الارض للمختار من طرب
بيمن مولد هادي العرب والعجم

محمد سيد الاكوان ، مولده
سعادة لبني الانسان كلهم

محمد منقذ الاجيال من سفه
في العقل والدين والاخلاق والذمم

محمد مرشد الدنيا ومخرجها
من لجة الظلم والادران والالم

محمد قمـــر الارســـال كلهـــم
ومنبع الفضل والانعام والكـــرم

شمائل عظمت جدا فابصرها الـــ
ـــاعمى واصغى لأي الحق ذو صمم

واول ما نسجله على هذا المديح هــو الـــروح البوصيرية التي تطغى عليه وتشيع في اعطافه بشكــل ملحوظ لا تجد له من تبرير غير ما تتسم به العطاءات المبكرة لكل شاعر من رسوبات مقروئه الشعري الذي لا تتيسر له ، وقتئذ ، عادة ، عمليتان ، هما : عمليـــة التاني في الهضم وعملية الجودة في التمثل .

واغلب الظن ان افتتان شاعرنا ببرده البوصيري اوبراته هو الذي حمله على استلهامها واحتذائها في الشكل والمضمون ؛ بل ان هذا الافتتان هو الذي حفزه على ان يضمن قصيدته بيتا من البردة ، ليس بأجود ابياتها ، وهو :

فان فضل رسول الله ليس لـــه
حد فيعرب عنه ناطــق بفـــم

وكذلك نلاحظ ان رسوبات مقروئه الشعـــري الذي لم يكن ، يومئذ ، ـ نشرت هذه القصيدة بتاريخ فاتح ربيع الاول عام 1372 هـ ـ قد هضمه بتأن وتمثله جيدا ، هي التي جعلته ينظر الى بيت المتنبي :

انا الذي نظر الاعمى الى ادبـــي
واسمعت كلماتي من به صمـــم

حين ينشيء بيته هذا :

شمائل عظمت جدا فابصـرها الـــ
ـــاعمى واصغى لأي الحق ذو صمم

وثاني ما نسجله على هذا المديح هو انه اذا كان صاحبه لم يوفق فيه الى الصياغة الفنية ، الجيدة في اللفظ والمعنى معا ، فان ما يشفع له عاطفته المتأججة ، المشبوبة ، التي تبدو في ابيات قصيدته على نحو جلي .

ولشاعرنا من مدائح اخرى ، ضمت ابياتا تستجاد كقوله في احداها يخاطب رسول الله في حب عميق :

سناؤك يا حسن الوجود باسره
هو الاصل في دنيا الجلالة والعلى

ووجهك شمس للمحاسن قد حوى
به يهتدي الساري الى وضح الهدى

كلامك احلى من رحيق جنائـــن
سكرت به سكرا اجار من الردى

وفعلك مرآة الكرامـــة والتقـــى
على نورها يمشي الى الجنا الورى

ومجلسك الروض البهي بزهـــره
تضوع افق الكون وانتشر الشذى

لقد الح شاعرنا بوخبزة على هذا الغرض الشعري الحاحا ، يتجلى فيما انشاه من شعر كثير يتناول فيه هذا الغرض ، وكان بالود ان اعرض عليك نماذج اخرى من المديح النبوي عنده ، تصور تطور الفن ونضـــج الشاعرية عند بوخبزة ؛ ولكن المجال هنا اضيق من ان نمضي في عرضها ، فحسبنا ، اذن ما قدمنا له من شعر ، ولنختم حديثنا عنه ببيتين من قصيدتين لـــه في هذا الغرض يدلان على شغفه بمدح الرسول ، فبهذا المدح طاب شعره وزان قوله الطهر والنبل ، اما اول البيتين فهو :

بطيبك طابت في المديح قصائدي
وافرغتها تبـــرا يـــذوب ثنـــاء

واما ثانيهما فهو :

هنيئا لشعر صيغ في مدح احمد
فذلك قول زانه الطهر والنبـــل

* * *

لن يتسع المجال للتوسع في درس نماذج اخرى لشعراء مغاربة محدثين عالجوا فيها المديح النبوي من امثال الدكالي واخريف والدليرو والحمراوي والشاوش وغيرهم ، فلهؤلاء جميعا مولديات ، يشع فنهـــم في ثناياها ، وتنبض رؤيتهم الاسلامية في طياتها ، فهـــي جديرة بان تقرا ، وهي جديرة بان تـــدرس ، ولكـــن المجال لا يتسع كما اسلفنا ، قلنا ، اذن ، مـــع هؤلاء الشعراء موعد في فرصة مقبلة بحول الله .

تطوان : حسن الوراكلي

---

1) انظر حديثا للاستاذ محمد المنتصر الريسوني عن : « محمد بن موسى : شاعر من الجيل الماضي » دعوة الحق ـ العدد 2 السنة 12 ـ 1388 ـ 1969 .



ابن شهيد اديب اندلسي كبير شاهد فى حياته القصيرة كثيرا من الاحداث والانقلابات وقاسى كثيرا من الالام النفسية والجسمانية وذاق من ملذات الحياة وعب من نعيمها ما لم يقدر لاديب عربي قبله ولا بعده ان ينعم بمثله .

لقد قدر لاديبنا ان يعيش عيشة ابناء الملوك وان يرتع فى صباه وشبابه فى الرفاهية المفرطة وان يكون ذا احساس مرهف جعله طيلة حياته ينعم بالطبيعة وقراءة الشعر والاستماع الى القيان الى جانب تجرعه لجميع صنوف الالام خصوصا فى اواخر حياته .

لم ينعم اديبنا فى صباه برعاية ابيه وعنايته به وحدبه عليه ، وقدر له وهو لا زال فى عنفوان الشباب ان يرى القصور التى قضى فيها صباه وطفولته تتهدم امام عينيه ، وان يفجع فى حياته القصيرة فى موت جميع اقاربه وذويه ، وان يرى الدولة العامرية التى كانت دائما تحمي عائلته تنهار امام بصره وان يرى الدولة الاموية العظيمة تنهار بدورها فتضطرم اثر ذلك نيران الفتنة والفوضى وتحطم كيان الاندلس المسلمة وتقضي على رخائها وامنها .

وقدر لاديبنا ان يصاب بحسد معاصريه وعدم تقديرهم لادبه وان يتعرف الى السجن بعدما عاش فى القصور وان يصاب بالصمم وبضيق التنفس وبمرض الفالج وان يضيع له جل ما كان يملك من مال ودور وضياع ومراكب كان يمخر بها عباب نهر الوادي الكبير مع اصدقائه وقيانه .

وقدر لاديبنا ان يبليه الله بشرب الخمر الى حد الافراط وان يطلق العنان لشهواته الى حد الانحلال وان لا يجلس على كرسي الوزارة التي كان يطمع فيها اشد الطمع الا برهة قصيرة من الزمن وان يمرض فى ءاخر حياته فيطول به المرض ويشتد به الالم الى الحد الذى فكر معه فى الانتحار .

« انوح على نفسي واندب نبلها
اذا انا فى الضراء ازمعت قتلها »

وهكذا خبر ابن شهيد جوانب كثيرة من جوانب الحياة خيرها وشرها ومن حسن حظنا نحن قراء الادب العربي انه خبر هذه الجوانب المتعددة المتنوعة اذ لولا ذلك لما ترك لنا قصائده الشعرية ورسائله النثرية التى اودعها الاديب كل تجاربه وعواطفه وانفعالاته وءارائه وتركها لنا ذخرا ادبيا عز نظيره فى الادب العربي ، كما تركها للمؤرخين ولعلماء الاجتماع من بعده وثائق وصورا حية نابضة عن المجتمع القرطبي الذى كان اديبنا يعيش فيه ويجيل فيه عينيه الفاحصتين . لقد ازداد ابن شهيد فى سنة 382 وكانت الاندلس المسلمة تعيش اذ ذاك تحت السلطة الفعلية للحاجب محمد بن ابي عامر الذى حجر على الخليفة الاموي هشام بن الحكم، واستبد بالحكم دونه وتلقب بالمنصور كما يفعل الملوك ، ويقول المؤرخون ان الاندلس لم تر من قبل المنصور استقرارا

كالذي رآنه في عهده ولم تتمتع قط بمثل ما تمتعت به في عهده من الامن والدعة والعز والرخاء .

وكانت قرطبة في تلك الحقبة من الزمن احدى المراكز الثلاثة للثقافة العالمية الى جانب القسطنطينية وبغداد ، وكانت تعتز بما حوته من مظاهر الرقي والحضارة اذ كانت فيها سبعون خزانة كتب وحوانيت شتى تباع فيها الكتب ومساجد وقصور . وازدهرت في هذا العهد جامعة قرطبة فاصبحت في عداد معاهد العلم الراقية في العالم العربي وقصدها الطلاب من نصارى ومسلمين ويهود لا من اسبانيا فحسب بل من بلدان اوربية اخرى ومن افريقيا وءاسيا .

وقد حكى عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب انه كانت بمدينة قرطبة في ذلك الوقت نحو 150 امراة تكتب القرءان بالخط الكوفي .

وقد ضمت العاصمة عدا الجامعة مكتبة كبيرة واسعة وبلغ عدد ما جمع فيها اربعمائة الف كتاب وقد بلغت درجة الثقافة بالاندلس مستوى عاليا في ذلك الزمن حدا بالعالم الهولاندي الكبير دوزي الى القول ان كل فرد تقريبا كان يحسن القراءة والكتابة وكان كلما احتاج امراء ليون او نافار او برشلونة الى جراح او مهندس او مغن او خياط وجهوا طلبهم لقرطبة فسار صيت العاصمة الاسلامية حتى اقاصي المانيا حيث وصفت راهبة سكسونية قرطبة بانها جوهرة العالم (1)

وكان العرب في ذلك الوقت ينظرون بعين الاحتقار والازدراء الى الاوربيين الذين قال فيهم صاعد بن احمد قاضي طليطلة: «فافراط بعد الشمس عن مسامتة رؤوسهم برد هواءهم وكثف جوهم فصارت كذلك امزجتهم باردة واخلاقهم فجة فعظمت ابدانهم وابيضت الوانهم وانسدلت شعورهم فعدموا بهذا دقة الافهام وثقوب الخواطر وغلب عليهم الجهل والبلادة وفشا فيهم العمى والغباوة »

وسياتي اليوم الذي تنقلب فيه الاحوال ، ويقول ابن شهيد :

« واوجع مظلوم لقلب وذي حجى
فتى عربي تزدريه اعاجم »

منذ الف عام كانت الاندلس اذن تعيش اياما من اسعد ايامها وحقبة مجيدة من اروع احقاب تاريخها .

في هذه الحقبة الرائعة ازداد اديبنا الكبير ابو عامر احمد بن عبد المالك بن شهيد ووضعته امه في قصر من قصور الزاهرة وسط عائلة عربية ارستوقراطية عرفت منذ كانت بولائها وخدمتها للامويين .

ومن الطبيعي ان ينشا ابن شهيد وهو ابن وزير (ابوه عبد المالك كان وزيرا للحاجب المنصور) ومن حفدة الوزراء (حيث ان احمد بن عبد المالك جد ابيه كان وزيرا للخليفة الاموي عبد الرحمان الثالث كما ان محمد بن عيسى جد جد ابيه كان حاجبا لعبد الرحمان الثاني) نشاة مترفة مدللة كان لها فيما بعد اكبر الاثر في توجيه مشاعره وطبع مداركه . وقد ازداد ابن شهيد في احد قصور الزاهرة وهي المدينة او الربض الجديد الذي بناه المنصور بشاطىء الوادي الكبير وانتقل اليه في سنة ثلاثمائة وسبعين وقد نشا ابن شهيد في قصر ابيه بين مظاهر الطبيعة الخلابة وكان قصر ابيه يطل على الوادي وما يحيط به من رياض وبساتين . وكان ابن شهيد وهو في سن الطفولة كثيرا ما يتردد على قصر الحاجب المنصور يدل على ذلك قوله في رسالة بعث بها للمؤتمن حفيد المنصور وقد كان احد اصدقائه :

« واقل ما امت به من مواتي المنصور جده اني نشات في حجره وربيت في قصره وارتضعت ثدى كرائمه واعتجرت رداء مكارمه واغتذيت من فيه اكلا زقتيه وماء علتيه فصرت من افراخ نعمائه الحمر الحواصل ولحقت باخوة ابنائه الغر العباهل » (2)

وقد كان لاديبنا ابن شهيد اخ اسمه موسى تبناه المنصور ونشا مع ابنائه وحفدته الى ان مات ودفن بالمقبرة العامرية وهذا ما يؤكد الصلة الوثيقة التي كانت بين الوزير عبد المالك اب ابن شهيد وبين الحاجب المنصور . قال ابن شهيد في الرسالة التي بعث بها لصديقه المؤتمن : « واخي موسى انتزعه المنصور من ابيه واحله محل بنيه فاجتمعت الافواه علي الثدى والتقت الشفاه على الدر المري وقبضه

(1) عن تاريخ العرب لفيليب حتى
(2) ص 163 من الجزء الاول من كتاب الذخيرة لابن بسام (مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر)

الله وقد رتع فى مراتعكم وجثم فى مضاجعكم فنحن عمار مقاصركم احياء وقطان مقابركم امواتا جمعنا بذلك عشرة العاجلة والآجلة وحصلنا على صحبة الدنيا والاخرة . »

وكم كان يحلو لابن شهيد ان يتذكر ما كان يتمتع به وهو فى طفولته من عطف ورعاية من جانب المنصور وابنه المظفر وفى هذا الحديث عن طفولته الى جانب حنينه الى ايامها العذبة نوع من الاعتزاز بأرستقراطيته وانتسابه للملوك « مدح الملوك وكان ايضا منهم » .

« وقضت بعز النفس مني دوحة من عامر اسجت من اغصانها » .

قال ابن شهيد :

« صرت بين يدي المنصور فى يوم مطير وانا ابن خمس اذكر ذلك ذكرى لما كان بالامس ... ودعا الناصر ومعه فتى سمعتهم يكنونه ابا شاكر فقال له : احمل الى امك وارفق به فى امك .. وامتطيت العاتق الكريم على عين الملك الزعيم ومرا بي حتى انزلاني بين يدي السيدة فاستوت بي على سريرها وعلى مفرقها اكليل من مهابة اميرها .. وطار الخبر بقدومي فى مقاصير العقائل وحجرات الكرائم فارقلي من تلك المصانع تطير بهن اجنحة الصنائع فيالها من كسي وخلع وغرائب وبدع ، وامرت السيدة بالف تحمل معي عن نفسها وثلاثة ءالاف عن سيدها وكانت لي فيه ءامال فى التوزيع على الخدمة والعمال من الصبيان وصبايا الجيران » (3).

وقد يكون ابن شهيد تعرف منذ ذلك الوقت الى صديقه الحميم ابن حزم لانهما كانا يعيشان معا فى الزاهرة بجوار قصر المنصور وكان يتردد كل منهما الى قصر المنصور وكانا متقاربين فى السن ولكن رغم اجتماع ابن حزم وابن شهيد وتعرفهما مع بعضهما فى سن الطفولة المبكرة فان اتصالهما مع بعضهما لم يكن اتصالا وثيقا لانهما لم يتلقيا مباديء القراءة والكتابة فى نفس المكان ولا بنفس الطريقة فابن شهيد وجهه ابوه الى الكتاب كما يفهم من صدر رسالة التوابع والزوابع بينما ابن حزم عومل من جانب ابيه معاملة فيها كثير من التدلل حيث انه تلقى مباديء القراءة والكتابة على يد النساء من اللائي كن يعشن فى قصر ابيه .

وقد يكون الباعث على عدم توجيه ابن حزم الى الكتاب هو ضعف بنيته واعتلال صحته من دون ان يكون هناك اي اثر للتدلل ولكن كيفما كان الامر فوالد ابن حزم كان ارفق بابنه من عبد المالك ابن شهيد الذى اراد ان يصد ولده صاحبنا ابا عامر عن حياة النعيم والدعة وان يعوده على حياة الشظف والقسوة وذلك لان عبد المالك بعدما قضى معظم حياته فى النعيم والخلاعة زهد في ءاخر عمره فى الدنيا وتنسك ونظر الى الآخرة بعد ابلاله من مرض الم به وبدا له من الحزم ان يصد ابنه عن مشارع الحياة العذبة قال ابن شهيد : « فكسر همتي وحلق لمتي وسلبني بزي وعراني من خزي فكانت افدح نازلة نزلت بصبوتي واقلق حادثة سلبت رونق بهجتي » .

ويحكي ابن حيان فى تاريخه الكبير ان والد صاحبنا كانت سنه يوم توفي السبعين وكان له بالانذار بها رؤيا عجيبة وذلك انه راى فى منامه صدر نشاته انه كان يبلع سبعين دينارا ذهبا يعدها عدا كلما بلع منها واحدا اتبعه بآخر الى ان تمت السبعون فقصت له على احذق معبر كان فى الوقت فاولها عمرا عدد كل ما بلع منها اعجبت عبد المالك فى حد الشباب ثم ساءته لما دنا منها فجعل يشكك نفسه فى عدد تلك الدنانير ويقول لنا احسبها كانت اكثر مما سبق الي فيلبس امرها عليه طالب رضاه الى ان غافصته المنية بعد استكمالها بشهور فجزع للموت جزعا عظيما (4) »

ومن الواضح ان هذه الرؤيا العجيبة وتاثيرها على الوزير عبد الملك تفيدنا كثيرا فى معرفة نفسيته الشهوانية المتكالبة على حب الدنيا والتمتع بها وقد نغصت هذه الرؤيا كما ذكرنا شيخوخة الوزير عبد المالك بن شهيد بعدما شجعته فى شبابه وكهولته على الانغماس حتى اخمص اذنيه فى الشهوات والموبقات .

وفى الوقت الذى بدا فيه صاحبنا يتيقظ لما يحيط به من نعيم وترف مفرط وتتفتح ملكاته لما يحيط به من جمال فى هذا الوقت بالذات اراد ابوه العجوز المستسلم لياسه واوهامه ان يعامله معاملة لا تليق بامثاله من ابناء الوزراء .

---

(3) ص 164 من نفس المصدر .

(4) ص 339 من الجزء الاول من كتاب الصلة لابن بشكوال ط 1374 فى ترجمة عبد المالك بن احمد بن عبد المالك بن شهيد

واذا عرفنا ان صاحبنا ابا عامر كان فى هـذا الوقت هو الولد الوحيد الذى بقي لابيه بعدما توفي جميع اخوته الذكور وعرفنا ان عبد المالك لم يرزقه الا وهو عجوز فى الستين من عمره ادركنا ان طفلنا الفنان لم يكن له ليستسلم لمشيئة والـده وهـي لا تتلاءم مع وضعيته الاجتماعية . قال ابن شهيـد « ولقيني الوزير ابن مسلمة وقد عاد ابي اثر ابلال وعند نقوه من اعتلال فسألني عن الحال وعما شغل البال فلم يكن جوابي غير النشيج والعجيج وسوى العويل والضجيج ولقي المظفر على حينه وادى اليه ما شاهد مني فوجه عني فلما صرت بين يديه امر بي فالبست ثياب الحرير وضمخت بنفاح العبير وحملت على فرس بسرجه ولجامه ينهل من اعطافه ماء جمامه واتبع ذلك الف دينار فى طبق كانها عيون النرجس الصفر الحدق وعقد لي على الشرطة وكانت لسني ارفع خطة فانصرفت وانا انظر عطفي عن شوس وقد ضاق صدري على ابي عن سعة نفس» (5).

وفى سنة 392 توفي الحاجب المنصور وتولى مقاليد الامور بعده ابنه الاكبر الذى اختار لنفسه لقب المظفر ، وبقي المظفر هذا فى الحكم ما يقـرب من سبع سنوات ، وقد بقي ابن شهيد فى عهـد المظفـر يتردد على قصر بنـي عامـر وتمكنـت حينئـذ عرى الصداقة بينـه وبين حفـدة المنصـور ومن الراجح ان اديبنا ابتلي فى تلك الفترة بلذة المطالعـة وكان يقرا الكتب التى كانت تروقه ككتب الجاحـظ والهمذاني

كما كان يجلس فى حلقات الدروس التى كانت تنعقد بالجامع الاعظم وكان يحفظ كثيرا من الاشعار للمتنبي والبحتري وابي نواس وللشعراء الجاهليين وقد بدا اديبنا يشعر منذ ذلك الوقت برغبة قوية فى ان يكتب ويقرض الشعر كما اعرب عن ذلك هو نفسه فى « رسالة التوابع والزوابع » حيث يقول : «كنت ايام كتاب الهجاء احن الى الادباء واصبو الى تاليف الكلام فاتبعت الدواوين وجلست الى الاساتيذ فنبض لي عرق الفهم ودر لي شريان العلم .. الى ان يقول وكان لي اوائل صبوتي هوى اشتد به كلفي ثم لحقني بعد مل فى اثناء ذلك الميل (ولعل ابن شهيد يعني هنا علاقة غرامية كانت بينه وبين احدى الجـواري اللائي كن يعشن بقصر ابيه) قال ابن شهيد واتفق ان مات من كنت اهواه مدة ذلك الملل فجزعت واخذت فى رثائه يوما فى الحائر (6) وقد ابهمت على ابوابه وانفردت فقلت :

تولى الحمـام بظبـي الخـدور
وفاز الـردى بالغـزال الغريـر

الى ان انتهيت الى الاعتذار من الملل الذي كان فقلت :

وكنـت مللتـك لا عـن قـلـى
ولا عن فـساد جرى فى ضميري
كمثـل مـلال الفتـى للنعيـم
اذا دام فيـه وحـال السـرور

والفتى هنا فى البيت الاخير هـو ابن شهيـد بطبيعة الحال وهو الذى مل من النعيم ومـن دوام السرور هذا النعيم الذى رتع فيه اديبنا الاندلسي عندما كان طفلا وشابا يافعا متمتعا بتقديـر وعطـف الامراء والوزراء عائشا فى اكناف القصـور وبيـن رباض قرطبة ومدينتي الزاهرة والزهراء .

ولم يكن يخطر ببال اديبنا الغر المدلل ان ماضيه الباسم السعيد سيخلفه حاضر ومستقبـل يشعـر فيهما بالخيبة والالم .

ذلك ان المظفر الذى كان يحدب عليه والـذى انعم عليه بلقب وزير مات فى سنة 399 وكان ابـن شهيد عندئذ فى نحو السابعة عشرة من عمره .

ويقول المؤرخون ان المظفر مات مسموما سمه اخوه عبد الرحمان بن المنصور ليخلو له الجو من بعده ويتقلد من بعده زمام الامور .

وقد جرت هذه القتلة الشنيعة كثيرا من المحن على الاندلس المسلمة وفتحت سلسلة حلقات الغـدر والخيانة ودشنت عهد الفوضى والفتن وقضت علـى وحدة الاندلس وقسمتها الى عدة دويلات حملت بعد ذلك اسم ممالك الطوائف .

تولى الامر اذن بعد المظفر اخوه عبد الرحمـان ولم يكد يمر شهر على استيلائه على مقاليد الامـور حتى اقدم على شيء لم يقدم عليه حتى جده المنصور العظيم لقد اراد عبد الرحمان ان يتربع على عـرش الخلافة واراد القضاء على دولة الامويين بالاندلـس واستغل ضعف الخليفة هشام وعدم وجود ابناء ذكور

(5) ص 164 من الذخيرة لابن بسام
(6) الحائر = البستان

عنده فطلب منه ان يعينه وليا للعهد وخضع هشـــام الضعيف لارادة عبد الرحمان وعينه وليا للعهد .

غير ان حزب الامويين كان لعبد الرحمان بالمرصاد وكان رد فعلهم عنيفا قضى على كل آمال واحلام هذا الحاجب الطائش .

ثار الامويون اذن ضد تعيين عبد الرحمان وليا للعهد وخلعوا الخليفة المستسلم هشام وسجنوه وبايعوا احد بني اعمامه محمد ابن هشام المهدي .

وقد ايد الفقهاء ما قام به الامويون ولم تدفعهم لذلك غيرة على الامويين ولا اطلاعهم على الجريمة التي ارتكبها عبد الرحمان في حق اخيه وانما دفعهم لذلك عدم استساغتهم لان يتسلم مقاليد امور المسلمين امير امه نصرانية بل اميرة اسبانية ابوها هو ملك النفار ، وقد اعطى الفقهاء لعبد الرحمان من اجل ذلك لقب الشنجول (Sanchol) ولم يقف الفقهاء عند حد خلع هشام وتعيين محمد بن هشام خلفا له بل ما زالوا يحرضون المهدي الى ان قبض على الشنجول عبد الرحمان واجتز راسه وقضى على الحكم العامري نهائيا بعدما دام خمسة وثلاثين عاما عاشت الاندلس تحته آمنة معززة الجانب وكتب فيه الفردوس المفقود صفحة من اروع صفحاته التاريخية

وليس من شك في ان القضاء على حكم الدولة العامرية بهذه الصورة زعزع من امل ابن شهيد في أن يلعب في يوم من الايام الدور السياسي الذي لعبه ابوه عبد المالك مع مؤسس هذه الدولة المنصور العظيم وليس من شك في انه راى مطامحه السياسية تنهار من جراء الفتن التي صحبت استيلاء محمد المهدي على العرش هذه الفتن التي دامت اربع سنوات وكان طرف النزاع فيها هو حزب الامويين الذين نصبوا الخليفة محمد بن هشام كما ذكرنا وحزب البربر الذين كانوا يرشحون للخلافة سليمان ابن الحكم المستعين ، وقد انتصر حزب البربر على حزب الامويين في الاخير ودخل مرشحهم سليمان المستعين الى مدينة قرطبة في سنة 403 وعاث البربر في العاصمة بعد دخولهم اليها وهدموا قصورها وخربوا عروستيها مدينتي الزاهرة والزهراء .

والتفت ابن شهيد الى معالم قرطبة وراى كيف حالت عن حالها وخربت دورها وقصورها وانقضت معاهد صبوته فيها ولم يستطع فتانا ان يواجه الصدمة بعز وثبات كما فعل صديقه ابن حزم بل انزوى بدار عائلته المعروفة بدار ابن شهيد . وهناك لجأ الى الشعر وبكى ماضيه الباسم . ومن جملة شعره في رثاء قرطبة قوله من قصيدة طويلة اوردها ابن الخطيب في كتاب اعمال الاعلام :

فلمثل قرطبة يقل بكاء من
يبكي بعين دمعها متفجر
دار اقال الله عثرة اهلها
فتبربروا وتغربوا وتنصروا
في كل ناحية فريق منهم
متفطر لفراقها متحير
عهدي بها والشمل فيها جامع
من أهلها والعيش فيها اخضر
ورياح زهرتها تفوح عليهم
بروائح يفتر منها العنبر
والقصر قصر بني امية وافر
من كل امر والخلافة اوفر
والزاهرية بالمراكب تزهر
والعامرية بالكواكب تعمر
والجامع الاعلى يغص بكل من
يتلو ويسمع ما يشاء وينظر
ومسالك الاسواق تشهد انها
لا يستقل بسالكيها المحشر
يا جنة عصفت بها وباهلها
ريح النوى فتدمرت وتدمروا
آسي عليك من الممات وحق لي
اذ لم ازل بك في حياتك افخر

وكما بكى ابن شهيد معالم قرطبة ورثى ماضيها الزاهر فقد دعته الرغبة في اصطفاء سليمان المستعين لانه كان اديبا شاعرا ولان ابن شهيد كان يامل ان يجد فيه سندا ومشجعا وحاميا ، دعته الرغبة الى كتابة عدة قصائد في مدحه ولكن الادباء الذين كانوا في بلاط المستعين لم يقتنعوا بان ما كان ينتجه ابن شهيد من شعر كان من انتاجه حقا وقد تالم ابن شهيد لذلك كثيرا واشتكى منه في رسالة التوابع والزوابع وقال ان اول من انتضى عليه لسانه عند المستعين هو رجل اسمه ابو محمد ويرجح الاستاذ بطرس البستاني ان يكون ابو محمد هذا هو علي بن حزم الفيلسوف الشهير ولست اشاطر الاستاذ البستاني هذا الراي واكاد اكون متيقنا ان ابا محمد هذا هو الشاعر الاندلسي الكبير ابن دراج القسطلي (7)

(7) ذلك ان ابن حزم كان يقدر ابن شهيد وينافس به ادباء المشرق كما ورد في رسالته في فضائل الاندلس .

وعندما بلغ لابن شهيد ما كان يشيعه عليه ابن دراج القسطلي عند المستعين انشده قصيدة يقول فيها :

وبلغت اقواما تجيش صدورهم
علي واني منهم فارغ الصدر
اصاخوا الى قولي فاسمعت معجزا
وغاصوا على سري فاعياهم امري
فقال فريق ليس ذا الشعر شعره
وقال فريق ايمن الله ما تدري
اما علموا اني الى العلم طامح
واني الذي سبقا على عرفه يجري
وما كل من قاد الجياد يسوسها
وما كل من اجرى يقال له مجري
فمن شاء فليخبر فاني حاضر
ولا شيء احلى للشكوك من الخبر

ولم تنته الفتن بالاندلس ولم تستقر الامور باستيلاء المستعين على العرش الا فترة قصيرة ، وبعدما اعان البربر سليمان المستعين على التربع على اسلافه انفضوا بعد ذلك من حوله وانضموا حول علي بن حمود الادريسي المغربي الذي كان عينه المستعين حاكما على مدينة سبتة الخاضعة عندئذ للحكم الاندلسي ، واستطاع علي بن حمود باعانة البربر الدخول الى قرطبة والاستيلاء على مقاليد الامور بها بعد قتله للمستعين وذلك في سنة 407 .

وقد اتصل ابن شهيد بعلي بن حمود مثلما اتصل قبله بسليمان المستعين ومدحه بقصيدة طويلة منها هذه الابيات التي تعبر اصدق تعبير عن مرارة الشاعر ويأسه :

اني امرؤ لعب الزمان بهمتي
وسقيت من خمر الخطوب دهاقها
وكبوت طرفا في العلا فاستضحكت
حمر الانام فما تريم نهاقها
واذا ارتمت نحوي المنى لانالها
وقف الزمان لها هناك فعاقها
واذا ابو يحيى تأخر نفسه
فمتى اومل في الزمان لحاقها
الميسى ذهبية من فضله
لثت العيون فلم تطف رقراقها
والمانعي من صرف دهر بعد ما
قلبت الى الحادثات حداقها

ولكن لم يدم تربع علي بن حمود على العرش الا عامين ثم قام بعده بالامر اخوه ابو القاسم الذي بقي متربعا على العرش اربع سنوات ويظهر ان ابن شهيد لم يتصل بالملك الجديد اذ اننا لم نعثر لاديبنا في المصادر التي بأيدينا على اي شعر يمدحه به.

والغالب على الظن ان ابن شهيد ابتعد في زمن القاسم من الملك الجديد وحاشيته واقتصر في هذه الفترة التي دامت اربع سنوات على نظم الشعر وكتابة الرسائل وقضاء اكبر قسط من اوقات فراغه عند صديقه ابن مروان الزجالي الذي كان يملك روضا جميلا وصفه لنا الفتح ابن خاقان في قلائده بهذه العبارات المسجوعة .

« وهذا الحير من ابدع المواضيع واجملها واتمها حسنا واكملها صحنه مرموص في البياض يخترقه جدول كالحية النضناض به جابية كل لجة فيها كابية وقد قرنست بالذهب واللازورد سماؤه وتأزرت بهما جوانبه وارجاؤه والروض قد اعتدلت اسطاره وابتسمت من كمائمها ازهاره ومنع الشمس ان ترمق ثراه ، وتعطر النسيم بهبوبه عليه ومسراه .. وزاد ابن خاقان يقول : وكانت لابي عامر بن شهيد به فرج وراحات اعطان فيها الدهر ما شاء وكان هو وصاحب الروض اليفي صبوة وحليفي نشوة عكفا فيه على جريالهما وتصرفا بين زهوهما واختيالهما » (8).

ويظهر ان ابن شهيد لم يعد يداعبه في ذلك الحين الخاطر الذي كان يمنيه من قبل في ان يلعب في يوم من الايام الدور السياسي الذي لعبه ابوه واجداده في العصور السالفة بل انصرف الشاعر وقد اقتنع بفشله في هذا الباب الى تأليف القصائد الشعرية وكتابة الرسائل ولكن اذا كان الله قد كفاه شر الاشتغال بالسياسة وما تجره من حزازات فقد بلاه بالنقد اللاذع الذي كان يوجهه له ادباء عصره وعلى راسهم ابن الحناط الاعمى .

ومن حسن حظ المعجبين بابن شهيد انه كان عرضة لنقد معاصريه لان هذا النقد الذي كان لا يتحمله صدر اديبنا هو الذي كان يدفعه الى كتابة رسائله النثرية نقراها اليوم فتستفزنا بما تحمل من زهو وكبرياء وتثير ضحكنا بما تشتمل عليه من صور كاريكاتورية لاعدائه وخصومه .

(8) ص 152 ط 1284 لكتاب « قلائد العقيان » للفتح بن خاقان .

ومما زاد فى نقمة ابن شهيد على معاصريه انه راى بعض من كان يعاشرهم من فتيان العامريين بقصور الزاهرة قد صاروا سادة فى شتى نواحي الاندلس فاخذ يحس محققا او ظانا ان اصدقاءه تنكروا له ونسوه وقد اودع ابن شهيد كثيرا من عتابه على اصدقائه فى اشعاره ورسائله .

تخونتني رجال طالما شكرت
عهدي وانثت بما راعيت من ذمم

وكان ابن شهيد كلما راى خصومه يصبون عليه وابل نقدهم .

ادور فلا اعتام غير محارب
واسعى فلا القى امرؤ لي يسالم

كلما التجا الى الخمر ليغرف فيها همومه واحزانه فصار كما يقول الحجاري « الزم للكاس من الاطيار بالاغصان واولع بها من خيال الواصل بالهجران وغلبت عليه البطالة كما قال ابن حيان فلم يحفل فى ايثارها بضياع دين ولا مروءة فحط فى هواه شديدا حتى اسقط شرفه ووهم نفسه راضيا فى ذلك بما يلذه فلم يقصر عن معصية ولا ارتكاب قبيحة »

ومن شأن هذا السلوك من جانب اديبنا ان يسيء الى سمعته حتى ان النساء من اعيان قرطبة كن اذا لقينه يولين سريعا ويهربن منه ويحكي الفتح ابن خاقان فى هذا الصدد « ان ابا عامر بن شهيد كان له بباب الصومعة من الجامع موضع لا يفارقه اكثر نهاره فقعد فى ليلة 27 من رمضان فى لمة من اخوانه وقد حفوا به وهو يخلط لهم الجد بهزل واذا بجارية من اعيان اهل قرطبة ترتاد موضعا لمناجاة ربها وامامها طفل صغير فلما وقعت عينها على ابي عامر ولت سريعة خيفة منه وانصرفت وفى هذه الحادثة يقول ابن شهيد :

وناظرة تحت طي القناع
دعاها الى الله والخير داع
سعت خيفة تبتغي منزلا
لوصل التبتل والانقطاع
فجاءت تهادى كمثل الرؤوم
تراعي غزالا بروض اليفاع
اتتنا تبختر فى مشيها
فحلت بواد كثير السباع
وريعت حذارا على طفلها
فقلت ايا هذه لا تراعي
غزالك تفرق منه الليوث
وتفزع منه كماة المصاع
فولت والمسك فى ذيلها
على الارض خط كظهر الشجاع

وكان صاحبنا كلما تقدمت به السن كلما ازداد انغماسا فى شرب الخمر واطلاق العنان للشهوات وربما كان يجد رغبة ماكرة فى استفزاز معاصريه والتعبير لهم بسلوكه وبشعره عن احتقاره لهم وتذمره منهم وانتقامه منهم .

ارى حمرا فوق الصواهل جمة
فابكي بعيني ذل تلك الصواهل
حبوا بالمنى دوني وغودرت دونهم
أرود الاماني فى رياض الاباطل
وما هي الا همة اشجعية
ونفس ابت لي من طلاب الرذائل

وكان ابن شهيد يصب وابل احتقاره على فقهاء عصره وادبائه وجنوده :

وربت كتاب اذا قيل زوروا
بكت من تانيهم صدور الرسائل
وناقل فقه لم ينر الله قلبه
يظن بأن الدين حفظ المسائل
وحامل رمح راح فوق مضائه
به كاعبا فى الحي ذات مغازل

وكان ابن شهيد كما قال فيه منافسه وخصمه ابن الحناط « شامخا بانفه ثانيا من عطفه متخيلا انه قد احرز السباق فى الآداب واوتي فصل الخطاب فهو يستقصر اساتيذ الادباء ويستجهل شيوخ العلماء (9) .

وقد ادت بابن شهيد سلاطة لسانه واجهاره بالفحشاء والمنكر واحتقاره لوجهاء عصره الى تاليب الناس ضده الشيء الذى ادى به الى دخول السجن بعد ذلك بقليل .

ففي سنة 412 قام يحيى بن علي ضد عمه القاسم وجاء من طنجة لينازعه الملك وبعد قتال دام

(9) ص 385 من الجزء الاول من كتاب الذخيرة لابن بسام فى ترجمة ابن الحناط

مدة شهور استطاع الدخول الى قرطبة فى سنة 413 واستولى حينئذ على الحكم وتلقب بالمعتلى وربما اراد المعتلى ان يستميل الفقهاء الى جانبه فدفعه ذلك الى القبض على كل ماجن سكير مستهتر بالشعائر الدينية والقى القبض على ابن شهيد من جملة من القي عليهم القبض واودع اديبنا فى السجن ليضيف ءالاما جديدة الى ءالامه الماضية وليتعرف الى السجن بعدما تعرف الى القصور وليترك لنا صفحة جديدة فى وصف السجن والسجانين يتمم بها الصورة التى رسمها للمجتمع القرطبي فى عصره ومن داخل السجن كتب ابن شهيد الى المعتلي رسالة فى صفة السجن والسجان والحق بها قصيدة يشتكي فيها مما كان يعانيه من ضيق شديد ختمها بهذين البيتين :

حنانيك ان الماء قد بلغ الربى
وانحت رزايا ما لهن عديد
ظمئت الى صافي الهواء وطلقه
فهل لي يوما فى رضاك ورود

ولم يطل تربع المعتلي على العرش مدة طويلة فقد قرر بمحض ارادته ان يتخلى عن قرطبة وان يتوجه الى مالقة .

واراد اهل قرطبة بعد خروج يحيى المعتلي ان يبايعوا واحدا من بني امية فقدموا عليهم عبد الرحمان ابن هشام بن عبد الجبار الذى تلقب بالمستظهر .

وربما ظن ابن شهيد اذ ذاك انه سينتقم لنفسه من الدهر ومن حساده بعدما استولى المستظهر على الملك كان الخليفة الجديد كان صديقا حميما لاديبنا وقد عين المستظهر بالفعل اديبنا وزيرا من وزرائه الذين كان من بينهم الفيلسوف ابن حزم وابن عمه ابو المغيرة ولكن لم يدم ملك المستظهر الا اربعين يوما . وقد قال ابن حيان فى هذا الملك الشاب :

« وكان رفع مقادير مشيخة الوزراء من بقايا مواليد بني مروان منهم احمد ابن برد وجماعة من الاغمار وكانوا عصابة يخل بها الفتاء ويذهب بها العجب فقدمهم على سائر رجاله فاحتقد بهم اهل السياسة فانقضت دولته سريعا منهم **ابو عامر بن شهيد** فتى الطوائف كان بقرطبة فى رقته وبراعته وظرفه خليعها المنهمك فى بطالته واعجب الناس تفاوتا ما بين قوله وفعله واحطهم فى هوى نفسه واهتكهم لعرضه واجرئهم على خالقه (10)

ويفهم من كلام ابن حيان هذا ان تعيين المستظهر لابن شهيد وزيرا له كان من الاسباب التى اغضبت انصاره فانفضوا من حوله وقتلوه وعينوا خلفا له الخليفة المستكفي بن عبد الرحمان والد ولادة عشيقة ابن زيدون المشهورة .

واضطهد المستكفي معظم الرجال البارزين من الساسة القدماء ومن المفكرين وغادر كثيرون منهم قرطبة ولجاوا الى بلاط يحيى حمود بمالقة .

ومن المحتمل ان ابن شهيد توجه هو ايضا الى مالقة ليجتمع بالمعتلي يحيى بن حمود خصوصا بعد ان اشتهر بهجوه للمستكفي وقوله فيه فى قصيدة من جملة قصائده فى هجوه :

يا كسرة دهمتنا ليس تنجبر
وسبة لحقتنا ما لها عذر
امسى قدار يسوس الامر اجمعه
لقد تانق فيما ساءنا القدر
لو ان اشياخنا كانت لهم همم
تبقى رياستنا لم تراس البقر
لكنهم ، وقضاء الله محتمل
ليسوا من الناس الا انهم صور

ولما عزم ابن شهيد على فراق قرطبة للتوجه الى مالقة كتب قصيدة يقول فيها :

ارى اعينا ترنو الي كانما
تساور منها جانبي اراقم
سلام عليكم لا تحية شاكر
ولكن شجى تنسد منه الحلاقم
عليكم بداري فاهدموها دعائما
ففى الارض بناؤون لي ودعائم
لئن اخرجتني عنكم شر عصبة
ففي الارض اخوان علي اكارم
وان هشمت حقي امية عندها
فهانا على ظهر المحجة هاشم
ولا عز من تلك القلانس جانب
اذا عرفت حقي هناك العمائم

ولم يفتا القرطبيون ان سئموا من ولاية المستكفى العاطلة الماجنة فنادوا بخلعه فخلع فى سنة 416 ومضت بضعة اشهر والحكومة فى قرطبة فوضى لا ضابط لها واخيرا اجمع القرطبيون على رد الامر

---

(10) ص 36 من الجزء الاول من كتاب الذخيرة لابن بسام

لبني امية وكان عميدهم في ذلك الوزير ابو الحزم جهور بن محمد بن جهور واتفقوا على مبايعة هشام ابن محمد الذي كان ملتجئا بمدينة البونت في شمال شرقي الاندلس وبعث اليه اهل قرطبة بالبيعة وهو بمقره بالبونت فتلقاها في ربيع الاخر سنة 418 وتلقب بالمعتمد بالله وبقي بمقره بالبونت مدة سنتين وسبعة اشهر وهو يخطب له بقرطبة ثم قدم اليها في شهر ذي الحجة سنة 420 فجددت له البيعة واستمر في كرسي الخلافة عامين آخرين الى ان اشتهر بمجونه وقوى استبداده فخلع ، ونودي في سائر احياء قرطبة وارباضها بأن لا يبقى بها احد من بني امية ولا يأويهم أحد .

وهذه السنوات الاربع التي كان القرطبيون يدينون فيها بالولاء لهشام المعتمد ظل ابن شهيد في قرطبة يعيش عيشة اللهو والبطالة والخلاعة وكان يصادق في ذلك الوقت حفيد المنصور ابا عامر بن المظفر .

وكما كان ابن شهيد متصلا بأبي عامر بن المظفر فقد كان متصلا كذلك بابن عمه عبد العزيز بن عبد الرحمان شنجول وكان يكتب له رسائل طويلة يبعثها له الى بلنسية حيث كان مقر ملكه وكان ابن شهيد يعتني كثيرا بالرسائل التي كان يبعثها لعبد العزيز وكان يضمنها كثيرا من قصائده ، ويظهر ان اديبنا كان يريد من عبد العزيز ان يقرا هذه الرسائل في بلاطه حتى اشتهر اسمه في امارة بلنسية .

ومن بين الرسائل التي بعثها ابن شهيد الى المؤتمن رسالة يذكره فيها بوعد كان قطعه المنصور على نفسه وهو ان يعطي لوالد صاحبنا ضيعة بتدمير وابن شهيد يطلب في هذه الرسالة من المؤتمن ان ينجز ما وعد به جده .

ويقول ابن شهيد في هذه الرسالة :

« ولم يبق من النعمة غير مصاصة بلة قد ءان لها ان ترتشف وتفاهة ثمرة قد حان لها ان تخترف وعرج لمآله والنظر لعاقبة حاله على استخراج ما يمكن من اصول نعمتكم ليصون بها جمة وجنته ويفر عليها نطفة صفحته اذ لا سبيل الى التعريج على غير ذلك قطعا ولا الى الالتباس بسواه حتما ولو لحس التراب وذاب في الثياب فانه يتنفس عن نفس همتها الكوكب وهمها الغيهب فلولا همتها لاظلم الدهر ولولا همها لاسفر الامر (11)

واذا عرفنا مقدار البذخ الذي عاش فيه ابن شهيد في طفولته وشبابه وعلمنا ما تركه له ابوه من مال وافر وماشية لا حصر لها واراض ودبار ومراكب ادركنا مقدار اسرافه وقساوته على نفسه وطبيعة الاسراف هذه كانت الطابع البارز لنفسية ابن شهيد فهو يسرف في انفاق المال وهو يسرف في اللهو والشهوات وهو يسرف في الكتابة (قال ابن الحناط : الاسهاب كلفة واخونا ابو عامر يسهب نثرا ويطيل نظما) ويخيل لي ان طبيعة الاسراف هذه تدل على حبه الشديد للحياة كما تدل على حبه الشديد لاشاعة الحياة حوله واشاعة اسمه وذكره بين الناس وكما كان ابن شهيد ينفق المال على نفسه بدون حساب فقد كان يجد لذة كبيرة في البذل والعطاء ومن القصص المشهورة التي تدل على ظاهرة اسرافه في الكرم قصة رواها صاحب المطرب عن رجل من طليطلة قصد ابا عامر فالفى لديه صنوف الاكرام بل وهبه ابو عامر دارا في قرطبة ومركبا وخادما ونعما كثيرة وفرشا وثيرة (12)

وما انفك معشوق الثناء يمده
بشر وترحيب وبسط بنان
الى ان تشهى البين من ذات نفسه
وحن الى الاهلين حنة حاني
فاتبعته ما سد خلة حاله
واتبعني ذكرا بكل مكان

ويظهر لي ان طبيعة الاسراف عند ابن شهيد كانت تنمو وتتقوى كلما تقدمت به السن ، وقد كان من نتائج اسراف ابن شهيد في انفاق المال وفي الانغماس في الشهوات وفي الاسهاب في الكتابة ان قضت تقريبا على كل ما كان يملك وان اساءت جدا الى صحته وسمعته وان البت ضده الفقهاء والادباء .

وقد بدا ابن شهيد حينئذ يشكو ويكثر من التذمر من الصمم الذي بدا يستفحش فيه ولا ندري متى اصيب اديبنا بهذا الداء وعلى اي حال فقد كان نكبة على صاحبنا الذي كان يريد ان يتمتع بجميع حواسه. وبدا ابن شهيد حينئذ يشعر ايضا بامراض ضيق

(11) ص 166 من الجزء الاول من كتاب الذخيرة لابن بسام
(12) انظر ترجمة ابن شهيد في كتاب المطرب لابن دحية

التنفس واحتد مزاجه ككل مريض مصاب بضيق التنفس واثناء هذا المرض كتب اروع رسائله وعلى راسها رسالة التوابع والزوابع .

واعتقد ان السبب العميق الذى دفع ابن شهيد الى كتابة رسائله الاخيرة الرائعة هو الدعاية لادبه ولذلك يورد اديبنا عدة قصائد ضمن هذه الرسائل كما يعتني اعتناء كبيرا باسلوبها . وتعتبر رسائل ابن شهيد بمثابة صحف سيارة كان يوجهها الى مختلف جهات الاندلس لانه بعدما يئس من الاشتغال بالسياسة توجه بكل اهتمامه الى الانتاج الادبي وصار همه الوحيد هو ان يحقق لنفسه المجد الادبي .

ويخيل لي ان رسالة التوابع والزوابع ما كانت لتصل الى الشرق العربي فى حياة مؤلفها ويطلع عليها الادباء وعلى راسهم المعري فى اغلب الظن وينقل منها الثعالبي القصائد الشعرية والقطع النثرية التي ادرجها لابن شهيد فى يتيمة الدهر ، لم يكن ذلك كله ليتم لولا سعي اديبنا الاندلسي السعي الحثيث لكي يتحقق ذلك (13) .

وتعتبر رسالة التوابع والزوابع احسن ما كتبه ابن شهيد ويعتبرها هو نفسه احسن انموذج يقدمه للادباء من بعده .

فرسالة التوابع والزوابع كما سماها ابن شهيد فى المرحلة الاولى او شجرة الفكاهة وهو الاسم الجديد الذى اعطاه لها بعدما اضاف اليها الفصول التى تتعلق بنقاد الجن وبحيوانات الجن (البغال ويعني بهم ولا شك الوشاحين والحمير وربما يعني بهم الزجالين والاوزة وربما يعني بهم الجدليين) هي رسالة وان تكن موجهة الى ابي بكر بن حزم فى الظاهر فهي فى الحقيقة موجهة الى جميع الناس وعلى راسهم الثعالبي ، وقد جمع فيها ابن شهيد احسن قصائده واروع ما دبجه قلمه من فصول نثرية وتعتبر هذه القصائد والقطع النثرية كوثائق يقدمها ابن شهيد للادباء الكبار الخالدين الذين سبقوه حتى يعترفوا له بالاسبقية ويضعونه فى مصاف الخالدين معهم ويذهب العجب بابن شهيد والثقةبنفسه الى حد انه يعتبر نفسه على راسهم جميعا .

كان ابن شهيد اذن يسعى نحو خلود اسمه وخلود ادبه وكان همه الوحيد الذى يطغى على ما سواه هو رغبته فى هذا الخلود الادبي وقد حقق هذه الرغبة او هذا الحلم فى رسالة التوابع والزوابع وجعل الادباء الخالدين يعترفون ويقرون بعبقريته ونبوغه . وهنا يلتقي ابن شهيد بدانتي فقد كان يراود الشاعر الايطالي حلم قوي هو ان تتم على الارض اقامة الامبراطورية الرومانية من جديد وليست الكوميديا الالاهية الا حلما تحقق فيه امل دانتي وهناك شيء ءاخر تلتقي فيه الكوميديا بالرسالة وهو ان ابن شهيد انتقم لنفسه من خصومه وجعلهم كلهم يتدحرون امامه وهذا بالذات ما حققه دانتي فى الكوميديا حيث ادخل جميع خصومه للنار .

واذا عرفنا ان الكوميديا لم يكتبها دانتي الا بعد ما كتب La Vita Nova وان لافتا نوفا هذه تعتبر مقدمة للكوميديا وانها اشبه ما تكون برسالة التوابع والزوابع فهي تضم قصائد وتتحدث عن وقائع المقصود منها تقديم هذه القصائد كما انها تحتوي على كثير من الرموز مثلما تحتوي عليها رسالة التوابع والزوابع امكن لنا ان نتساءل هل كان لابن شهيد تأثير على دانتي (ومن يدري فربما ارسل ابن شهيد نسخة من رسالته الى صقلية وانها ترجمت هناك فاطلع دانتي على ترجمتها) .

اما عن تأثير ابن شهيد على المعري فمن الراجح ان هذا الاخير الف رسالة الغفران بعد ابن شهيد وأن اساس الفكرة عند كل من ابن شهيد وابي العلاء ودانتي واحد .

وقد انطق ابن شهيد الجن بكل ءارائه فى الادباء والشعراء وفى اعدائه وخصومه وفرغ كل ما كان يجيش به صدره من كبرياء وضغائن ونطق المعري بآرائه فى الادباء والشعراء وءارائه فى الجنة والنار « فنفث مصدورا واظهر ضميرا مستورا » .

ونطق دانتي ايضا بآرائه حول الفلاسفة وحول الاديان وحول خصومه وصرح بكل ما كان يجيش به صدره من حقد وازدراء .

---

(13) يلاحظ ان القصائد والرسائل التى انتقاها الثعالبي لابن شهيد فى «يتيمة الدهر» هي نفس القصائد والرسائل الواردة فى رسالة التوابع والزوابع كما يلاحظ ان ترتيب هذه المختارات فى كتاب الثعالبي هو نفس ترتيبها فى رسالة ابن شهيد .

وهناك شبه ءاخر بين رسالة التوابع والزوابع ورسالة الغفران والكوميديا الالهية وهو ان كلا من ابن شهيد والمعري ودانتي يسافر الى الجنة او الى ارض الجن مصحوبا برفيق الا ان ابن شهيد ودانتي يقادان في رحلتهما بينما المعري هو الذى يقود ابن القارح وفى هذا استعداد كبير من جانب الفيلسوف العربي كما فيه نوع غير قليل من الاستهانة والتهكم .

لقد قلنا اذن ان هشاما المعتمد بعد ما اشتهر مجونه وقوى استبداده طرد من قرطبة وانه رجع الى مدينة البونت وقد تم ذلك فى سنة 422 وابن شهيد حينئذ فى نحو الاربعين من عمره وصحته معتلة الى اقصى حد .

ورغم مرض ابن شهيد وعلله الخطيرة فقد راى ان عليه ان يتمم رسالته الادبية فالف كتاب « حانوت عطار » (14) فصل فيه نظرياته فى النقد الادبي والبلاغة والبيان وتحدث فيه عن ادباء عصره وما يستحسنه لكل اديب وما يواخذ عليه كل واحد منهم وما كاد ينتهي من تاليف هذا الكتاب الذى يحمل عنوانا معبرا وهو **حانوت عطار** حتى بدا داء الفالج يشتد عليه وينغص عليه الحياة وقد ابدى ابن شهيد فى هذه الفترة القاسية من حياته شجاعة نادرة على تحمل الالام ولم يعدمه داء الفالج بالاضافة الى داء ضيق التنفس من الحركة وقول الشعر وقد نطق اديب الاندلس الخالد فى ءاخر حياته باروع شعره واصدقه منها قصيدة قالها بعد ما سمع نعي الوزير الكاتب ابي جعفر بن اللماني .

وقصيدة ارسلها لصديقه ابن حزم يبدأها بهذه الابيات :

ولما رايت العيش لوى براسه
وايقنت ان الموت لا شك لاحقي
تمنيت انـي ساكـن فى عباءة
باعلى مهب الريح فى راس شاهق
ارد سقيط الحب فى فضل عيشتي
وحيدا واحسو الماء بين المفالق

وكانت ءاخر قصيدة قالها ابن شهيد قبل ان يموت ويسلم الروح الى باريها هي القصيدة التى منها هذه الابيات :

وليس عجيبا ان تدانت منيتي
يصدق فيها اولي امر ءاخر
ولكن عجيبا ان بين جوانحي
هوى كشرار الجمرة المتطاير
يحركني والموت يحفر مهجتي
ويهتاجني والموت عند حناجري

قال ابن بسام « وكان ابو عامر كثيرا ما كان يخشى صعوبة الموت وشدة السوق فيسر الله عليه وما زال يتكلم ويرغب الى الله ان يرفق به ويكثر من ذكره الى ان ذهبت نفسه رحمه الله يوم الجمعة ءاخر يوم من جمادى الاولى سنة ست وعشرين واربعمائة ولم يشهد على قبر احد ما شهد على قبره من البكاء والعويل .

وهكذا طويت حياة هذا الرجل الفنان التى يمكن ان تعتبر صورة مصغرة لحياة الاندلس العابثة اليائسة التى شاخت وفنيت قبل الاوان بفضل المحن التى اصابتها وتعاقبت على اهلها المنغمسين فى حياة الترف واللهو والملذات .

الرباط ــ احمد القادري

(14) انظر ترجمة ابن شهيد فى كتاب جذوة المقتبس للحميدي .

أزهار البرتقال

للأستاذ عدنان الداعوق

— ولكن يا باسم ...

— لقد قررت وعلي ان انفذ قراري باسرع وقت ممكن ..

— والكليـــة .. ؟

— سأتركها غير آسف ..

— والطـــب .. ؟

— تعلمت ما يكفيني ان اضمد جراحي وجراح قومي

وصمت «رافع» وجلس على كرسي قرب «باسم» وهو موقن تماما ان هذا هو قرار رفيقه الاخير .

ومهما يكن من امر فان اى شيء فى الدنيا لن يقف فى وجه « باسم » او عقبة فى طريقه .

وران عليهما صمت مطبق ...

قال « باسم » فجاة :

— من العبث ان اظل هنا .. وغيري هناك ... اى نظام فرق بيني وبينهم .. اية طبقـــة .. بل ايـــة قضيـــة ... ؟

رد «رافـــع » :

— لا شيء ابدا .. ولكن يخيل الي ان مستقبلك .. ايامك القادمة ستفيد القوم عندما تصبح طبيبا ، فنحن ما زلنا فى تخلف ونحتاج الى كل متعلم وعالم يستطيع ان يصنع من اجل شعبه شيئا .

هب « باسم » واقفا وهو يقول : :

— ارجوك يا رافع .. لقد فهمت ما فيه الكفاية ، ولم اعد بحاجة بعد اليوم الى العلم ، لقد استوعبت القضية ... سمني جاهلا ان شئت ، ولكـــن هـــذه التسمية افضل عندي الف مرة من ان اظل فى جحيم هذه المدينة ، اسمع فى كل يوم شتائم الناس لقومي ... لماذا ، لانهم يريدون ارضا يعيشون فوقها .. يريدون بيتا .. بل كوخا صغيرا يأوون اليه ..

واكمـــل قائـــلا :

— لقد سئمت .. سئمت كل شيء ولم اعد اطيق صبرا .. وسارحل غدا ...

* * *

وقف البروفيسور « نورمان » فى احدى قاعات كلية الطب بجامعة « هامبورغ » يشرح لطلاب السنة الرابعة ، الفرق بين كبر حجم الجمجمة وصغرهـــا وعلاقة هذا الفرق فى الذكاء .. وقال :

— تأملوا معي هذه الجمجمـــة .. ان صغر هـــذا التجويف الذي يسكنه الدماغ يدل دلالة واضحة على ضعف الذكاء عند صاحبها ... ولا عجب فى ذلك اذا قلت لكم ان هذه الجمجمة لزنجي اسود من سكـــان افريقيـــــا ...

وقف « باسم » وصاح باعلى صوتـــه مقاطعـــا استـــاذه :

— أما آن للعلم ان يتحرر من ربقة القيود الموحشة يا استاذ .. ؟

صمت الاستاذ قليلا ، وهو يتطلع الى « باسم » .. ثم اجاب بكل هدوء :

— لم يكن العلم مقيدا في يوم من الايام .
رد « باسم » في عنف :

— اية حرية اذن لعلم يفرق بين جمجمة زنجي وجمجمة ابيض .. ؟

قال الاستاذ متمالكا اعصابه :

— هذا ما دلت عليه الدراسات ...

ضحك « باسم » ساخرا وهو يقول :

— الدراسات ... والسخافات تدل على اعمق من هذا ايضا .

عدل الاستاذ « نورمان » نظارته على عينيه ، وقال :

— لا اسمح لك بهذا الكلام يا باسم .. ان كانت لديك بعض الاسئلة فسنبحثها بعد انتهاء المحاضرة .
فلم يعبأ « باسم » بكلام استاذه ، فاستمر يقول :

— ليس ما أقول بعيدا عن العلم او عن الدراسات ... فقد آن الاوان للعالم الابيض في اى مكان من العالم لكي يعرف ان الزنجي انسان قبل كل شيء .. والتفرقة العنصرية لا دخل لها في العلم ابدا ...

واردف صائحا :

— هل تستطيع يا سيدي ، اذا بدلت لك هاتين الجمجمتين ونزعت الاسم عنهما ان تعود الى معرفتهما من جديد .. ؟

ارتفع صوت « نورمان » هذه المرة ، وقال :

— اجلس يا باسم ان كنت تبغي الصمت .. او اخرج ان كنت لا تستطيع الجلوس ..

قال « باسم » بحدة ونزق :

— قبل ان اخرج اريد ان اتحداك يا سيدي .. فبعد ان زال الجلد الاسود من فوق جمجمة الزنجي الانسان ، هل ترك السواد لونه على العظام .. ؟

وانفعل « نورمان » وصاح :

— باسم .. اخرج .. فقد اسأت للعلم وانهكت كرامته .

وترك « باسم » مقعده في القاعة ، وخرج ... وحين اصبح امام استاذه ، التفت وواجه زملاءه ، وقال :

— وانت يا سيدي العالم الابيض أسأت للانسانية .

❊ ❊ ❊

ابتسم « باسم » وهو يقول لرفيقه :

— ما كنت اظن ان نورمان يهودي .. حتى عرفت موقفه الاخير مني في الفصل الماضي .. فعلى الرغم من انني اجبت على اسئلته اجابات موفقة جدا .. الا انه حطم علامتي واراد أن يحطم مستقبلي ..

قال « رافع » :

— رجل حقير ...

قال « باسم » :

— كلهم كذلك .. ولهذا يجب ان نبرهن لهم اننا اقوياء .. اننا بشر .. اننا اصحاب حق في الحياة .. وفي الموت ايضا .. وفي العلم كذلك .

سأل « رافع » في حزن دفين :

— وماذا نويت ان تفعل يا باسم ؟ .

قال « باسم » وقد اشرقت على وجهه فجأة ابتسامة مشعة :

— سأغادر هامبورغ .. وسألتحق بالرفاق ... لنصنع معا مجدا ونبني ارضا وننشيء وطنا ...

وتهيأ للخروج ، ووقف عند الباب ، والتفت الى « رافع » وقال :

— سأفتقدك ... سأفتقد هذه الغرفة الصديقة وهذا الجو الحبيب الذي كان ينسيني هموم الدنيا كلها ... وسأراك غدا .

وخرج « باسم » ، واستسلم « رافع » لموجة من بكاء صامت حزين .

وصلت الى اسماع « باسم » دقات الساعة الكبيرة في المدينة تعلن انتصاف الليل .. كان ما يزال في غرفته الصغيرة ذات النافذة الواحدة التي تطل على الشارع .. الشارع الطويل الذي تبدو الجامعة في نهايته .

غدا سيترك المدينة ...
غـــدا سيرحـــــل ...

سيرحل .. الى اين .. الى اين سيرحل .. ؟

الى الوطن .. الى الارض التي عاش فيها آباؤه وتركوا فيها اكثر من نداء للعودة ..

ازاح ستارة النافذة قليلا ، وتطلع الى الشـــارع المغسول بامطار الليل النظيفة .. فالمطر في الليـــل يغسل كل ادران المدينة ، ولكن ما ان يظهر الصبـــح حتى يعود الى المدينة وجهها القذر .

سنـــوات اربـــع ...

عمر مضى ، ما يزال يحفظ فيه كل ايامه ودقائقه ولحظاته .. وعمر آت يلفه المجهول لا يرى منه سوى افق بعيد شفيف ، واشباح من رجال تغدو وتروح .. وانفجارات في كل مكان ... ودمـــاء تسقـــي الارض العطشى ابدا للعطاء الزكي .

هناك عاش الآباء .. وهناك ولدت الامهات جيلا نزح قبل ان تكتحل عيونه برؤية الارض الخيرة المعطاء.

يا ارض الحب والخير والدماء ... غدا سأراك..

غدا سأعانق ترابك المقدس .. غدا ستكتحـــل عيناي بازهار البرتقال الحزين ... غدا ساعود لالبي نداء الارض ونداء الحياة .

واحس فجاة بنشوة عارمة وحب جديد لهـــذه المدينة الغريبة .. وتساءل في نفسه .. ترى ما سر هـــذا اليـــوم .. ؟

وجاءه من اعماقه اكثر من جواب : قلوب محبة .. نفوس متطلعة ، آمال مرسومة ، آفاق بعيدة ... كلها تنتظر وتتطلع وترتقب غدا جديدا ويوما مبتسما.

وعادت السؤالات تتزاحم في نفســه ..

ترى ما شكـل ارضي .. ما لون ترابها .. ما رائحة ازهار البرتقال .. ؟

لقد ترك الارض السليبة وهو ما يزال في سنواته الاولى ، لا يكاد يعي صورة من صور الماضـــي .. الا تلك الرحلة الشاقة القاسية المرة ، يوم رأى النـــاس جمعا كبيرا يرحلون .. ويتركون بيوتهـــم في نزهـــة طويلة خشنة .

لم يكن يعرف يومذاك معنى هذه الرحلة ، وكـل الذي وعاه .. ان بعض الناس كانوا يبكون بينما هـــم يرون من حين لآخر التماعات في الجو تكاد تفجر الليل كله عن انوار ذات اصوات مرعدة جبارة .

وتمضي الايام ...

ويألف « باسم » يوما بعد يوما مدينـــة كبيرة ، على وجوه سكانها بسمة ، وفي قلوبهم حب ... وفي تطلعاتهم اكثر من امل مشرق وضاء ...
ويعرف انه في دمشق ...

وتكافح العائلة الصغيرة ، ويناضل افرادهـــا ، وتتهالك الام الحانية كيما تؤمن لاولادهـــا مستقبـــلا كمستقبل الاولاد جميعا ...

وتستمر الصور البعيدة تمر .. واحدة في اثـــر اخرى ، وهو يتطلع من نافذة غرفته الصغيـــرة الـــى المدينة التي تغتسل بامطار الليل النظيفة ...

ويسمع من جديد دقات الصبح تقطع عليه حبل ذكرياته البعيدة .. وتوقظ في نفسه آماله القريبـــة الآتيـــة .

وتشرق الشمس ، وتتسرب اشعتها خيوطـــا مذهبة تتسرب الى اعماقه فيحس بأكثر من نشـــوة تزاحم احاسيسه الدفينة .

ويبتســـم ...

يبتسم اذ يرى عن بعد: رجال يعملون .. واطفال يلعبون .. ونساء تزغرد .. وافراح تقام في كل دار .. وبسمات على كل شفة .. وسعادة في كل قلب ... وروعة على كل وجه ... وشكر على كل لسان .

* * *

— ادموع ارى في عينيك يا رافع . ؟

تمتم « رافع » وهو يمسك بيد « باســـم » على رصيف المحطة .

— اجل .. انها دموع الفرحة .. اليوم انـــت .. وغدا نحن .. وكلنا سنعود ..

قال « باسم » مشرق الوجه وضاح الجبين :

— ليس قبل ان تنهي جامعتك يا رافع ... وعندما سنعود ، ستجدني قد هيأت لك عيادة كبيرة في اجمل احياء القدس .. القدس الجديدة التي سنبنيها انـــا والرجال غدا ..

وقطع دوى القطار وصفيره على الرفيقين حديثهما ..

فكانت الشفاه تتمتم دون ان تسمع الكلمات ، والقلوب هي التي تعبر عن كل الامال ...

وامتدت الرحلة ...

مرة في قطار .. واخرى في شاحنة .. واخيرا في باخرة ..

وتطول الايام ، ويحسبها « باسم » دهرا طويلا ، واياما لا تنتهي ... !

ويقف على سطح الباخرة .. هو الانسان الذي يبحث عن ارض بين الماء والسماء .. والسحب ممتدة على طول المدى ومنتهى الافق .

ترى ما شكل ارضي ... ما لون ترابي .. ما رائحة ازهار البرتقال .. ؟

وتتزاحم الصور امامه من جديد .

رحلة قاسية ، واناس يبكون ، وانوار ليلية تنفجر عن اصوات مرعدة جبارة ... ومدينة كبيرة ، على وجوه سكانها بسمة ، وفي قلوبهم حب .. وفي تطلعاتهم اكثر من امل مشرق وضاء ...

وجمجمة بيضاء لانسان اسود .. تجويفها مغارة كبيرة حوت آلام البشرية وعذاب الانسان منذ ان وطات قدماه الارض .

وعالم أبيض في اعماقه سواد معتم يرسم زيفا وجه الحقيقة المضحك ...

وقلوب تتطلع الى غد قريب ...

واحس « باسم » فجاة بشيء جديد ...

وابتسم ، وراحت نظراته تسابق الامواج تستبق الريح ..

وانتشى من نفس عميق عبه واراد ان يبتلع الوجود فيه ...

ما هذه الرائحة الغريبة ... ؟

ما هذا العطر الساحر الاخاذ .. ؟

ما هذه اللذة المثلى في النفس العميق .. ؟

وجاءه الجواب عميقا عميقا :

انها رائحة ازهار البرتقال ...

سوريا : عدنان الداغوق



المغـــرب

* اصدر الدكتور عباس الجراري كتابا بعنوان : «القصيدة» والكتاب يضم دراسة وافية عن الزجل المغربي ونشوئه ومراحله . نتمنى له صدى بعيدا .

— ◆ —

* اصدر المكتب الدائم لتنسيق التعريب فى الوطن العربي معجما خاصا بالمصطلحات الحسابية المستعملة فى برامج التعليم الابتدائي باللغتين العربية والفرنسية وكانت حصيلة هذه المصطلحات نتيجة لجرد الكتب المدرسية المقررة فى البلاد العربية والغربية وهادفة الى توحيد المصطلحات الرياضية فى طور التعليم الابتدائي حتى يسهل على كل معلم مزدوج اللغة تلقين الدروس فى مادة الحساب .

— ◆ —

* اعلن المكتب الدائم لتنسيق التعريب فى الوطن العربي الى علم الاساتذة والطلاب وسائر المثقفين انه جهز مكتبة تحتوي على كتب ومجلات فى مختلف الشعب العلمية ليضعها رهن اشارة القراء .

— ◆ —

* افتتح فى الرباط معرض « الاعمال الفنية المحفورة والبلاستيكية » خاصة بالجمهورية الديمقراطية الالمانية .

— ◆ —

* افتتح فى مدينة مراكش المهرجان الحادي عشر للفلكلور ، تحت اشراف وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الاصلي .

— ◆ —

* تماثل الى الشفاء الاستاذ الكبير سيدي عبد الله كنون ، بعد العملية الجراحية التى كانت اجريت له فى مستشفى ابن سينا ، وعاد حفظه الله الى مواصلة اعماله الفكرية .

— ◆ —

* «ابو ذر الغفاري ونوع اشتراكيته» موضوع رسالة اعدها السيد احمد لسان الحق ، لنيل ديبلوم الدراسات العليا لدار الحديث الحسنية ، حيث نوقشت هذه الرسالة خلال الاسبوع الاخير من شهر يونيو ، باشراف الاستاذ علال الفاسي ، وعضوية لجنة المناقشة من الدكتور مامون الكزبري ، والدكتور محمد كمال شبانة .

— ◆ —

* يستعد اتحاد كتاب المغرب ، لتهييء المؤتمر الذى حدد موعده يوم 11 يوليو المقبل .

— ◆ —

* يصدر قريبا عن وزارة الدولة للثقافة كتاب يضم المحاضرات التى القيت فى موسم 68 — 1969 .

— ◆ —

* صدر للاستاذ محمد الفاسي وزير الثقافة تحقيق لكتاب « انس الساري والسارب » لمحمد الحبيب السراج .

— ◆ —

* يعكف الدكتوران محمد ابن شقرون ، ومحمد كمال شبانة على تحقيق مخطوطة « ريحانة الكتاب » للوزير لسان الدين ابن الخطيب .

— ◆ —

* صدر للدكتور محمد ابن شقرون ، مدير النشاط الثقافي العام بوزارة الثقافة كتاب باللغة الفرنسية بعنوان : « البيئة المغربية ومظاهرها

الثقافية على عهد بني مرين وبني وطاس » في 250 صفحة من القطع المتوسط .

— ◆ —

* افتتح في قاعة الضباط بالرباط مهرجان بمناسبة الذكرى الثانية والعشرين لاغتصاب فلسطين .

— ◆ —

* اقيمت بالرباط بمقر معهد الحسن الثاني للفلاحة المناظرة الدولية للجيولوجيا ، بحضور وفود من فرنسا ، وتونس ، وانجلترا ، وفيلاندا ، وكندا ، والسويد ، والمانيا ، وروسيا ، وتشيكوسلوفاكيا .

— ◆ —

* نهني صديقنا الدكتور السيد ابراهيم حركات المندوب الاقليمي لوزارة التربية الوطنية لمدينة فاس الذي يعتبر عضوا عاملا من اسرة «دعوة الحق» على نجاحه في نيل الدكتوراه بدرجة جيد ..
وكان موضوع اطروحته التي قدمها بفرنسا بمدينة اكس بروفانس يتناول « الحياة الاجتماعية في عصر بني مرين » حيث اشرفت عليها لجنة مؤلفة من الاساتذة السيد « كولان » استاذ الاثار الاسلامية ، الذي يعمل تحت اشراف الاستاذ المعروف « لوتورنو » ومنتران المتخصص في المسائل المتعلقة بتركيا ...
فتهانينا لاخينا الاستاذ الدكتور ابراهيم حركات

— ◆ —

* ينظم معهد غوته بالدار البيضاء اياما مسرحية المانية للتعرف على المسرح الالماني ، وخاصة بفرقة ماندرا غور التي يرجع اليها الفضل في ابتكار المسرح المرئي .

— ◆ —

* صدرت في المغرب مجلة جديدة تحت عنوان « سينما 3 » باللغة الفرنسية .

— ◆ —

* صدر في الرباط كتاب : « نقطة نظام » وهو مجموعة قصصية للاستاذ السيد محمد الصباغ رئيس قسم الآداب بوزارة الدولة للثقافة .

— ◆ —

* وزارة الشبيبة والرياضة تعد الان لمحمد الصباغ ، مشتملا على 17 قصة . قدم هذه المجموعة القصصية الاستاذ ميخائيل نعيمة .
مسرحية للاطفال من اخراج السيد عبد اللطيف الدشراوي الذي يعمل في فرقة « القناع الصغير ».

* ينعقد المهرجان الشعري السادس لجمعية اصدقاء المعتمد تحت شعار :

«الابداع اساسي في التحول الى واقع انساني»

والبرنامج الادبي لهذا المهرجان الحافل سيكون في المواقيت الآتية :

يوم الجمعة 4 شتنبر : يوم المسرح

الافتتاح على الساعة العاشرة صباحا

— حفلة التدشين

— كلمة الجمعية في اطار الشعار
مساء على الساعة الرابعة محاضرة تحت عنوان :

— المسرح المغربي بين الاقتباس والابداع

ليلا على الساعة العاشرة عرضان مسرحيان :

— مأساة الحلاج (الصلاح عبد الصبور)

— ثورة الزنوج (المعين بسيسو)

يوم السبت 5 شتنبر : يوم الشعر

صباحا الساعة العاشرة محاضرة تحت عنوان :

— ملامح الاصالة في الشعر المغربي الحديث
مساء الساعة الرابعة محاضرة تحت عنوان :

— الشعر المغربي الحديث كحركة تاريخية
ليلا الساعة العاشرة

قصائد ونقد

يوم الاحد 6 شتنبر : يوم الفلسفة

صباحا الساعة العاشرة محاضرة تحت عنوان :

— الواقعية في الفلسفة المغربية

مساء الساعة الرابعة محاضرة تحت عنوان :

— موقفنا الاصيل من الفلسفات المعاصرة

ليلا الساعة العاشرة

— ندوة في موضوع :

بين الشعر والفلسفة

— بيان المهرجان

— ◆ —

* اقامت رابطة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر حفلا دينيا بمناسبة المولد النبوي الكريم .

— ◆ —

* افتتح فى المركز الثقافي الفرنسي بالدار البيضاء معرض كبير عن الفنان الموسيقار موريس رافاييل .

— ◆ —

*اقام رجال البريد الفنانين بالدار البيضاء معرضا مشتركا لانتاجاتهم الفنية .

الجزائر :

* شاركت فرقة المعمورة فى مهرجان المسرح الذى اقيم بالجزائر .

تونس :

* احتفل فى تونس فى مهرجان تأبيني كبير بالذكرى الاربعينية لوفاة العلامة الجليل المرحوم الفاضل ابن عاشور ، وسيشارك فيه علماء من مختلف الاقطار الاسلامية .

— ◆ —

* افتتح فى بورصة الشغل بالعاصمة التونسية اشغال المناظرة الدولية حول محو الامية التى تنظمها منظمة اليونسكو . وترأس حفل الافتتاح رئيس ديوان كتابة الدولة للشؤون الاجتماعية والسكنى ، بتخصيص اشغال المناظرة لدراسة مشاريع وتجارب محو الامية التى جرت فى مختلف بلدان العالم الثالث .

— ◆ —

* عقد المجلس الاداري للاتحاد الاوربي للاذاعات دورته الثالثة والاربعين فى « غمرات » بضواحي شمال تونس بدعوة من الاذاعة والتلفزة التونسية .

— ◆ —

* عقدت مؤخرا بمدينة الحمامات بتونس مناظرة حول الدراما فى العالم . شارك فى اشغال هذه المناظرة 18 خبيرا من الخبراء الدوليين فى المسرح ينتمون الى كل من الجزائر ، واسبانيا ، وفرنسا ، والعراق ، وايطاليا ، ولبنان ، والمغرب ، والجمهورية العربية المتحدة .

— ◆ —

* فى تونس تجري استعدادات كبيرة وسط المثقفين من اجل تأسيس اتحاد لكتاب تونس . كان مؤتمر طرابلس لكتاب المغرب العربي قد أوصى بتأسيس اتحادات لكتاب الاقطار الاربعة .

نيجيريا :

* احتفلت جمعية الطلبة المسلمين فى كلية اوريو بنيجيريا بارساء الحجر الاساسي لمسجد الكلية .

والجدير بالذكر ان الكلية سمحت بانشاء مسجد على ارض الكلية .

الجمهورية العربية المتحدة :

* نعت الاوساط الثقافية بالقاهرة مؤخرا الاستاذ الدكتور عبده اسماعيل الطهطاوي ، اثر نكسة صحية ، لم تمهل زهرة شبابه اياما . والفقيد احد اعلام الادب العربي المقارن ، وممن ساهموا فى نهضة وتطوير ادب المسرح ، بفضل قصصه المؤلف والمترجم ، كما يذكر له — بجانب ادبياته — اطلاعه الواسع فى مجال الاسلاميات ، وكان قد اتحفنا اخيرا بمقال « اكاديمي » قيم عن « تفسير القرءان الكريم فى مصر » ، الذى نشرناه بمجلتنا (العدد الثاني — السنة 13 — يناير 1970 م) .

ووفاء من اسرة تحرير «دعوة الحق» للزميل الراحل ، سنوافي الباحثين ، ولاول مرة ، بمقتطفات من تحقيقه — الذى لم ينشر بعد — كتاب «الكواكب الدرية فى السيرة النورية » لابن قاضي شهبة ، حول سيرة القائد البطل نور الدين محمود (511 — 579 هـ) قاهر الصليبيين ، والذائد عن حمى الاسلام ومقدساته .

ومجلتنا — اذ تاسى لفقد الزميل الدكتور الطهطاوي — تبتهل الى الله ان يجزيه فى جنات الخلد وفاق ما اسدى الى الثقافة والدين ، وان يلهم اسرته وعارفيه الصبر والسلوان .

* اصدر مجلس البحوث الاسلامية بالقاهرة كتابا قيما عن الشيخ محيي الدين بن عربي الفيلسوف الصوفي المشهور . وذلك بمناسبة الذكرى المالوية الثامنة لميلاده . وقد ساهم في تاليف هذا الكتاب جماعة من كبار رجال الفلسفة الاسلامية الذين عكفوا مدة طويلة على دراسة ءاثار محيي الصوفية .

— ◆ —

* مؤتمر الادباء العرب ينعقد في سبتمبر القادم . القاهرة ستشارك باكثر من ثلاثين عضوا.

— ◆ —

* « شادية الاسلام » اسم اول قصة لعلي احمد باكثير تخرجها مؤسسة السينما في القاهرة .

— ◆ —

* توفي في القاهرة المربي المعروف الاستاذ عباس احمد الشربيني .

— ◆ —

* اقرت لجنة الموسيقى بمجلس الفنون والاداب بالقاهرة الكتاب الذى اعده محمود كامل عن حياة واعمال الموسيقي محمد القصبجي واوصت بطبعه .

— ◆ —

* «المنبع» مجموعة قصص جديدة من تاليف علي كامل صدرت في القاهرة .

— ◆ —

* يصدر قريبا للشاعر المصري فتحي سعيد مجموعة شعرية جديدة بعنوان « عيون البنادق » .

— ◆ —

* صدر للشاعر احمد عبد المجيد كتاب جديد بعنوان : « اضواء على الديبلوماسية » .

— ◆ —

* قرر مجلس الفنون بالقاهرة طبع كتاب للمصطلحات الفنية المسرحية بجمع اصل الكلمة بالايطالية والفرنسية والانجليزية ثم ينقلها الى العربية ويبين المقصود منها . الكتاب سيدرس في المعاهد الفنية لمنع الخطا الذى يقع فيه الطلبة الآن من تحديد المقصود من الكلمة

* توفى في القاهرة الدكتور مظهر سعيد ، وهو من اوائل المصريين الذين تعلموا في انجلترا .

— ◆ —

* اقامت جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة مهرجانا كبيرا لتابين الفقيد محب الدين الخطيب .

— ◆ —

* اصدر في القاهرة احمد عطية الله (صاحب القاموس السياسي والقاموس الاسلامي) كتابا هاما عن 1969 رصد فيه مختلف احداثها في انحاء العالم تحت عنوان: «حوليات العالم المعاصر».

— ◆ —

* بعد جهد علمي كبير ستغرق تسع سنوات صدر اول قاموس طبي صيدلي باللغة العربية ، يتضمن شرحا للمصطلحات اللاتينية والانجليزية، المستعملة في الطب والصيدلة باللغتين الانجليزية والعربية ، ويشمل مصطلحات التشريح ووظائف الاعضاء والجراحة والطب الباطني والنفسي الى طب العيون والانف والاذن والاسنان ، الى الاجهزة والآلات ، كما يشمل الادوية والنباتات الطبية .

– ووضع هذه الموسوعة في 2404 صفحات يؤكد حيوية اللغة العربية .

واذا كانت اللغة العربية في الطب والعلوم ، قد درست في جامعة « توبنجن » بالمانيا خلال القرن الخامس عشر ، وكتب ودراسات الرازي وابن سينا تشكل القاعدة الاساسية في الدراسات الطبية في جامعة « لوفان » بفرنسا خلال القرن السابع عشر ، وفي جامعة «مونبلييه» في القرن الثامن عشر فان العودة الى استعمال اللغة العربية في دراسات وابحاث العلوم المختلفة ضرورة قومية واقتصادية وعلمية في وقت واحد .

– وقد استطاع الدكتور علي محمود عويضة نقيب الصيادلة ووكيل اتحاد نقابات المهن الطبية السابق ، ان يحقق بهذا الجهد الممتاز ، معنى الثراء العلمي للغة العربية ويظهر قدرتها على شمول احدث النظريات العلمية في الطب والصيدلة في مجالات تسمية الادوية وطرق تقييمها، والمستنبتات البكتيرية ومنها البكتريا والفيروسات والريكتسيات واللولبيات التى تسبب امراضا كثيرة وخطيرة ، ويشرح

القاموس طرق وظروف استنباتها ، بالاضافة الى موضوع الاجسام المضادة ومولداتها والامصال .

ـ والدكتور علي عويضة حاصل على الدكتوراه فى الصيدلة والكيمياء من جامعة ستراسبورج بفرنسا فى موضوع (حبة البركة وزيتها) وفوائدها الطبية والمواد الفعالة فيها .

ـ وفى الوقت الذي يبحث فيه المجمع اللغوي تعريب عشرات من المصطلحات الطبية والصيدلية الى اللغة العربية يجب دراسة هذا القاموس توفيرا للجهد ومنعا لتكرار التعريب . ولا ننسى فى مجال تعريب الاصطلاحات الطبية للمرحوم الدكتور محمد شرف ، صاحب اول معجم انجليزي عربي فى العلوم الطبية والطبيعية صدر فى عام 1928 وبقي وحده فى الميدان 42 سنة حتى صدر القاموس الجديد .

لبنـــــان :

❊ مجموعة شعرية جديدة صدرت مؤخرا للشاعر زياد نجيب ذيبان بعنوان : « لتحترق الحدود » . وللشاعر ديوان ءاخر بعنوان : « الشوق والرصاص » .

— ◆ —

❊ صدر للشاعر الدكتور ميشال سليمان ملحمة شعرية بعنوان : « النار والاقدام الجائعة » يتناول فيها القضية الفلسطينية .

— ◆ —

❊ « صفحات من تاريخ اندونيسيا المعاصرة » عنوان كتاب صدر من تأليف محمد اسعد شهاب .

— ◆ —

❊ نعت لبنان سماحة الشيخ رشيد حماده.

— ◆ —

❊ « المهاجر » مجلة جديدة صدرت فى بيروت .

— ◆ —

❊ سيزاح الستار قريبا فى بيروت عن تمثال العلامة الفقيد عيسى اسكندر المعلوف فى مهرجان ادبي كبير .

ســـوريـــا :

❊ يعكف الدكتور محمد التونجي على دراسة وتحقيق « دمية القصر » للباخرزي .

— ◆ —

❊ نعت حلب الاستاذ فتح الله صقال .

— ◆ —

❊ صدرت حديثا عن دار الاجيال مسرحية بعنوان : « بابل الخاطئة » وهي من تأليف محفوظ ايوب .

— ◆ —

❊ «مسائل وجودية» عنوان كتاب يعكف على تأليفه السيد صلاح الدين الايوبي .

— ◆ —

❊ مسرحية من تأليف عبد المجيد لطفي بعنوان «ضجة النهار» صدرت حديثا .

العـــــراق :

❊ « رثاء ايام الحصاد » مجموعة شعرية تصدر قريبا فى بغداد للشاعر عبد الحسين ياسين .

— ◆ —

❊ ءاخر ءاثار لفقيد الراحل الدكتور مصطفى جواد ، ستصدر فى الحلقة التاسعة من موسوعة « العتبات المقدسة » .

— ◆ —

❊ فى «رحاب القرءان» كتاب جديد صدر للشيخ محمد حسن ءال يس ، وهو دراسة جديدة وتفسير عصري للقرءان .

— ◆ —

❊ اعتزمت رئاسة ديوان الاوقاف العراقيةعلى بعث التراث العربي الاسلامي، وذلك بتحقيقه ونشره على النهج العلمي السليم . وقد الفت لجنة لهذا الغرض .

* محمد النقدي الشاعر العراقي صدر له كتاب جديد بعنوان : « الرجل الذى فاته القطار » .

— ◆ —

* الجزء الثاني من كتاب « ءاراء فى الشعر والقصة » يصدر قريبا وهو من اعداد خضر الولي .

— ◆ —

* اعيد طبع كتاب «الجبايش» للدكتور شاكر مصطفى ، يشتمل على دراسة انتربولوجية عن حياة سكان الاهواز فى العراق .

— ◆ —

* عدنان الغازي تصدر له مجموعة شعرية بعنوان : « فى صدى قنديل » .

ايـــــران :

* صدر كتاب « الجبر والاختيار » تاليف ءاية الله العظمى السيد محمد صادق الحسيني الروحاني ، والكتاب من منشورات مكتبة اسماعيليان بمدينة « قم » ، بايران .

الاتحـــاد السوفياتـــــى :

* اعرب مؤتمر الكتاب السوفييتي الذى انهى اشغاله فى موسكو عن استنكاره وتنديده بالعدوان الصهيوني على الدول العربية والتدخل الاميركي فى الهند الصينية .

فلسطـــين :

* ديوان شعر جديد صدر لمحمود درويش بعنوان : « الكتابة على ضوء البندقية » ، كما صدر للشاعر سميح القاسم ديوان بعنوان «قرقوش» .

الكـــويـــــت :

* عقد فى الكويت اول مؤتمر عربي اقليمي لمنع الجريمة ومعالجة المذنبين، والمؤتمر عقد باشراف الامم المتحدة وجامعة الدول العربية .

الاردن :

* «الاردن» هذه الجريدة عادت الى الصدور بعد احتجاب دام اكثر من سنة .

* بمناسبة يوم المراة العالمي ، اقيم فى قاعة امانة العاصمة بعمان مهرجان نسائي شارك فيه اتحاد المراة الفلسطينية والاتحاد الوطني للمراة الاردنية الفلسطينية .

المانيـــا :

* «مؤسسة نيتشه» ، هكذا تسمى هذه الحركة التى تعمل على جمع كل ما يدور حول نيتشه، ما كتب ، وما كتب حوله وعليه من دراسات ، موجودة ومفقودة . ولهذه المؤسسة مجلة تنطق باسمها تسمى « انكادين » . وقد ظهر لحد الساعة العدد الثاني منها ، وتعمل المؤسسة على اقامة حفلات ومحاضرات ومناظرات ولقاءات خاصة بالكاتب .

— ◆ —

* سيقام يوبيل تذكاري رسمي فى مدينة ستوتجارت بالمانيا الاتحادية للفيلسوف ويلهلم فريدريك هيجل من 12 الى 15 يوليو بمناسبة مرور مائتي عام على ميلاده . وقد اختيرت هذه المدينة لانها مسقط راسه . وقد ولد هناك فى 27 غشت عام 1770 . وبهذه المناسبة ستقوم هذه المدينة بمنح جائزة هيجل للمرة الاولى للفيلسوف برونو شنيل من هامبروج . وسيعقد اثناء الاحتفال مؤتمر علمي .

فـرنســـا :

* اعلنت نقابة الصحفيين والكتاب الفرنسيين عن جوائز سنة 1970 الادبية والصحفية وكانت النتيجة كما يلي :

1 ـ جائزة التحقيق :

اعطيت لجون فيرنيو ، وهو صحفي يكتب افتتاحية فرانس سوار واذاعة لوكسمبورغ عن جملة المواضيع التى تطرق لها .

2 ـ جائزة المجلة المستقلة :

حصل عليها يان برايلين عن كتابه « ثورة الجرارات » .

3 ـ الجوائز الشعرية :

الشعر الكلاسيكي :

احرز عليها « راوول بارم » عن ديوانه

«الصلاة الراقصة»
الشعر الحر :
منحت «لجون كوتسو شيراس» عن ديوانه :
« يا رجال ، من اجل حقوق الانسان ،
انهضوا » .
جائزة عن هاشيت :
احرز عليها جون غازالبو عن كتابه « لو حكيت
لي ارمينيا »

4 ـ اما جائزة اوربا :
التي تعطى لكاتب عمل في صالح الوحدة الاوربية فلن تقوم الا في 18 ابريل .

5 ـ جائزة مونتكالم
التى تعطى لكاتب ساهمت اعماله في التقارب بين فرنسا وكندا فقد حصل عليها سابقا البروفيسور الكندي مارسيل ربو عن كتابه « قضية كويبك » .

وقد وزعت هذه الجوائز بالمعهد البيداغوجي بباريس .

— ◆ —

※ في باريس صدرت من جديد للكاتب الاميركي هنري جيمس رؤية بعنوان «صورة امراة»، وهي قصة فتاة اميركية شابة ابحرت الى اوربا واصبحت غنية وارثة حيث انتهى بها الامر الى الزواج .

— ◆ —

※ عادت الى الصدور مجلة « اوربا » بعد احتجاب عدة سنوات. هذه المجلة تحاول رصد الادب خاصة منذ الادب التقدمي في كل القارة الاوربية ، ومن بين محرريها الشاعر الفرنسي لويس اراغون وزوجته الزاريوليه ، سابقا كان معهما بول ايلوار.

※ باسم نقابة الكتاب في فرنسا ، وقع اجتماع هام انتهى بانتخاب المكتب الجديد . والجديد في الامر ان هذا المكتب لا يضم اي اسم معروف لحد الساعة .

— ◆ —

※ منحت جائزة المسابقة الادبية الاوربية السادسة عشرة : « كورتينا اوليس » لكتاب «هل العالم مزدوج السكان » ؟ للكاتب الفرنسي ادوار بوتانو . من الاسباب التى ادت الى منحه الجائزة، لهذا الكتاب، ان المشاكل السياسية للعالم الثالث تعتبر المشكلة الانسانية الاولى التى تواجه عالمنا .

— ◆ —

※ من الكتب الهامة التى صدرت مؤخرا بالفرنسية كتاب « تاريخ الفن من الواقعية الى الوقت الحاضر » .

اسبانيا :

※ صدرت في مدريد مؤخرا مجموعة اقاصيص عربية مترجمة الى الاسبانية عدد الاقاصيص 21 ثلاث منها لنجيب محفوظ ، والباقي لميخائيل نعيمة، وزكريا تامر ، واميل يوسف عداد ، سميرة عزام ، والدكتور عبد السلام العجيلي ، وحسيب الكيالي ، وفارس زرزور ، وعادل ابو شنب ، وسعيد حورانية، وعيسى الناعوري ، وفؤاد التكرلي ، وديزي الامير ، وذو النون ايوب ، ومحمد عبد الحليم عبد الله ، ومصطفى محمود ، ويوسف ادريس ، وثروت اباظة .

قام بترجمة هذه القصص ماريا خيسوس فيغيرا ومارسيلينو فيبقاس . وعنوان المجموعة « اقاصيص عربية من القرن العشرين » .

صدر عن وزارة عموم الاوقاف والشؤون الاسلامية الجزء الرابع من كتاب : « ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك » تاليف القاضي ابي الفضل عياض بن موسى بن عياض السبتي المتوفى سنة 544 هـ .

وقد انتهى القول في الاجزاء الثلاثة السابقة كما هو معلوم في الطبقات الثلاث لاصحاب مالك الذين اخذوا عنه وسمعوا منه منتهاه ، وابتدا رحمه الله في الجزء الرابع بالطبقة الاولى الذين انتهى اليهم فقه مالك والتزموا مذهبه ، ممن لم يره ، ولم يسمع منه .

وقد قدم لهذا الجزء من الكتاب معالي وزير عموم الاوقاف والشؤون الاسلامية الاستاذ السيد الحاج احمد بركاش . كما قام بتحقيقه والتعليق عليه الاخ الاستاذ السيد عبد القادر الصحراوي .

الاستـــاذ عبـد الخـالـق الطـريـس
فــي ذمــة اللـه

استأثرت المنون فى الشهور الاخيرة بفقيد الوطنية والاسلام الزعيم المخلص الاستاذ الكبير السيد عبد الخالـق الطريـس الذي وافاه الاجل المحتوم ظهر يوم الاربعاء 21 ربيع الاول 1390 اثر سكتة قلبية فى مدينة طنجة ...

وكانت لوفاته ، رحمة الله عليه ، واسكنه فسيح الجنان ، رنة حزن واسى فى جميع الاوساط سواء فى داخل البلاد او فى خارجهـا لما كان يتحلـى به ، تغمده الله بالرحمة والرضوان ، من صدق ووفاء ، وتفان وتضحية وفداء، وعمل دائب فى نصرة القضايا الاسلامية والوطنية ...

وقد خدم العرش المغربي وقضية بلاده منذ صباه ، وابلى البلاء الحسن طيلة أيامه العامرة لصالح القضايا الفكريـة والادبيـة والعلمية والوطنيـة والاصلاح مما اكسبه عطفا كبيرا من جميع الاوساط ولاسيما من طرف صاحب الجلالـة مولانـا الحسن الثاني الذى كان يضمر له كل عناية وتقدير .

وقد عرف الراحل الفقيد السيد عبد الخالق الطريس رحمة الله عليه ، بين اصدقائه وشعبه بالبذل السخي، واسداء النصح ، وطهارة القلب، وصفاء السريرة، وعفة اللسان ممايذكرك، وانت تعرف نبله وفضله، بالحديث النبوي الشريف الذىاخرجه الترمذي فى سننه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « ان فى الجنة لغرفا ، يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها أعدها الله لمن أطعم الطعام وألان الكلام ..»

رحمك الله يا أستاذ الجيل ، وأمطر على جدثك شآبيب الرحمة والرضوان، والهم ذويك الصبر والعـزاء والسلـوان ، وجزاك على ما قدمت يداك من صالح الاعمال ، وحشرك مع اخوانك المومنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ...

وانـا للـه وانـا اليـه راجعـون .

لـكـل أجـــل كتـــاب ...

انتقل الى عفو الله معالي وزير البلاط الملكي السيد احمد بن مسعود مساء يوم الاحد 9 ربيع الثاني 1390 الموافق 14 يونيه 1970 بباريس حيث قضى ، رحمه الله ، مدة ثلاثة اشهر فى معالجة مرض عضال الم به فى المدة الاخيرة .

وقد اصدر سيدنا المنصور بالله تعليماته السامية لينقل جثمان الفقيد بالطائرة الى الرباط حيث تم تشييع جنازته الى مثواه الاخيرة بمقبرة العلو

وقد استدعي سنة 1927 الى القصر الملكي ليعمل به الى جانب جلالة المغفور له محمد الخامس رحمه الله .

ومنذ ذلك التاريخ وهو يعمل بالقصر الملكي كاتبا خاصا ثم مديرا للامانة الخاصة لجلالة المغفور له محمد الخامس .

وقد اقره جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله فى جميع مناصبه واختصاصاته عندما تولى الملك سنة 1961 الى آن عينه فى السنة الماضية وزيرا للبلاط الملكي.

وقد ظل الفقيد يواظب على العمل المناط به بمنتهى الجد والاخلاص والتفاني

ولم يكن يبدو عليه اي اثر للمرض الى أن اصيب بمرض فى نهاية شهر يناير الماضي فامر جلالة الملك بنقله الى باريس حيث اشرفت جماعة من كبار الاساتذة والاطباء النطاسيين على معالجته دون جدوى .

رحم الله الفقيد السيد احمد بن مسعود رحمة واسعة واسكنه فسيح جناته .. آمين .